

تأملات الإنسان

جاء النفاذ



تأملات في الانسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

© دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1409 هـ / 1989 م
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المريخ للنشر
الرياض - المملكة العربية السعودية - ص . ب 10720
الرمز البريدي 11443 - تـ لـ كـ س 403129 ،
لا يجوز استنساخ أو طباعة أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب أو
اختزانه بأية وسيلة إلا بإذن مسبق من الناشر.

رجاء النقاش

تأملات في الإنسان

الطبعة السادسة

١٩٨٩



عن الطبعة الثالثة

صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٦٣ بعنوان « التماثيل المكسورة » في سلسلة « اقرأ » الشهرية . وقد نفذت الطبعة الأولى بعد شهور . وصدرت الطبعة الثانية من الكتاب في دار القلم في بيروت بعنوان « الحب لا يتكلم كثيرا » ، وكانت الطبعة الثانية تضم تسعة فصول جديدة . وها هي الطبعة الثالثة أقدمها للقراء بعد حوالى سبع سنوات من صدور الطبعة الثانية . وأود أن يسمح لى القراء هنا باعتراف خاص ، هذا الاعتراف هو أنني أحب هذا الكتاب أكثر من أى كتاب آخر لى . وذلك ببساطة لأننى كنت أحاول أثناء كتابته أن أعالج نفسى من الحزن والضيق بالحياة . كنت أحاول أن أنتصر على عوامل الهزيمة الروحية التى أوشكت يوما أن تسد أمامى كل الطرق وأن تسلب منى أى حماس للحياة أو ابتهاج . وكلما عدت إلى فصول هذا الكتاب تدفقت فى روحى عزيمة تريد أن تنتصر على الحزن والأسى والتشاؤم .

ويمرور الأيام اكتشفت أن الكثيرين يشعرون نحو هذا الكتاب
بنفس مشاعري؛ وذلك لانهم اصطدموا في طريق الحياة ببعض الأحزان
الكبيرة ، ودخلوا مع هذه الأحزان في صراع حاد أرادوا أن يتصرفوا فيه
وأن يواصلوا حياتهم رغم عدوان الجزن والكآبة .

وفي هذه الطبعة الثالثة اخترت اسما جديدا للكتاب هو « تأملات
في الإنسان » . . . لقد كنت حائرا منذ الطبعة الأولى لهذا الكتاب في
تسميته . واخترت عنوان الفصل الأول عنوانا للكتاب في طبعته
الأولى . وفي الطبعة الثانية اخترت عنوان فصل آخر عنوانا للكتاب .
ولكنني لم أكن مسترخيا للتسمية الأولى ولا للتسمية الثانية . على أنني
أشعر الآن - في هذه الطبعة الثالثة - بأنني وجدت العنوان المناسب
الصحيح الذي يعبر حقا عن الإطار الذي يدور فيه هذا الكتاب .

إنه تأملات في الإنسان . . .

تأملات متواضعة ولكنها صادقة .

وأرجو أن يغفر لها هذا الصدق كل ما فيها من أخطاء وعيوب .

رجاء النقاش

القاهرة - ابريل « نيسان » ١٩٧٧

مقدمة الطبعة الأولى :

مِنَ الحَيَاةِ

هذه صور من الحياة .. عرفت بعضها عن طريق التجربة المباشرة ، وعرفت بعضها الآخر عن طريق قراءاتي ، والمشكلة الرئيسية في هذه الصور كلها هي المشكلة التي شغلتنى سنوات طويلة ، فانصرفت إلى التفكير فيها بعقلي وقلبي معا . وهي نفسها المشكلة التي وجدت الكثيرين يفكرون فيها مثلى ، وربما أكثر منى .. ويبحثون لها عن حل .

وهي مشكلة لا يمكن تحديدها في كلمة واحدة . إنها مشكلة الخصومة مع الحياة .. هذه الخصومة التي لم يفلت منها إنسان أبدا . حتى الذين توافرت لهم أسباب السعادة الكاملة من المال والصحة

والحب وراحة البال ، حتى هؤلاء قد تعرضوا لتجارب وقفوا أمامها
حائرين ، وحاولوا التخلص منها بسلام .

فكيف يعيش الإنسان في سلام مع نفسه ، وفي سلام مع الناس ؟
ما الطريق إلى ذلك ، وما العقبات التي تقف في الطريق ؟ وكيف
يتصرف المهزومون في معركة الحياة ، وكيف يتصرف المنتصرون ؟ ..
ما الأمل .. وما التفاؤل ما التشاؤم .. ما الآسى .. ما الفرح ؟

كل هذه الأسئلة هي التي حاول هذا الكتاب بما فيه من صور
نفسية أن يجيب عنها .

والمسألة - في النهاية - هي مجرد محاولة ، لا تزيد في أنجح صورها
على أن تكون مجموعة من « أقراص الاسبرين » هدفها تخفيف ذلك
المرض القديم .. الحزن البشرى والخصومة مع الحياة .

وحتى هذه « الأقراص » لست أنا صانعها ، فأصحابها الحقيقيون
هم أبطال هذه الصور النفسية ، أو الأساتذة الكبار الذين عشت
معهم ولهم فترة من الحياة أمثال تشيكوف ، وتولستوى .

فإذا خفف عنك هذا الكتاب شيئا من صدادك النفسى فاشكر
أصحاب الصيدلية الحقيقية من الفنانين أو من نماذج الناس المختلفة .

وإذا كانت النتيجة عكس ذلك .. فلا تلم أحدا غيرى .. ثم
اغفر لى .. !

القاهرة ١٩٦٣

رجاء النقاش

التمثيل المكسورة

« عندما يصبح الامتياز محنة ... »

هذا النوع من الناس تقابله كثيرا في الحياة ..

عندما يرى فتاة جميلة يتسم ابتسامة لها مغزى ، وتسأله : لماذا
تبتسم ؟ فيقول لك : يا عم .. إنها فتاة سيئة السلوك ، وإذا رأى
وجها ناجحا في التلفزيون قال لك إنه لا يستحق الشهرة ، لقد وصل
إلى مركزه بالمصادفة والتفاق ، وإذا قرأ لكاتب ناجح كان همه الوحيد
أن يثبت لك أن هذا الكاتب فاشل لسبب من الأسباب ! .

فما سر هذا الشخص ؟

إنه نوع من الناس يكره الامتياز ، ويعادى التفوق ، ويخاف خوف
عميقا من أن يرى شخصا يتمتع بموهبة لامعة .. لا يجب أن يرى

تمثالا جميلا تنظر إليه العيون بإعجاب ، وتلنف حوله القلوب بأعمق ما فيها من عاطفة . ولكنه يستريح تماما إذا تحطم هذا التمثال ورآه مجموعة متناثرة من الأحجار . . !!

منظر البضعف يريحه ويسعده ، وأوراق الخريف عنده أحلى من زهور الربيع ، ومنظر الدمار يطمئنه على أن العالم بخير . . ليس فيه تفوق ولا امتياز !! . .

إن تمثال فينوس الجميلة الساحرة الكاملة يرضيه ، ولكن منظر فينوس ذات الذراع المكسور يريحه !! .

هذا النوع من « النفسيات » يعادى الامتياز فى كل صورة ، سواء كان هذا الامتياز وجها جميلا ، أو شخصا محبوبا صادقا ، أو عملا ناجحا ، والدافع الأساسى الذى يحرك هذه النفسيات هو أن أصحابها لا يملكون صفة جميلة تميزهم عن الغير ، وهم فى الوقت نفسه لا يعملون ولا يجهدون لاكتساب هذه الصفة الجميلة . . ولكنهم يفعلون مثل الصرصار فى القصة المعروفة . . حيث يلعب فى الصيف بينما يجمع النمل قوته استعدادا للشتاء . . وعندما يحىء الشتاء بعواصفه وإزماته لا يجد الصرصار ما يأكله ، لأنه لم يعمل ولم يجهد . . بينما يكون النمل آمنا من الجوع لأنه عمل فى الصيف واجتهد .

ولكن الصرصار فى القصة المعروفة يطلب من النمل أن يعطيه بعض الطعام . . أما هذا النوع من النفسيات فلا يجد مخرجا لأزمته .

إلا في كراهية « الامتياز » والعمل على تشويه الممتازين وتحطيمهم . .
وفرش طريقهم بالأشواك .

فالشخص الممتاز هو نقد غير مباشر لأصحاب هذه
« النفسيات » . . يبرز ما فيهم من نقص ، ويكشف إلى أى حد
يعيشون هم على سطح الحياة .

وهذا الشعور يثير القلق ، بل إنه يثير الخوف . . فكيف يمكن
التغلب على نار هذا الشعور المحرق ؟
كيف يمكن الوقوف أمام النجاح بدون نجاح ، وأمام القوة بدون
قوة ، وأمام الجمال بلا جمال يوازيه ؟

إن الطريق إلى ذلك هو نقد الشخص الممتاز ، وتشويه صورته ،
واقناع النفس أولا ثم إقناع الناس بأنه شخص لا أهمية له . .

بل إن هذا العمل يصبح رسالة كبيرة ، هي إثبات العجز في
الشخصيات الممتازة ، والبحث عن أخطائها ، ثم افتعال هذه
الأخطاء إن لم تكن موجودة في الواقع .

وعندما ينهار الشخص الممتاز تستريح نفوس أعدائه الذين خلقهم
امتيازهم . . وتنطفئ نار الحقد ، ويعود كل شيء هادئا مطمئنا
لا تزعجه تلك القوة الخارجية المتفوقة .

ومن حقائق الحياة المؤلمة أن الشخص الممتاز نفسه يتيح الفرصة لـ
هذا الموقف ، فهو غالبا ما يكون منصرفا إلى الأشياء الجوهرية في

الحياة ، لا يسمح لنفسه أن تهتم بالأشياء التافهة ، وهو لا يشعر بأى خطر لهذه الأشياء . . وكثيرا ما يتصور الناس على صورته ، فهم يفكرون فى الأشياء الجوهرية مثله ، ويحبون الجمال مثلما يحبه . ويؤمنون بما يؤمن به من أفكار إنسانية ، وهو لا يتصور كثيرا أن أحدا يمكن أن يخطر على باله أى نوع من الغدر والخديعة .

وهنا يمكن أن يكون فى الشخص الممتاز ما يصح أن نسميه « ضعف العظماء » . . وهو الضعف الذى يؤدى إلى عدم رؤية الآخرين رؤية صحيحة ، والعجز عن تصور انفعالاتهم الخفية السوداء وإدراكها .

ولذلك فكثير من الأفراد الممتازين يقعون فى فخاخ الحاقدين عليهم بسهولة غريبة ، بل إنهم يساعدون - بدون إرادة - مساعدة رئيسية على خلق الأسباب التى تؤدى بهم إلى الكارثة والنهاية الحزينة . . ولم يسلم من هذا المصير إلا نوع من الممتازين الذين جمعوا إلى القوة فيها واقعا دقيقا للنفس البشرية ، وما فيها من منعطفات ضيقة ودهاليز مظلمة .

ويقدم لنا التاريخ نماذج متعددة عن « محنة الامتياز » وعن سوء النهاية التى كان الممتازون الطيبون يصلون إليها عندما يقعون قريسة للحقد عليهم والإنكار لهم .

وهم عادة لا يسارعون إلى علاج هذه المشاعر ، بل على العكس . يساعدون على إشعالها بتصرفاتهم التى تمتلئ بالبساطة والسذاجة والطيبة ، والتى تمتلئ فى الوقت نفسه بالعظمة .

سقراط أبو الفلسفة الإنسانية مات محكوما عليه بالإعدام ، وكان الذى قدمه إلى المحكمة هو رجل من أغنياء أثينا وجهائها الذين ضاقوا بعلم سقراط وشهرته وحب الناس له . . لقد طمس وجود سقراط اسم ذلك الأثينى الغنى ، وجعله فى حياة أثينا صفرا على الشئال . . ولم تنفعه ثروته ولا قصوره ولا عبيده . . فكان سقراط على فقره وبساطة حياته أقرب إلى الناس منه . . كان نجم أثينا اللامع ، وظلها الذى تستريح إليه النفوس كلما أصابها التعب، وأرهقتها الحيرة .

ولم يفهم سقراط طبيعة الحقد الذى ثار ضده .

أما الأثينى الغنى فقد سعى بكل قوته إلى تحطيم سقراط ، واتهمه بأنه « خارج على دين أثينا مفسد لشبابها » . . ولم يفهم سقراط أن هذا الاتهام ما هو إلا ستار يختفى وراءه الخوف الذى يحمله له بعض رجال أثينا وعلى رأسهم صاحب الاتهام . .

ولم يسارع سقراط إلى علاج المشكلة بحكمة وبراعة . . ولكنه على العكس واجه الاتهام بقوة ، وظن أن المسألة هى معركة فكرية يجب أن ينتصر فيها من يكون الحق بجانبه .

ووقف سقراط فى المحكمة يدافع عن نفسه أمام جماهير أثينا ، وكلما ازداد توفيقا كلما ازداد حنق القاضى عليه . . وكان القاضى الأول هو نفسه ذلك الأثينى الغنى .

دافع سقراط عن نفسه ببلاغة جميلة وشجاعة وحكمة . . برز امتيازه من جديد أمام الناس ، ولو انتصر سقراط في هذا الموقف فإن معنى ذلك أن وجهه أثينا الغنى قد وصل إلى نهايته وانهار . . إن امتياز سقراط هو مطرقة دائمة مخيفة تهوى على رأس الأثيني الكبير .

قال سقراط للمحكمة :

« أنا جندي قديم ، ورجل طاهر الذيل ، شريف العيش ، وقد جعلت رسالتي هي محو الجهل الشائع في أثينا ، وجعلت هدفي هو خير الناس ، وإنني أحاول دائما أن أجعل من حياتي بركة على أبناء أثينا، ولو أعفيت من الموت فإنني سأظل أجاهد في نفس الطريق . . أما الذي يتهمني فما هو إلا رجل غبي متكبر لا يعرف الحقيقة » .

وظل سقراط يتحدث ببلاغته الساحرة حتى أثبت أفكاره وبرهن عليها ، وعندما وصل إلى هذه النقطة كان في الوقت نفسه قد حدد نوع الحكم الذي صدر ضده بعد ذلك . . . وهو الحكم بالإعدام .

ويعلق برنارد شو على دفاع سقراط فيقول :

« إن إثبات سقراط لفكرته كان هلاكاً له وقضاء عليه . . لقد قضى عليه جهله بمبلغ ما أثاره عليه رجحان عقله في قلوب الرجال من خوف وكره ، وما كان سقراط يحمل لهم في قلبه إلا الخير، وما كان يظن إلا أنه أسدى لهم كل معروف » ^(١) .

(١) مقدمة مسرحية جان دارك لبرنارد شو ترجمة الدكتور أحمد زكي .

وهكذا انتهى سقراط بتهمة باطلة . . شرب السم ومات ، انتهى
لأنه كان صادقا وجميلا . . كان ممتازا . . وكان كما قال عنه تلميذه
وصديقه أفلاطون : « إننى لن أتردد فى تلقيه بأعدل رجال عصره » .

وقد أثار عليه امتيازه هذه النفسية التى تخاف الامتياز وتكرهه ،
وتشعر أمامه بالرهبة ، ولا تستريح حتى تشوهه وتقضى عليه ، وحتى
تجعل من التمثال الجميل تمثالا مكسورا . . أجزأوه كومة من التراب
تخلو من التأثير والجاذبية .

وهذا نفسه ما حدث للفتاة الصغيرة المخلصة : جان دارك ، فقد
حوكمت ، وأحرقت ، بعد أن قادت فرنسا إلى النصر وهى مهزومة
تكاد تركع تحت أقدام الجيوش الإنجليزية .

لقد راحت « جان » ضحية الوفاق بين إنجلترا وفرنسا . وكانت
محنة « جان » هى محنة الامتياز أيضا .

وكانت ذات هدف كبير منحها الشجاعة والقوة ، فلم تكن تسعى
لخدمة نفسها بل كانت تحاول خدمة بلادها ، على أن تعود إلى قريتها
بعد أن يتحقق النصر . . أما رجال فرنسا فكانوا يفكرون فى مصباحهم
الشخصية ومراكزهم الرسمية .

وكانت صادقة صريحة ، تقول للمخطيء - فى عينه - أنت مخطيء
ولذلك لم يحتملها رجال عصرها ؛ فقد كان امتيازها عبئا عليهم ،
وخطرا يهدد وجودهم ، ونقدا دائما لهم . فأكبر من فيهم مركزا وأهمية -

وهو الملك شارل - كاذ شعـر أن آراءها أصوب من آرائه ، وأن شخصيتها أقوى من شخصيته . . إنه إلى جانب هذه الفتاة القروية الصغيرة يبدو عديم الأهمية تماما . .

ولم تكن « جان » تعرف اللف والدوران والحيلة ؛ ولذلك أحرقها هؤلاء الذين خدمتهم وأحبهم ، وكانت جريمتها التي لم تجد من يغفرها لها هي : التفوق عليهم . .

وقد علق برنارد شو على حرق جان دارك وإعدام سقراط فقال : « لقد كان لنابليون مقدرة خيفة كالتى كانت لجان دارك وسقراط ، ولكنه لم يكن صريحا مجاهرا برأيه . . وكان طموحا فلم ينخدع فى « رواجه » عند الناس ، ولم يخطئ معناه أبدا ، وسئل مرة وهو فى قمة مجده وشهرته : كيف يتصور حال الناس إذا تلقوا نعيه فقال : « سيتنفسون الصعداء » ^(١) . .

من أجل هذا مات نابليون على فراشه ولم يصب بسوء ، فقد احتذى دائما بالحذر ، وسوء الظن العميق بالنفس البشرية ، ومعرفته أن الذين يكرهون الامتياز ويخافون منه أخطر من الذين يحبونه ويتعاطفون معه .

وكان المسيح يدرك هذه الحقيقة النفسية التى تواجه « الامتياز » وتعمل على سحقه ، ولكن إدراكه لها لم ينقذه مع ذلك من العذاب الذى ذاقه على يد أعدائه والذين يتظاهرون بحبه وصداقته .

(١) مقدمة مسرحية « جان دارك » لبرنارد شو ترجمة الدكتور أحمد زكى .

ومما يكشف عن فهم المسيح العميق لهذا الجانب من الطبيعة البشرية قول الإنجيل :

« قال بطرس : إن شك فيك الجميع فأنا لا أشك فيك أبدا ، قال يسوع : الحق أقول لك ، إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك سكرنى ثلاث مرات . »

وعندما بدأ اليهود يفتشون عن المسيح لإيذائه أو تعذيبه أخذوا يبحثون عن « حواريه » وأصحابه وتلاميذه ، وكان من بين هؤلاء بطرس . أخلص التلاميذ والحواريين ، فأنكر معرفته بالمسيح ، وإن كان قد ندم بعد ذلك على هذا الإنكار وحمل رسالة المسيح من بعده !

وهكذا حدث ما توقعه المسيح ، فقد سيطر الخوف على « بطرس » ودفعه في لحظة المحنة إلى إنكار أستاذه ومعلمه ! ، في اللحظة التي كان فيها أعداء المسيح يحاولون القضاء عليه والتخلص من امتيازه .

وهذا ما يحدث دائما لكثير من « الممتازين » إذ يقعون فريسة لتلك النفسية التي يخيفها الامتياز ويقلقها . . .

وليست هذه الأمثلة التاريخية إلا نماذج مجسدة نجد صوراً كثيرة منها في حياتنا العادية . . . فالمهندس الناجح ، والفنان الموهوب ، والفتاة الجميلة ، والشخص المحبوب ، كل هؤلاء يعانون هذه المشكلة . . . فالخوف من الامتياز - كما يقول أحد علماء النفس - هو ظاهرة معضلة من ظواهر النفس الشبيهة .

وهى ظاهرة يشعلها الفشل والضعف ، ويخفف منها بل ويقضى عليها أن يحاول الانسان احترام الامتياز وعجبته . . وحب الشخص الممتاز معناه الانتهاء إليه|والارتباط به ، ولا يمكن لإنسان تعود إحساسه وذوقه على حب الامتياز والاعتراف به إلا أن يصبح في نهاية الأمر إنسانا ممتازا وجميلا . ولكن حب الامتياز عادة صعبة ، تحتاج إلى قوة نفسية كبيرة ، وإلى ظروف اجتماعية تتيح للجميع فرصا متكافئة ، وتفتح الطريق أمام كل فرد يريد أن يعمل ويجتهد . . ولذلك فإن المجتمع كلما تقدم واتسعت فرص الحياة فيه أصبحت مشكلة الفرد الممتاز أقل انتشارا وأقل عنفا .

فالمجتمع المتقدم دائما يحتاج إلى العناصر الممتازة ويعتمد عليها . . كما أنه يتيح الفرصة لكل فرد حتى يملأ حياته العملية وحياته النفسية بما يشغله . . وما يجعله راضيا عن الحياة غير ساخط على الآخرين .

ورغم ذلك كله فستظل الإنسانية تشكو من تلك النفسية التي تكره الامتياز وتحشاءه ، فالامتياز ابتكار وتجديد وخروج عن العادة ، والناس تستريح للعادة القديمة ، حتى لو كانت سيئة ، على أن تحتل هموم التجديد والابتكار .

ولكن الإنسانية ستظل في الوقت نفسه تضع سرها وقوتها في الشخص الممتاز الذي يدفع الحياة إلى الحركة ، وينير طرقها المظلمة ، ويغامر دائما في سبيل الكشف عن الشيء الغامض فيها . . حتى يسير من بعده الناس في نفس الطريق .

والذين يكسزون التماثيل الجميلة ، أوسعون إلى تشويهها ، قد
ينجحون أحيانا ، ولكن الحياة تعود من جديد فتخلق هذه التماثيل
ليحبها البعض . . ويكرهها آخرون . . ولكي تكون دائما الزهرة التي
تنثر العطر للناس وتشرب العذاب .

اللذة الخطرة ...

كان يقول لكل من يقابله :

- أنا موسيقار .. أنا عبقرى .. ولكنى لا أستطيع أن أكتب لحنا
واحدا وزوجتى على ظهر الحياة .. إنها تفسد نبوغى .. وتقتل
أحلامي كفنان .

وعندما يذهب إلى البيت الحزين الكئيب .. ينظر إلى زوجته فى
نفور .. ثم يضربها .. وهى صامته لا تتحرك .. لا تعترض .. لا
تقول : آه .

وفى صمت تجرى من عيونها دموع .. ثم تقدم له ما يحتاج إليه ..
فى طاعة الخادم الذليل .

وظل على هذه الحال سنوات طويلة .

وفى يوم عاد إلى البيت .. فوجد زوجته مكومة فى ركن مظلم ..
وصرخ فى وجهها فلم ترد عليه .. ثم ركلها بقدمه .. ولكنها لم
تتحرك .

وبدأ يتردد .. وعرفت يده الحنان لأول مرة بعد عشرين سنة من
الزواج .. وهو يهزها وينادى عليها ..

ولكنها لم ترد .. لقد ماتت .

وفزع العبرى .. وخرج من بيته .. وظل يجرى فى الظلام حتى
وقع على وجهه فى الطريق ، ومات .

هذه هى خلاصة القصة التى كتبها الأديب العالمى الكبير
« دستوفيسكى » .

والقصة تقدم لنا نوعا من الشخصيات يقابلنا كثيرا فى الحياة :
فالموسيقار يعانى ما يمكن أن نسميه « عقدة الاضطهاد » وهو يقنع
نفسه بأن زوجته تضطهده ، وتعطله عن الفن .. إنه يلقي عبء
فشله على زوجته .. ويبدو فى نظر نفسه بريئا خاليا من المسئولية ،
ويتوقف عن كل شىء .. عن تدريب نفسه ، عن سماع الموسيقى ،
عن محاولة الإنتاج ، فاللحن الوحيد الذى يعزفه باستمرار هو
الشكوى .. والسخط على زوجته .

وتمر الأيام وهو واقف ، يتقدم من هم أقل منه فى الموهبة
والكفاءة .. بينما هو يخفى عن نفسه حقيقة فشله ، وعندما تموت

زوجته تفاجئه الحقيقة الرهيبة .. فالمشكلة في داخله هو ، وسبب فشله هو أنه رجل بلا إرادة ، رجل لا يواجه المشكلة في عينها ، وإنما ينظر إليها من بعيد وبطريقة ملتوية .. وهو يخاف من الأسئلة الجريئة ، يخاف أن يعرضها على نفسه ويبحث لها عن إجابة .. ومن هذه الأسئلة الجريئة : لماذا لا أدرس الموسيقى بعمق ؟ .. لماذا لا أحاول أن أقضى وقتا طويلا مع فنى وأحاول أن أولف ؟ لماذا لا أعرف ما يفعله الآخرون في العالم الموسيقى لأستفيد منه وأضيف إليه ؟ .. ولم يسأل نفسه أبدا : ما ذنب زوجتى ؟ إنها تتحملنى وأنا قاس عنيف .. وهى لا تعترض أبدا ولا تشكو .

لم يفعل شيئا من هذا . وظل يخدع نفسه حتى انتهى السبب الوهمى الزائف للفشل .. فعجز عن احتمال الحقيقة .. ومات .

كان طيلة حياته يشعر بعذوبة الشكوى ، ويعيش في لذة عجيبة ، تصدر عن إحساسه بأنه مضطهد وشهيد .. وكان بحاجة عميقة إلى زوجته ، ليظل مستمتعا بشعوره الزائف المريح .

وكثيرا ما يتعرض الإنسان للفشل ، وليس هذا هو الخطر الأساسى على حياة الانسان .. ولكن الخطر يتركز في طريقه مواجهة الفشل .. وأخطر مراحل الفشل هى أن يتحول إلى عادة ثم اقتناع .. وفي آخر الأمر يصبح لذة يمارسها الانسان باستمتاع وسعادة . ولذة الفشل تبدأ عندما يلقي الإنسان اسبب فشله على الآخرين .. فيشعر أنه برىء أو شهيد ، ويبعد عن نفسه تماما مسئولية الوضع الذى وصل إليه .

فلا يحس بالقلق الذى يشعر به إنسان ينقد نفسه ، ويراقب تصرفاته
ويضع أمامه هدفا يريد أن يحققه . . ثم يتعب ويعرق فى سبيل
الوصول إليه .

إن الذى يضع مسئولية فشله على الغير ، هو إنسان يشعر أنه خال
من العيوب ، وأن العيب يكمن فى الآخرين .

ويشعر هذا الإنسان أيضا أنه على جانب من الأهمية . . ولولم يكن
« مهما » لما فكر أحد فى إيذائه والوقوف فى وجهه ! .

وكل هذه المشاعر لها سحر غريب على النفس . . يسيطر عليها كما
يسيطر المخدر . . وهو سحر يضع الإنسان فى عالم مليء بالأحلام
والأساطير . . عالم تتردد فيه كلمة : أنا . . . بما فيها من جاذبية
وعذوبة . . تستريح إليها الشخصيات الضعيفة . . والتي تعيش
حياتها بدون اتجاه أو هدف .

★ ★ ★

وقصة « دستوفسكى » هى لقطة صادقة من الحياة . . وكثيرا ما
نلتقى بنفس النماذج على مسرح المجتمع .

عرفت طالبة فى الجامعة ، وأتيح لى أن أرقب تطورها خلال بضع
سنوات .

كانت سمراء جذابة . . تتكلم بصوت هادئ خفيض . .
وتتصرف أيضا بهدوء ووداعة . . وكانت تعيش فى علاقة حب مع أحد

زملائها بالجامعة . . واستمرت هذه العلاقة ستين ، ثم انتهت بالفشل . . حيث تركها حبيبها وتزوج فتاة أخرى .

كانت لا تزال صغيرة وسيمة ، ولكنها انقلبت فجأة . . لم تعد تطيق البقاء في بيتها لحظة . . وأصبحت تفتحم حياة زملائها ، وتفرض نفسها عليهم . . وتقضى أيامها بطريقة لا تحافظ فيها على شيء من سمعتها أو شرفها . .

ولم تعد تعرف الهدوء ، أصبحت كثيرة الكلام ، تعلن مشكلتها للجميع بصراحة .

وكانت تدرك أن سلوكها غريب غير طبيعي . . وتبرر ذلك فتقول : إنه هو المسئول عن كل شيء . . .

لقد تركني بعد أن أحبته . . أنا لست مسئولة عن شيء .

كان فشلها في الحب « باسبورا » إلى الفوضى والاستهتار ، وأصبح هذا الشعور عندها لذة . . لذة كبيرة .

وإذا أعطت نفسها بدون تردد للآخرين فكأنها تنتقم من حبيبها . . وعندما تظهر في الأماكن العامة بسبب وبغير سبب فكأنها تتحداه . . وهى تخرج عن هدوئها القديم خروجا صاخبا ، كأنها تقول له : لقد تخليت عن كل العادات القديمة التى كانت لى . . وكنت تحبها وتسعد بها !

رأيتها مرة فكانت على حافة الانهيار العصبي أو الجنون . والغريب
أنها فقدت جاذبيتها . . وتحولت هذه السمراء الجميلة إلى وجه أصفر
لا جاذبية فيه .

لقد أخذت تستمتع بفشلها ، وتلقى مسئولية هذا الفشل على
حبيبها القديم . . لم تحاول أن تعالج المشكلة وتفهمها . . ولم ترسم
لنفسها خطة تسير عليها لتعيد لنفسها التوازن بعد خروج حبيبها من
حياتها . . . لتبدأ من جديد .

لقد فقدت إرادتها أمام الفشل . وسمحت للجانب الساحر في
الفشل أن يسيطر على تصرفاتها .
واستراحت من التعب .

كانت في الماضي تحاول أن تبدو جميلة مهذبة ، وكانت تقرأ لتبدو
مثقفة ، وتبذل جهداً لتكون شخصية جذيرة بالحب في عين حبيبها ،
أما الآن فلماذا تتعب أو تجتهد . . إنها تعيش حياة سطحية . . وتعتقد
كل يوم علاقة جديدة سريعة مؤقتة .

لقد وقعت في اللذة الخطرة . . لذة الفشل .



وذات يوم تلقيت رسالة من طالب بكلية العلوم جامعة
الإسكندرية . . تقول الرسالة :

» إننى أعيش بلا أحلام .. والشباب فى مثل عمرى يعيشون دائماً على الأحلام .. كل واحد يحلم .. وأحلامه فيها من لون الضوء .. ومن رائحة الزهر .. وهى فى النهاية ترسم لوحة جميلة للحياة جميلة .

إلا أنا .. فلا أرى أمامى غير اللون الأسود .. غير الظلام والكآبة .. كثيراً ما أسأل نفسى : لماذا جئت إلى هذه الدنيا القائمة المزدهمة . . . ؟ ولماذا قدر لأمى أن تنجبني فى الحياة ؟ ! . . .

إن أحداث حياتى قصيرة ولكنها حاسمة ، لقد أحببت فتاة ، وكنت أخطو الخطوات الأولى من شبابى .. ولكن هذه الفتاة أحببت أخى .. وأحبست بالهزيمة ، وجعلت من نفسى قوقعة ودخلتها وعشت فيها وحيداً صامتاً .

وتزوجت حبيبتى من أخى وأنا صامت وحيد .

ومرت الأيام ، وأنا لست إلا حزينا فى قوقعة . ثم حدثت مفاجأة .. فهات أخى فى شبابه ، وعادت زوجته - حبيبتى القديمة - إلى وقالت لى : إننى أحبك ..

وسكت ! .

كانت بحاجة إلى « كفن » لتبادلنى الحب .

لقد أحسست فى كلماتها بالمرارة .. إن الموت وحده هو الذى دفعها إلى حبنى ، وأدركت ظهري لهذا الحب ، وأنا أرثى لها ، ولنفسى ، ولأخى الذى مات .. وللدنيا !

ولكن أحزاني تعود إلى عالم قديم ، إلى طفولتي .. فقد كنت طفلا صغيرا قبيح الوجه .. وكنت - على صغري - أحس بالكراهية تحيطني من كل جانب .

وعندما كبرت ودخلت المدرسة كان عدم ثقتي بنفسى يشلنى .. فكنت بليدا يضربنى المدرسون .. ويسخر منى التلاميذ .

وكثيرا ما أقرأ أن الأطفال أكثر الناس فى الدنيا براءة وطهرا ..

صدقنى : إن الأطفال أكثر كائنات الله أنانية وقسوة ! لقد لقيت فى طفولتى منهم الكثير .

وعندما كبرت بدأت أفهم كلمات كنت أسمعها من أمى .. ولم أكن قبل ذلك أفهم منها شيئا ..

لقد سمعت من أمى كلمات غريبة . كانت تقول لى : لقد صنعت المستحيل لعدم إنجابك .. ولكن الله كان يريد لى التعاسة .. فولدتك بالرغم منى .

أى أننى جئت إلى هذه الحياة عبثا ثقيلًا على أمى ! وهكذا تمضى بى الحياة لا أكاد أخرج من القوقعة التى أعيش فيها حتى أعود إليها من جديد .. وجدران قوقعتى : صمت ووحدة وشك عميق فى قيمة الحياة ومعناها !

وهأنذا أمشى مع التيار .. تدفعنى الأحداث ولا أدفعها أبدا .. نفسى ضعيفة جدا .. أبكى لأنفه الأشياء !

وأحيانا أسأل نفسي : « هل لى من أمل ، هل لى ؟ ! » .

انتهت رسالة الطالب الجامعى .

وعندما قرأت الرسالة شعرت أن صاحبها قد صنع من فشله قصيدة جميلة ، وأخذ يتغنى بها بينه وبين نفسه .

لقد وقع هو الآخر فى « لذة الفشل » فهو وحيد مضطهد . والدنيا تظلمه . . ووجهه قبيح . . وحييته لا تحبه إلا إذا دفعتها كارتة إلى حبه .

لم يفكر فى مشروع واحد يتعلق به . . كأن يتفوق فى الدراسة . . أو يقرأ ويكون لنفسه شخصية ناضجة . . أو أن يبحث عن فتاة أخرى . . عن حب جديد ، ولكنه اختار أن يقتات من أحزانه ويشرب من دموعه .

لقد كانت أم المسيح تستنكر أن ينجى ابنها إلى العالم من غير أب . . ولكنه جاء وغير الدنيا . . وكان سقراط قبيح الوجه . . ولكنه كان أنشودة أثينا يتغنى بها الجميع . . بمن فيهم حسناوات المدينة . . وكان أبو « دارون » يقول عنه إنه « عار العائلة » ومع ذلك فقد ظل هذا « العار » يعمل ويجتهد . . حتى أصبح الملع اسم فى العائلة ، بل أصبحت العائلة كلها منسوبة إليه .

إن الحياة لا تعطى سرها وسعادتها بسهولة . . وعلى الإنسان أن ينظر إلى حياته على أنها مشروع ، يجب أن يعمل على تحقيقه

وتنفيذه . . وكما يقوم المهندس ببناء البيت . . فيضيف كل يوم شيئاً جديداً إليه حتى يتم ، كذلك ينبغي أن يفعل الإنسان : أن يضيف كل يوم إلى حياته شيئاً جديداً . . أن يقرأ صفحة مفيدة . . أن يقول كلمة طيبة . . أن يراقب نفسه ويسألها : إلى أى حد أنا نافع للحياة . .

وهناك حقيقة هامة . . تلك التي عبر عنها أحد المفكرين فقال : إن الرضا الشخصي ينبع عن هدف يخرج عن نطاق شخصية الفرد ، مثل العمل ، مثل الإيمان بشيء . . . مثل محاولة تربية الشخصية وجعلها مفيدة نافعة .

والفشل ليس نهاية للحياة . بل هو تجربة مفيدة يجب أن نخرج منها بنتيجة لنصل بتجاربنا الجديدة إلى شاطئ النجاح .

أما أن تضع يدك على خدك . . وتمشي على الرصيف . . ثم تقضى ليلتك على مقهى أبله . . ليس فيه إلا الضجيج والבלادة . . وبعد ذلك تنتظر أن تتغير حياتك بقفزة مفاجئة فهذا خطأ لا تسمح به الحياة .

إن « لذة الفشل » ساحرة . . وخاصة عندما تصبح عادة . . تخدع . . وتقتل الإرادة ، وتغلق حياة الإنسان بالأوهام . . والفشل لا يكلف ؛ لأنه حرية وراحة . . فلن تفكر في قيود تحاول أن تتخطاها ، ولن تتعب نفسك في خلق حياة إيجابية .

ولكن « لذة الفشل » لذة خطيرة . إنها تؤدى فى النهاية إلى هدم الحياة بقسوة ومرارة .

لقد عاش الأديب العالمى « تشيكوف » حياة صعبة قاسية وصفها هو نفسه مرة فقال : « كان أبى من رقيق الأرض ، وكنت أشتغل بالبيع فى أحد الحوانيت ثم بالغناء فى الكنيسة ، ونشأت على احترام السادة وتقدير أيدى القساوسة ، وتقدير آراء الآخرين ، والتعبير عن عرفان الجميل إزاء كل لقمة أصيها . . كنت كثيرا ما أجلد وأدور هنا وهناك ، وأضطر إلى النفاق . . لا لشيء إلا لشعورى بالتفاهة وضلالة الشأن » .

ولكنه لم يقف ولم يستسلم . . . فهو يقول :

« لقد بذلت مجهودا عنيقا لأعصر مشاعر العبودية من نفسى قطرة قطرة . . حتى استيقظت ذات صباح جميل فاكشفت أن عروقى لم يعد فيها أثر لدم ذليل ، وأنها تفيض بدم إنسانى حقيقى » ^(١) فابحث فى نفسك عن هذا الضباح الجميل . ولا تستسلم أبدا للذة الفشل . . . تلك اللذة الخطرة .

(١) تشيكوف - للنقاد الروسى يرميلوف ، ترجمة الدكتور عبد القادر القط .

الأمريكي الحزين

أمريكا هي بلد الصخب والعنف و«الجاز» والناس الذين يسرعون في الأكل والكلام والحركة ولا يجدون وقتا للهدوء والتفكير . . إنها بلد مهووسة بالضجة ، وهي كل يوم تفكر في تقاليع تغزو بها العالم .

وأمريكا هي بلد ناطحات السحاب والأضواء التي تلغى الفرق بين الليل والنهار . وهي بلد الإعلانات . . كل شيء فيها خاضع للإعلان حتى دور العبادة . . وتستطيع أن تقرأ في بعض شوارع نيويورك عن إحدى الكنائس تقول :

« يرافق الصلاة موسيقى رائعة ، وسائل الراحة مؤمنة » وإعلان آخر بالنيون عن كنيسة أخرى : « بعد الصلاة يعرض فيلم ملون يصور صعود الرسل تصويرا صادقا » .

وعشرات الملايين في أمريكا يعيشون هذه الحياة ويتحمسون لها . ولكن نظرة عميقة تخترق هذه الزحمة وتنظر إلى القاع تجد شيئا مختلفا .

إن الصخب والضجيج يخفيان حزنا عميقا يأكل قلب أمريكا . .
لقد وقف مهندس فنان ذات يوم في نيويورك وقال : « هذه مدينة مليئة
بالزينة . . لكنها زينة مفاجئة » .

وقد عبر هذا المهندس عن الحزن العميق الذي يعيش في قلب
أمريكا ، الإنسان هناك يحس بالضيق وسط الزحام والأضواء
وناطحات السحاب . ويحس بالضيق إذا فكر في تلك المشاكل
الكبرى التي لا تجد الحل ، مثل مشكلة ملايين الزوج المضطهدين
الذين ينظر إليهم الأمريكان على أنهم حيوانات .

ففي الحرب العالمية الثانية اشترك الزوج في القتال ولعبوا دورا كبيرا
في كسب الحرب . وذات يوم عادت كتيبة زنجية إلى أمريكا بعد أن
أسرت جماعة من الألمان . . وفي أمريكا كان الأسرى الألمان يتناولون
طعامهم في المطاعم ، أما الجنود الزوج فكانوا يذهبون إلى
المطبخ . . ^(١) ومن الذي صنع هذا الوضع ؟ . . الأمريكان
أنفسهم . . وقد احتج الزوج على ذلك ، وانتحروا جندي زنجي تعبيرا
عن هذا الاحتجاج . . ولكن ما تزال المشكلة قائمة حتى اليوم ،
يعانيها الزوج في ولايات الجنوب بأمريكا الشمالية . . وفي حي
« هارلم » بنيويورك أكبر مدن أمريكا .

وهناك أيضا مشكلة العمال الذين يتعطلون في مواسم مختلفة ،
ويبلغ عدد هؤلاء العمال أحيانا عشرة ملايين ، كانوا يتجمعون

(١) أمريكا كما شاهدها - إيليا امرنبرج - ترجمة وصفى البنى .

بالآلاف تحت الكبارى ويعانون ألوانا من الضياع والتشرد . . على أن
المشكلة الكبرى التى تفرض نفسها على معظم البيئة الأمريكية هى أن
الآلة تسيطر على الانسان وتسبقه فى كل شىء ؛ ولذلك فان المدينة
الأمريكية هى فرن ملتهب يتلعق الانسان ولا يعطيه فرصة للاستمتاع
بصدقة أو حب أو فن . . أو شىء عميق آخر . .

وبين الحين والحين يظهر نوع فريد من الأمريكان ليكشف
للأمريكان وللعالم ذلك الحزن العميق الذى يعيش فى هذا البلد
المجنون بالسرعة وعدم المبالاة .

إن هذا النوع هو الأمريكى الحزين . . الأمريكى الذى قاسى
حياة مجتمعه فامتلاً قلبه بالأسى لأنه لم يجد فى هذه الحياة تلك المعانى
الانسانية الكبيرة التى تجعل الإنسان يحتمل وجوده ويسعد به . . .

من هؤلاء أمريكى حزين ملأت شهرته العالم وأساء الكثيرون
فهمه ، حتى أمريكا جعلت منه صورة مائعة خليعة . . ذلك هو
الممثل الفنان « جيمس دين » .

وقد بلغ من خطورته وأهميته - كظاهرة فى المجتمع الأمريكى - أن
عكف على دراسة حياته وأزماته كثير من الباحثين فصدر عنه عدد كبير
من الكتب .

وحتى وقت قريب كان هناك كل أسبوع ألفا رسالة تكتب إلى
« جيمس دين » بعد وفاته . . يكتبها شبان وفتيات يؤمنون به . . .
ويؤمنون بأنه لم يمت . .

وفي أمريكا اليوم ٨٤ ناديا تحمل اسم « جيمس دين » وتضم عددا من الشبان والفتيات يزيد على ٤٠٠ ألف عضو .

فمن هو جيمس دين على حقيقته ؟

.. كانت أمه فلاحه عادية وكان أبوه عاملا متواضعا .. وخلقت له أمه في صباه جوا من الحنان الغامر ، فكانت تجيب له كل مطالبه ، وقد قرر عندما عرف الكتابة والقراءة أن يسجل كل ما يريده في « أجنده » صغيرة تراها أمه في آخر الشهر فتحقق له كل ما فيها .

وماتت الأم الحنون وهو في الثامنة من عمره بعد أن أصيبت بسرطان في الرئة .

وكانت فجيرة للصبي الصغير ، لم يعرف بعدها - وطول حياته - طعم الحنان ، لقد تركته أمه لعالم شديد القسوة ، لا يوجد فيه من يهتم بالآخرين .. كل إنسان يهتم بنفسه ولا يفكر في الغير .. حتى أبوه .. تزوج بامرأة أخرى بعد وفاة أمه . وقال جيمس دين عن ذلك الزواج الثاني لأبيه : « لقد كان يزيدني شقاء أن أرى في حجرة أمي امرأة أخرى » . وكان يضع خصلتين أخذهما من شعر أمه قبل أن تدفن تحت وسادته ، ثم يحملها معه في الصباح بين أوراق كراسته وهو ذاهب إلى المدرسة .. وكان تلميذا شديد العزلة ، يبكي كثيرا . وأحيانا يبكي أثناء الدروس .. لأن أمه غير موجودة في هذا العالم ، لقد كان شعوره باليتم هو الشعور الأساسي الذي ظل مسيطرا على حياته حتى مات .

ثم يذهب إلى الجامعة ويهرب منها ، إنها لم تعطه شيئاً يريجه ، ولكنه يكتشف في الجامعة أنه يستطيع أن يمثل ، ويعطيه أستاذ من أساتذته توصية إلى المخرج المعروف « اليا كازان » ويفتح أمامه « اليا كازان » طريق المجد .

ويمثل جيمس دين بطولة فيلم « شرقى عدن » ، وكان البطل في الرواية يعاني شعور اليتيم والوحدة وشعر بأن حياته « خالية من الحب » بعد أن هجرت أمه بيت الزوجية منذ طفولته .

واستطاع جيمس دين أن يمثل هذا الدور تمثيلاً رائعاً لأنه يجد نفسه في الدور .

ثم مثل بعد ذلك بطولة فيلم آخر هو « ثورة بدون سبب » .. وكان دوره أيضاً هو دور شاب مراهق تخنقه الوحدة ويحاول أن يدافع عن نفسه أمام مراهقين آخرين يسخرون منه ويحاولون أن يسيثوا إليه ويجروه خارج عزلته !

وفي سنة ١٩٥٤ التقى بالممثلة الإيطالية الشابة « بيب أنجلي » وأحبها جيمس دين ، أحبها بعنف وحرارة ورأى فيها طريقه الوحيد للخلاص من كل الأسى الذى يعاينه .

قال عنها : إنها الجنية التى تستطيع أن تفعل كل شئ من أجل . . وقال لها أيضاً : إنك أنت الممثلة الوحيدة التى ينطبق عليها التعريف المثالى الكامل للمرأة . . وأحبته « بيب » بكل ذكائها وحرارتها . . وعلقت صورته في إطار ذهبي بحجرتها في هوليوود .

ووقفت أم « بيبير » في وجه هذا الحب ؛ لأن جيمس لم يعجبها ،
وخضعت « بيبير » الصغيرة لأمرها وتزوجت « فيك دامون » ، وحضر
جيمس دين حفلة زواجها . . . وخرج وهو يقول « إن المرأة كائن
يتركك . . إما بالموت أو الخيانة » . . لقد تركته أمه بالموت وتركته
حبيبته بالخيانة .

وفي الوقت الذي كان الألفوف فيه يشاهدون حفلة العرض الأولى
لفيلم « شرقى عدن » وكان شباك التذاكر يسجل أن دخل الفيلم هو
١٥ مليون دولار ، كان بطل الفيلم الحزين الضائع « جيمس دين » قد
ترك نيويورك إلى حيث يصل عند قبر أمه .

إن أمريكا كلها بكل ما فيها ومن فيها لا تستطيع أن تعوضه عن
حنان أمه . وعندما بلغه بعد ذلك نبأ مصرع ممثل شاب في حادث
طائرة قال : ليس الأمر بيدنا . سأكون أنا كذلك ، عيش شابا ومات
شابا وكن كفنا جميلا

وبعدها بثلاثة أيام مات في حادث سيارة كان يقودها بسرعة ١٥٠
كيلو مترا في الساعة . . وكان عمره حينذاك ، أى في سنة ١٩٥٦ ،
لا يزيد على ٢٥ عاما !

كان « جيمس دين » يجد هوايته الكبيرة في قيادة السيارات ، وكان
يقتنى عددا كبيرا منها ، وبغيرها بكثرة ، وكان حبه للسيارات نوعا من
البحث عن السرعة والعنف والتغيير . وليس هذا هو مرض « جيمس
دين » وحده .

. فالأمريكي عموما هو الانسان الوحيد في العصر الحديث المصاب
بما يمكن أن نسميه « عقدة السيارة » .

يقول « إيليا اهرنبرج » عن الأمريكي والسيارة :

إنه يلاطفها ويطلق عليها اسما محببا ويخدمها ويغدق عليها ويغدو
عبدا لها ، وكثيرا ما يتناول الأمريكيان الطعام في السيارات ، وهناك
سينمات معدة لأصحاب السيارات الذين يرون الفيلم دون مغادرة
السيارة .

إن السيارة هي رمز هذا العالم الآلي ؛ ولذلك فإنها هي « الكائن »
الأول الذي يهتم به الأمريكيان ويمنحونه الرعاية الكاملة . . حتى
محطات البنزين . . إنها معدة كما لو كانت عشا للغرام ينتظر فيه
الإنسان حبيبته أو يلتقي به . . فغالبا ما يكون فيها مطاعم ومراقص
ومحلات للبيع ، وفي وسعك أن ترقص بانتظار تصليح سيارتك . بل
إن فيها مكتبات تبيع الروايات البوليسية .

وبعد فترة قصيرة يعدم الأمريكي سيارته في مكان معروف اسمه
مقبرة السيارات . وتلتهم مقبرة السيارات كل يوم مئات السيارات التي
يمكن أن تعمل في أوروبا عامين أو ثلاثة ^(١) .

(١) أمريكا كما شاهدها - إيليا اهرنبرج - ترجمة وصفي البني .

والأمريكان أكثر الناس اهتماما بسباق السيارات . وقيادة السيارات عندهم فن وليست عملا من الأعمال . ولا شك أن موقف الأمريكي في الحضارة المعاصرة شبيه بموقف الهندي في حضارته القديمة . . إن الهندي كان يتخلص من أزمته في هذا الكون بتعريض نفسه لخطر ، كأن يمتنع عن الأكل مدة طويلة . أو يعيش مع الثعابين ، أو يقف شهرا كاملا على قدم واحدة . . إنه كان يتفنن في الوصول إلى الوسائل التي تزيد من شعوره بالخطر . . وهى وسائل تتبع كلها من فهم خاص للتصوف . .

والأمريكي يعرض نفسه للخطر عن طريق السيارة حتى يشعر باللذة ، ويطعم حاد للحياة . . ويستريح الأمريكي عندما يصل إلى حافة الخطر وينجو ، ثم يعود من جديد إلى المخاطرة .

إنها أزمة البحث عن طعم في حياة بلا طعم . . لأنها حياة جاهزة أعدتها الآلة إعدادا كاملا .

وقد اختار جيمس دين السيارة ليتخلص عن طريقها من القلق . . فخلصته من الحياة . . وأصبح رمزا عنيفا للحزن والضيق والاحتجاج على عالم يهتم بالآلة أكثر مما يهتم بالإنسان . .

عالم يصبح الكائن الإنسانى فيه قزما بالقياس إلى ناطحات السحاب والمدن الواسعة المزدهمة .

ولو كان مجتمع « جيمس دين » يهتم بالمعانى الإنسانية لوجد الفنان الشاب فيه ما يؤمن به ويحل عن طريقه مأساته النفسية : مأساة اليتيم بلا أم ولا أب ولا صديق ولا حبيبة .

إن النجاح فقط قد يقنع به المنتج أو أى نوع آخر من التجار . .
ولكن الفنان يبحث أولا عن حل لمشكلته النفسية ، لعذابه وقلقه ؛
ولذلك لم يعبأ « جيمس دين » كثيرا بنجاحه . . لقد ظل كما كان
ضائعا حائرا يرى في حياته ذلك الشعار الذى رددته قبله فنان أمريكي
حزين آخر : « لا شيء حقيقى ونجاح سوى الفشل » .

إن جيمس دين ليس الحزين الوحيد فى أمريكا . . فهناك آخرون
يعانون الحزن العميق نفسه . . إنهم فنانون نابغون مثله ولكن
« جلدتهم سميك » . . إنهم يحتملون ويقاومون . . ويحاولون أن
يقدموا للأمريكي معانى إنسانية جديدة لعله يؤمن بها ويتنبه إليها .
فلا تأخذه دوامة الآلة بعيدا عن كل ما هو إنسانى .

هناك الأديب المعروف « فوكنر » الذى كان يعمل فى صباه ساعى
يريد ، وعانى الحرمان والإهمال وقسوة الحياة الأمريكية ، وهو يكتب
عن الزنوج ويصور ما يعانون من عذاب وما يعانیه هو بسبب وجود هذه
الظاهرة الخالية من الإنسانية . إنه وهو الأبيض معذب تماما مثل
الزنوج . . لأنه يعيش فى العالم الذى يخلق كل هذا الأسى وهذه
المرارة .

وهناك « جون شتاينبك » الذى كان يشتغل عاملا زراعيا فى
الجنوب الأمريكى . . وتعتبر رواياته لوحات « سكوب » للطبيعة
الأمريكية ، فهو يتحدث كثيرا عن المياه والحقول والسماء والليالى
المقمرة والشمس الدافئة . كان يريد أن يقول للأمريكان : إن فى

الدنيا شيئا غير الآلة . . إن الحقول أجمل من ناطحات السحاب ،
وأشعة الشمس الدافئة أعظم من تكييف الهواء والإنسان أرقى من
السيارة .

وكذلك هينمجواى ، إنه يعبد الطبيعة ويقدمها باستمرار فى أدبه
كرد على المجتمع الآلى .

وقد عاش هؤلاء الذين يشعرون بالحزن الكبير . . لم يتتحروا ولم
يهلكوا أنفسهم ، بل وقفوا يصارعون ويحاولون .

وهذا الحزن « ذو الجلد السميك » الذى يحتمل ويقاوم ، هو الأمل
الوحيد فى خلاص أمريكا من المأزق الذى تعانیه والذى يؤدى إلى
تدهور النفس البشرية ، إلى العبث والاهتمام بالتافه والرخيص .

بل إن هذا الحزن هو أمل الانسانية كلها . . إنه الحزن الذى يدعو
الإنسان إلى أن يعيش بقلبه . . وأن يكون عادلا حرا . . وأن يعطى
الحقوق لأصحابها حتى ولو كانوا من الزنوج !

ويوم أن يتحقق ذلك سوف تطمئن روح « جيمس دين » ؛ لأن
العالم سيتحول إلى كلمة حب وديعة . . تلك الكلمة التى لم يجدها
جيمس فى مجتمعه فقارق دنياه وهو شقى حزين .



« ملحوظة : بعد كتابة هذا المقال بعدة سنوات توفى الأديب
الأمريكى فوكنر ، أما جون شتاينبك فقد اتخذ موقفا سياسيا غاية فى

السوء والانحراف ، حيث أيد العدوان الأمريكي على فيتنام تأييدا صريحا ، بل وزار القوات الأمريكية المعتدية على الفيتناميين من باب التأييد والتشجيع . أما هيمنجواي فقد انتحرا أيضا سنة ١٩٦١ . . لقد قاوم وقاوم ولكن المخاوف والاضطرابات التي تملأ المجتمع الأمريكي تغلبت عليه ودفعته إلى اليأس ثم الانتحار . . وهكذا فحتى هؤلاء الأمريكان الذين كنت أتصور أنهم أقوىاء قد انهزموا أمام فساد المجتمع الأمريكي » .

البتسم

« لقد أتيت بشريعة الضحك
... فيا أيها الإنسان الأعلى
.... تعلم كيف تضحك » .

نيتشه .. على لسان
زرادشت

كان المصريون القدماء يقضون نصف عمرهم في الاستعداد للموت عن طريق بناء المعابد والمقابر . . وكانوا يستغلون أرقى فنونهم وعلومهم في جعل معابدهم ومقابرهم جميلة . . وقادرة على البقاء الطويل . . ومقاومة الزمن . .

كانوا يخافون من الموت . . ذلك الكائن البشع . . ولم يجدوا أمامهم إلا أن يحاولوا استئناس الموت . . ونجعله موتا جميلا أنيقا .

وأعظم ما بقى إلى اليوم من آثار المصريين القدماء : المعابد والقبور . . مما يدل على أن روح الحزن كانت عميقة في نفوسهم إلى حد بعيد .

ولكن الغريب أن المصريين احتفظوا حتى في تلك الأيام بروح النكتة والسخرية . . والمرح . . وقد وصفهم مؤرخ قديم بقوله : إنهم شعب لاذع القول . . روحه مرحة .

فما سر هذا التناقض ؟

كيف يجتمع الفرح العميق والحزن العميق في نفس واحدة ؟

من النظرة الأولى تبدو المسألة غريبة . . ولكن الحقيقة هي أن الابتسام والفرح هما أرقى تعبير عن الحزن العميق . . الأصيل .

إن الحزن هو وليد التجربة الكبيرة ، والخبرة بالناس والأشياء . . إنه دليل على المعرفة العميقة بالحياة . . والمعرفة - على رأى حكيم هندي - هي قلق عظيم .

فالإنسان كلما زادت خبرته وتجاربه تبين أن الدنيا تنطوى على
 مأساة . . كل شيء يقلت من اليد ويضيع . . الزهور تذبل والوجوه
 الجميلة تتغضن . . والعواطف الحلوة والأطفال والأصدقاء . . كل
 شيء له محطة يقف عندها ويتلاشى ويذوب .

نضارة الشباب تبتلعها خشونة الشيخوخة وجفافها . . الحب تقتله
 العادة والرغبة في الامتلاك والتظاهر والمشاغل اليومية الصغيرة .
 الصداقة تخنقها أنانية الفرد وحرصه على نفسه ومصالحه . . الشهرة
 والثروة تصبح كلها ذات يوم عديمة النفع عندما تتساقط الأسنان
 ويرتجف البدن ويمشى الإنسان مستثدا على عصاه . . فلا تكون لديه
 القدرة على الاستمتاع بشيء . .

ثم هذه « المصادفة » التي تقف في طريق البشر وتهددنا جميعا . .
 الشاب الوديع الجميل الذي كان يعتزم أن يذهب إلى فتاته بعد أيام
 ويأخذها من يدها فتطيعه في خجل . . ثم يذهب بها إلى الإسكندرية
 أو بور سعيد ليقضيا شهر السعادة . . شهر العسل . .

هذا الشاب الذي نسجته أحلام رقيقة حلوة فامتلاً بالبراءة والفرح
 والنشوة ، كان يسير في شارع سليمان . . فصدمته عربة وتحول إلى
 كتلة من العظام المعجونة بالدم . . ونقلوه إلى المستشفى ، ومات . .

أليست هذه المصادفة شيئا كئيبا ، يترصد الوجود البشرى . ومن
 الممكن أن تقفز في أى لحظة من لحظات السعادة لتفسد كل شيء !

أليس في نهاية الطريق بئر عميقة تبتلع كل شيء وتطويه اسمها :
الموت ؟ !

وفجأة .. يقف الإنسان وحيدا .. ليجد أن كل شيء باطل
الأباطيل .. وقبض الريح .

حتى الأديان التي ظهرت لتساعد الناس على الحياة والتعاون ..
تتضمن هذه المعاني .. فتعطي لحياة الإنسان صورة الشيء الزائل
المنتهى .. وتقرع الأجراس ، وتؤذن على مائدة ، لتنبه إلى أنه مغرور
ومشغول بشيء تافه صغير سوف ينتهي إلى العدم .. إلى أن يصبح
ترابا رخيصا لا قيمة له ..

ولكن ..

هل هذا هو كل شيء عن وضع الإنسان في هذا العالم ؟ مما لا شك
فيه أن هذه الأشياء كلها حقائق .. وأن الفهم العميق للحياة يؤدي
إلى الشعور بضالة الإنسان .. ويفتح أمام القلب البشري منبعا واسعا
للحزن .

ولكن الإنسان الحزين فقط هو مشروع إنسان وليس إنسانا
كاملا .. أما الإنسان الناضج .. الذي يفهم بعمق .. فهو الذي
يبتسم ويفرح ..

وإذا كان الحزن دليلا على المعرفة والفهم فالفرح والابتسام هما دليل
على احتمال الحياة ..

عندما يتسم الحزين ويفرح فهو يقول لنفسه وللحياة : أنا طرف
في المأساة .. ولكنى قررت أن أحتمل .. وأستمر في السير .. وأنا
أدرك أن الشوك يملأ الطريق ..

وهذه الحقيقة نفسها هي السبب الذى جعل المصريين القدماء
يحملون في قلوبهم أقوى الأحزان .. ثم يعبرون عن هذه النفس
الحزينة بالفرح والنكتة ..

فقد اختاروا أن يكافحوا ضد الحزن .. وأن يجعلوا القبر هروما
ضحكاً .. والمعبد مكاناً جميلاً أنيقاً .. ويذهبوا إلى العالم الآخر في
« زفة » من الرقص والأغاني .. بل ويحملوا معهم الطعام والجواهر
التي يترنون بها كأنهم في عرس لا في مقبرة .

وقد كان الشاعر «بيرون» يقول : «ما ضحكك على مشهد بشرى
زائل إلا وكان ضحكى بديلاً أستعين به على البكاء » .

فكلما اشتد به الحزن قاده إحساسه الجميل العميق إلى :
الضحك ، والابتسام .. إنه لم يشأ أن يعبر عن حزنه تعبيرا
سطحياً ... وليس هناك أكثر سطحية من الدموع ، والاستسلام
للكتابة ..

أما التعبير القوي عن الحزن فهو الفرح ، والبشاشة ، ومقاومة
الأسى .. وتذليله وعزف الموسيقى له ..

أما « أوسكار وايلد » فقد ناقش نفسه طويلا في مسألة الحزن والابتسام ، وتوصل أخيرا إلى أن الطريقة الوحيدة للقضاء على متاعب الحياة وتغيير هذه المتاعب . . هي الابتسام . .

ويقول الفنان الجميل العذب « وايلد »^(١):

« إننى لأذكر كيف أن دانتى قد جعل في الدرك الأسفل من النار الذين عاشوا عامدين في جو من الحزن ، وإننى لأذكر تلك الفقرة التى جاءت في الكوميديا الإلهية . . وكيف جعل دانتى أولئك العابسين في الربيع الجميل الضاحك يتمرغون في الأحوال والمستنقعات » .

« . . . ولقد كان في نيتى أن أعيش على أن تفارقنى الابتسامة فراقا لا لقاء بعده . . وعلى أن يلازمى طابع الحزن ملازمة دائمة فلا يكون بيننا انفصال ، وعلى أن أجعل كل بيت أدخله بيت أحزان ، ومأوى هموم ، وعلى أن أجعل أصحابى يمشون معى وهم في حزن يحيل الشعر الأسود إلى شعر أبيض . . وذلك لكى أعلمهم أن الكتابة سر الحياة » .

« ولكنى اليوم غيرى بالأمس ، فقد رأيت غير لائق بى . . بل رأيت من الجحود في حق أصحابى أن ألقاهم عابسا واجما ، فيصبحوا مضطرين إلى أن يلقونى من باب المشاركة وهم أكثر وجوما

(١) وردت هذه الكلمات في فصل من كتاب « من الأعماق » لاوسكار . وقد ترجم هذا الفصل

إلى العربية مبارك إبراهيم .

وحزنا . واجب على أن أتعلم منذ اليوم كيف أبدو سعيدا قرير العين
مسرورا » :

هذا ما توصل إليه « أوسكار وايلد » بعد تجربة واسعة في الحياة . .
جرب الشر والرذيلة والفوضى ، كما جرب الخير والحب والسعادة . .
وذاق حلاوة الحياة الأرستقراطية المترفة . . بكل ما فيها من نعيم ومتعة
وتفاهة وانحطاط . ثم جرته أخلاق الأرستقراطية المنحلة إلى الشذوذ
الصاحب الذي أدى به إلى المحاكمة ثم السجن . . وقضى سنتين في
عذاب السجن وحيدا لا يهتم به أحد . . وقد تركته أحلام الدنيا
الصاخبة لتأملاته وأحزانه .

وتبين أخيرا أن الحياة في أعماقها هي تجربة محزنة . . ولكن لا بد من
احتياها .

كان يظن أن الحزن والكآبة هما سر الحياة . .

وتبين له أن الابتسام واحتمال الحزن هما سر الحياة . . بل ان
المتسمين هم الحزاني الحقيقيون في هذا العالم . . هم الفاهمون
المترفعون الذين يملكون السر المخفى بين الزحام والضجيج ، أما
الكآبة والدموع . . فأصحابها عابرون على السطح .

والمسألة ليست هي أن نفهم وندرك فقط . . بل لا بد أيضا أن
نتحرك ونتصرف . . وقد اكتشف أحد علماء الاجتماع أن معظم
« الأبطال » يتميزون بالبشاشة والروح المرحية . . بالرغم من أن

البطولة في حقيقتها احتمال للمتاعب والمصاعب . . والتعرض
عسيرة من الأحزان .

فكل شيء في نظر « البطل » كما يقول المفكر الأمريكي أمرسون :
« ينبغي أن يكون مرحا كشدو الكنارى . . حتى تشييد المدن أو إزالة
الكنائس والأمم العتيقة التي وقفت في سبيل الدنيا آلاف السنين » .

والبطل ليس هو الإنسان العادى . ولكنه مثل أعلى لنا جميعا .
وعلينا أن نفهم تصرفاته النفسية . . فهذه التصرفات هي التي تعطيه
وتعطينا معه القوة والحيوية والقدرة على العمل . .

إن البطل يختار التفاؤل والمرح حتى وهو غارق في لجة الأحزان .
وابتسامته قوة تساعد على اقتحام المصاعب . . وتنقذ روحه من التمزق
الذي قد يؤدي به إلى التردد وفقدان الهدف وراء ستار من الدموع .

إنه يعيش وهو يبتسم ويتألم وهو يبتسم . . ويموت محترقا أو مشنوقا
أو مضروبا بالرصاص . وهو يبتسم . .

وليس بطل التاريخ وحده هو الذى يعرف قيمة التفاؤل والسرور
في معركة الحياة . . فالبطل المجهول الذى يقوم بالأعمال الصعبة
يعرف أيضا قيمة الغناء والرقص وهو يقوم بعمله .

ونحن نعرف « المراكبية » هؤلاء البحارة الشعبيون الذين يشدون
سفنهم على صفحة النيل من أسوان إلى الإسكندرية ورشيد . . إنهم
يغنون دائما وهم يصارعون النيل والملل والريح والطريق الطويل . . .

لا ينطلق الحزن من داخلهم . . بل يظل حبيسا مختفيا . . فالحزن يغرق السفن ويطيل الطريق ويكتم أنفاس الرياح .



ولا أعرف في أدبائنا أكثر حزنا وانطواء على النفس من توفيق الحكيم فقلبه ملئ بالأسئلة والشكوك . وأعماله المسرحية والروائية يبللها حزن وعذاب نفسى عميق ، فهو دائما يتساءل عن سر الحياة . . وسر المرأة . . وسر القلب البشرى . . وسر الزمن . وهذه الأسئلة الحائرة الحزينة لا تجد عنده أى جواب ، ولكن توفيق الحكيم استطاع أن يسيطر على إحساسه بالحزن والمأساة فاستخدم الفكاهة فى كتاباته حتى يخفف من هذا الشعور الكئيب ، ويعبر عنه بطريقة راقية . . وفى روايته الرائعة « عودة الروح » يظهر عنصر الفكاهة دائما كلما اشتدت حدة المأساة وتأزمت أحداث الرواية . . .

كأن توفيق الحكيم يقول بذلك : إن الحياة تصنع المأساة . . ولكن الفرح والابتسام هما الشيء الذى نخلقه نحن لنرش الماء على النار . . ونبنى أسوارا حول العاصفة التى فى داخلنا حتى لا ندع لها أن تدمرنا . . وتقضى علينا . .

وهى قد تدمرنا حينما تدفعنا إلى الانحلال . أو تدفعنا إلى الإحساس بأن مواقف الحياة متساوية . . وأن العمل والجهد لا قيمة لهما . . ما دامت النهاية واحدة ومعروفة .

وقد روت زوجة الأديب العالمى تشيكوف : أنه أضحكها بعمق قبل موته بساعات وهو مريض وملقى على السرير . . . ويعلم بإحساسه وبمعرفته بالطب ، أنه يوشك أن يموت . . .

ورغم ذلك فقد فكر فى إضحاك زوجته عندما روى لها انه يحلم بكتابة قصة فكاهية . . . تدور حول جماعة من السياح الأمريكان والإنجليز فى أحد المصايف . . . « كيف اجتمعوا جميعا قادمين من رحلاتهم القصيرة أو نزعاتهم ، وهم يأملون فى الفوز بعشاء طيب دسم بعد المجهود الجثامى الذى بذلوه طوال يومهم . . . ولكنهم يكتشفون فجأة أن الطاهية هربت قبل أن تعد طعام العشاء » وكان يريد بهذه القصة أن يقدم « ضربة موجعة إلى بطون هؤلاء الأشخاص المدللين » .

وضحكت الزوجة من أعماقها . . .

وبعد ساعات أسلم الفنان الضاحك الحزين روحه . . . كان آخر ما تركه للعالم التى ظلمته كثيرا ، وعذبتة أقطع العذاب . . . هو ابتسامة حلوة جميلة . . . ورغبة فى أن يضحك الناس معه من قلوبهم . . . رغم المأساة . . . ورغم الحزن والمرض والموت .

إن روح المرح المنبعثة من الحزن العميق لا تتوافر دائما إلا فى أشرف الناس وأكثرهم نبلا وصفاء . . . واجتهادا فى تجميل الحياة . . .

إن الابتسامة هي الاكتشاف الذي توصلت إليه هذه النفوس العميقة . . التي شربت أكثر كؤوس الحزن مرارة . وعرفت أن أعظم ما في الحياة هو احتمال الحياة . .

إن الابتسام هو سر الحياة . . هو الترفع على أذاها والتكبر على مشاكلها . . وهو الجهد المتواضع النظيف لوضع الزهور على المقابر . . واعتصار المحبة من أشواك العواطف الصغيرة . . وهو الاستغناء الجميل والاكتفاء بسعادة الرضا الداخلى وتدريب النفس على الاحتمال .

إن حبيبك الذى هجرك . . وصديقك الذى تخلى عنك . . وزميلك الذى لا يبالى بمشاعرك ، والمرضى الذى قد تهاجمك به الطبيعة . .

كل هؤلاء يخافون ابتسامتك . . ويزدهرون ويتعشون على قطرات من دموعك . فابتسم .

المنتحرون ...

كان المجتمع القديم في مصر قبل سنة ١٩٥٢ ضعيفا قاسيا مليئا بالآلام المريرة التي تجعل الطريق في عيون الناس مسدودا ، وتعكس على حياتهم ونفوسهم أسوأ الآثار . . وهذه ثلاثة نماذج من مجتمع زمان . . مجتمع الأزمة والانتحار .

في صيف ١٩٤٠ شاهد الناس على شاطئ الإسكندرية رجلا رقيق الجسم يسير في يده كمية من الشيكولاتة يأكل منها ، وكلما قابله طفل أعطاه واحدة ، كانت على شفتيه ابتسامة إذا رآها أحد ورأى تصرفاته أحس أنه نصف مجنون ، ولكن إذا تأمل الإنسان هذه الابتسامة التي تملأ الوجه الرقيق الشاحب فإنه سوف يجد وراءها شعورا عميقا بالعذاب والضياع .

انتهت الشيكولاتة التي كان يحملها ، وفوجيء الناس بالرجل الذي كان يوزع الابتسامات والشيكولاتة منذ قليل يلقي بنفسه في

البحر فتبتله الأمواج ، ومحاول الناس إنقاذه ، فلا يستطيعون إلا إخراج جسده الميت من الماء .

وسأل الناس عن هذا الذى انتحرتك الطريقة الغريبة الشاذة ، وعرفوا أنه الكاتب العالم إسماعيل أدهم .

لقد انتحرتك بطريقة غريبة حقا . وقبل أن يموت فإنه عاش حياة أكثر غرابة وشذوذا . . لقد انتحرتك فى سن صغيرة ، لا تتجاوز الخامسة والثلاثين بعد مغامرات غريبة فى الفكر والحياة . .

حاول إسماعيل أدهم فى حياته أن يقنع الناس أنه ليس من مصر ، وإنما هو مستشرق تركى تعلم فى روسيا ونال منها شهادة الدكتوراه فى العلوم . وصدقت الصحف هذه القصة ، وكانت تنشر له أبحاثه على هذا الأساس .

وقد حدثنى عدد من الأصدقاء الذين عاشوا فى الإسكندرية ، وعرفوا إسماعيل أدهم ، أن القصة الحقيقية لهذا الشاب هى أنه ابن لأسرة مصرية فقيرة من الإسكندرية ، تعلم تعليما محدودا ، وكان يمتاز بالذكاء الحاد . . فانصرف إلى الدراسة والقراءة ، واختار الفلسفة والرياضيات ، وتقدم فى دراسته الخاصة به حتى وصل إلى مستوى ملحوظ فى فهم هذه المسائل الصعبة ، وكان يبحث لنفسه عن طريق فى الحياة ، طريق يعمل منه ويكسب ، ولكن الطريق كان مسدودا أمامه .

كان المجتمع في ذلك الحين يواجه أزمة عنيفة ، أزمة يصعب على الفرد الممتاز معها أن يجد لنفسه طريقا في الحياة ، وخاصة إذا كان هذا الفرد غير مسلح بأى شىء . . فهو ليس من أسرة ثرية تساعده وتحميه حتى يصل إلى ما يريد ، وهو لا يحمل شهادة علمية تسمح له بالعمل في داخل المجتمع . . لقد كان معتمدا على جهده الشخصى وحسب . . وهذا الجهد لا يستطيع أن يحل له مشكلة من المشاكل .

كما أن مجتمع مصر في ذلك الوقت لم يكن يميل إلى الدراسة العلمية . . كان الإنجليز يسيطرون على الاتجاهات الرئيسية فيه . . وكان أكثر الأشياء التى يكرهونها هو نمو الوعي العلمى عندنا .

إن نمو العلم يترتب عليه نمو الصناعة . . وكان الإنجليز مصممين على تعطيل الحركة الصناعية في المجتمع . . ألسنا بلدا زراعيا لا يصلح للصناعة ؟ ! هكذا كانوا يقولون دائما .

وكان عندنا عدد بسيط جدا من العلماء والمهندسين والأطباء ، بل كان معظم الذين يقومون بالأعمال العلمية كالهندسة وغيرها من الموظفين الإنجليز .

حتى الذين درسوا وتعلموا في القاهرة وأوروبا كانوا يعانون أزمة عنيفة ، فليس في البلد أى معامل . وليس هناك إقبال من الدولة على العلم . . كان مصطفى مشرفة عالما عربيا عظيما ، وكان صديقا وتلميذا لأينشتين ، درس نظريته ، وكان واحدا من أبرز علماء العالم

الذين فهموها فهما عميقا في وقت مبكر ، ومع ذلك فقد عاش هذا الرجل في مصر قبل الثورة حياة تعيسة أليمة ، حتى أصيب في آخر حياته بأمراض عصبية خطيرة كادت تقوده إلى الجنون ؛ وذلك لأن كل ثقافته العلمية لا قيمة لها في مجتمع يكره العلم والعلماء ولا يعطيهم أى فرصة . . وكان باستطاعة هؤلاء العلماء أن يفعلوا شيئا . . ولكنهم بدلا من ذلك أصيبوا بأمراض مختلفة من بينها الجنون !

كان إسماعيل أدهم يعيش في هذا المجتمع المضطرب المصاب بأزمة « كراهية العلم » تحت ضغط المستعمر . ولم يكن أدهم يملك غير ذكائه سلاحا لمواجهة به المجتمع . . وكان الحل في نظره هو :

أن يكذب على المجتمع ويتظاهر أمام الناس ، فأطلق ذقنه ، وقال إنه مستشرق نال الدكتوراه من روسيا ، وهو في حقيقة الأمر . إسكندرانى ، فقير لا يعرف روسيا وليس له بها أى علاقة من أى نوع . ومن أين للناس أن يعرفوا الحقيقة ؟ . . إن مصر لم تكن على علاقة دبلوماسية مع روسيا حتى عام ١٩٤٥ ، أى بعد انتحار أدهم بخمس سنوات .

كتب أدهم كثيرا في الرياضيات والطبيعة ، وكان يعيش حياة تعيسة قاسية على قروش تأتي له من هنا أو هناك .

ولم يكن الكذب كافيا فلجأ إلى التحدى وألف كتابا بعنوان « لماذا أنا ملحد » ، ويعتبر هذا الكتاب من أخطر الكتب وأجرئها في الثقافة العربية الحديثة . .

وكان إسماعيل أدهم يحاول أن يفسر إحصاه على أساس علوم الطبيعة والرياضيات ، وقد نشره له أحد الناشرين بالإسكندرية .

قبل هذا الكتاب كان أدهم يلقي إهمال الناس . . . فأصبح مهملاً وملعوناً في وقت واحد . .

لقد ثار عليه المجتمع ووقف ضده .

ولكنه استمر يكتب ويعاند ، ونشر مقالات كثيرة في مجلة « الرسالة » التي كانت تصدر في القاهرة ، وفي مجلة « الحديث » التي كانت تصدر في حلب .

ثم ألف كتاباً هاماً عن توفيق الحكيم ولم يتم هذا الكتاب ، فقد انتحى قبل أن ينهى فصوله الأخيرة . . وقام الدكتور إبراهيم ناجي بإتمام الكتاب ، وطبعته مجلة « الحديث » في حلب .

والواقع أن هذا الكتاب يعتبر من أفضل الدراسات النقدية التي ظهرت عن توفيق الحكيم في الأدب العربي حتى اليوم ، بالرغم من أنها دراسة غير معروفة على نطاق واسع .

لقد ظل البؤس المادي والمعنوي يسيطر على حياته حتى انتهى به الأمر إلى الانتحار .

لقد أغرقته الديون وطاردته لقمة العيش ، وعجز عن الحصول على مأوى يحميه . . فاختار هذه النهاية .

أما دراساته العلمية فلم تجمع إلى اليوم في كتاب ، رغم أنها دراسات ممتازة عميقة . . وكثير من الناس لا يعرفون حقيقة هذا الرجل حتى الآن ، ويظنون بالفعل أنه كان مستشرقاً ، بل كان أصحاب الصحف والمجلات ينشرون مقالاته على هذا الأساس .

والحقيقة التي يؤكد بها الذين عرفوه عن قرب في الإسكندرية ويؤكد بها أيضاً عدم معرفته الدقيقة باللغات الأوروبية كما كان يظهر من الاصطلاحات الكثيرة التي كان يوردها في مقالاته .

هذه الحقيقة تؤكد أنه أحد أبناء الإسكندرية ، ومن الجائز أن يكون من أصل تركي بعيد جداً ، وكل القصص التي كتبت عن حياته تبدو أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقيقة ؛ مما يجعل منها قصصاً مشكوكاً فيها إلى أبعد حد ، فلا يوجد أى دليل يثبتها غير روايته هو .



وفي سنة ١٩٤٠ ، وبعد هذه الحادثة بقليل أطلق شاب وسيم لم يتجاوز الثلاثين من عمره الرصاص على نفسه في حديقة بيته الجميل الأنيق بالإسكندرية أيضاً . وكان هذا الشاب كاتباً شاعراً بدأ نجمه يلمع شيئاً فشيئاً . . ولم تكن أمامه عقبات . . بل كان الطريق مفتوحاً أمامه ليتفوق وليزداد نجمه بريقاً . . فما الذي دفعه إلى هذه النهاية الأليمة ؟

كان فخرى أبو السعود - وهذا هو اسمه - طالباً لامعاً يحرص على عزله ، قليل الكلام ، كثير القراءة . . كان منذ صباه متميزاً بصورة

واضحة ، وفي أحد الأعوام ، وهو طالب في معهد المعلمين ، قرر زملاؤه أن يقوموا بالإضراب عن الامتحانات احتجاجا على الأساتذة الإنجليز . . وفوجيء الطلبة بفخرى أبو السعود يدخل قاعة الامتحانات ليكون الطالب الوحيد الذى يؤدى امتحانه . . وكانت النتيجة أن أفسد على زملائه كل شىء ، ولما سأله أحد أصدقائه عن سر خروجه على إجماع الطلبة وتعريض نفسه لاتهامات كثيرة في وطنيته وأخلاقه . . قال :

« إننى وطنى ووسيلتى في محاربة الإنجليز هي أن أتعلم . . إن العلم هو أقوى سلاح هزيمتهم . . ولا يهمنى ذلك السخط السطحي الذى تمتلئ به نفوس الطلاب ضدى ! » .

ونجح بعد ذلك وتفوق ، ثم نجح في مسابقة لبعثة إلى إنجلترا وكان الأول ، وسافر إلى لندن ليدرس الأدب الإنجليزى سنة ١٩٣٢ وعاد بعد ذلك بستين ومعه زوجة إنجليزية . . فتاة جميلة رقيقة ، أحبها هناك وكانت زميلة له في الدراسة . . وعندما عاد عمل مدرسا ، وبدأت الصحف الأدبية تنشر له شعره ودراساته الأدبية العميقة التى تكشف عن ثقافة قوية ، ثم نشر بعد ذلك ترجمة لرواية تعتبر من روائع الأدب العالمى هي : رواية « تس » لتوماس هاردى .

وكانت حياته الخاصة في الإسكندرية مثالا للهدوء والسعادة ، كان عصفورا أنيقا وجد العش الهادى الجميل ، فاستراح ، وأخذ يفكر في الإنتاج والإبداع في ظل حبه ومدينته الوداعة ، وبيته الحلو . . ثم على صوت طفل صغير جميل . . فقد أصبح أبا .

وأصبح طفله بالنسبة له شيئا أساسيا يعطى لحياته معنى جديدا .
وقامت الحرب سنة ١٩٣٩ ، وكانت زوجته قد سافرت قبل ذلك
بقليل لتزور أهلها ثم تعود إلى زوجها الذى أحبته ، وإلى المدينة التى
سعدت بها واستقرت فيها . . وأخذت معها ولدها الذى أصبح صييا
صغيرا . . . وعاش فخرى أبو السعود وحيدا ينتظر عودة الزوجة . .
كان الأمل والحب يضيئان حياته . . ولكن الحرب قامت . . فلم
تستطع زوجته العودة . . ثم وصل إليه خبر قاس مرير . فقد جمعت
الحكومة الإنجليزية عددا كبيرا من الأطفال الإنجليز فى سفينة وأرادت
أن تبعث بهم إلى كندا بعيدا عن غارات الألمان . ولكن السفينة تغرق
ويموت كل من بها من الأطفال ، وكان من بينهم ابن فخرى أبو
السعود . . ولم يحتمل الأديب الشاعر الحساس تلك الصدمة الأليمة
المريرة . .

وكانت سنة ١٩٤٠ فى الواقع سنة اليأس الكبير ، فقد كانت
انتصارات هتلر متتالية ، وكان الغرب منهارا إلى أبعد الحدود ، وكانت
النظرة إلى الواقع فى ذلك الحين تدعو إلى اليأس . . لم يكن هناك أمل
فى هزيمة هتلر وانتصار الدول الغربية . . كان جوا قائما يفرض اليأس
على الناس . .

وقد تصور فخرى أبو السعود أنه فقد الصلة بينه وبين زوجته إلى
الأبد . . كما فقد الصلة بينه وبين ابنه الذى مات غريقا فى كارثة
السفينة فقرر أن ينهى حياته بيده .



وقبل هذه الحادثة بعشر سنوات تقريبا أغلق شاب على نفسه حجرة
كان يسكن بها وأشعل في نفسه النار . . ورأى الجيران الدخان يتصاعد
من الحجرة . . فاندفعوا إليها ليجدوا جثة تحترق ما يزال صاحبها يئن
وهو يرسل أنفاسه الأخيرة . . فأطفأوا النار ولكن الجسد كان قد فارق
الحياة .

كان هو الآخر شاعرا رقيقا اسمه أحمد العاصي ، وكان ما يزال
صغير السن لم يصل إلى الثلاثين من عمره بعد ، وكان أحمد شوقي أمير
الشعراء في ذلك الحين يعرفه ويحبه .

فما محتته . . ما مأساته التي دفعته إلى هذه النهاية ؟ إنها
محنة الإنسان الحساس الذي لا يعرف طريقا واضحا لمواجهة الأزمة في
مجتمع متخلف مظلم . . وخاصة في ذلك الحين الذي كان الشخص
الممتاز فيه شذوذا غير مقبول على الإطلاق .

وقد اختلف الشاعر مع والده التاجر الذي كان يعيش في أحد
الأقاليم . كان أبوه يريد منه أن يكون تاجرا مثله ، وأن يترك طريق
الفن ، هذا الطريق الخيالي الذي لا قيمة له في نظر تاجر لا يعرف إلا
معنى الكسب والربح . وحاول أن يضغط على ابنه ويكلفه ما لا تطيق
نفسه الحساسة الرقيقة . . وبالطبع لم يستجب الابن لهذا الضغط ،
وفشلت علاقته بوالده الذي قاطعه واعتبره ابنا ملعونا . . وكان لهذه
التجربة أثرها الأسود الكئيب في نفس الشاعر الشاب ، فقد فاجأته
هذه التجربة في وقت كان يعاني فيه تجربة حب فاشل . . وكيف

يمكن لتجربة حب أن تنجح في مجتمع ١٩٣٠ وما قبلها ؟ لقد كانت المرأة في ذلك الحين أكثر من سجيئة ؛ ولذلك فقد كان أدب تلك الفترة أدب الحرمان والحزن والدموع . . وسافر الشاعر الحساس إلى لبنان . . وحاول أن ينسى محنته مع أبيه . . ومحنته مع فتاته . . وعاد بعد فترة وقد ألف رواية طويلة ، ثم نشر بعد ذلك ديوانه الوحيد وأسماه « ديوان العاصي » ، وكتب في مقدمته يقول :

«أملت بى محنة من محن الدهر ألزمتنى العزلة حيا، فشعرت بحاجة حادة لأن أشغل نفسى بقول الشعر فيما شغلنى من شؤون الحياة من قبل ، فلما ودعتنى المحنة جمعت هذا الشعر وضممت إليه شيئا من حديث شعري وقدمته إلى الناس ، فإن قبلوه كان ذلك خير عزاء وخير جزاء » .

وقد قدم أمير الشعراء أحمد شوقي هذا الديوان بقصيدة هذا نصها :

هذا شباب الشعر يلصح ماؤه
من جدول العاصي ومن ديوانه
من كل قافية كأن رفيفها
من ظل آذار ومن ريحانه
وكأن رنتها ونغمة شعرها
من طيره الصداح في أغصانه
هجر التكلف بيته فكأنها

من قلبه بنيت ومن وجدانه
ويكاد يلمسك السرور يراعه
وترى يد الأحزان حول بنانه
يشكو الزمان لنا فيا لك يافعا
نأت بميعته هموم زمانه
ولتعلمن إذا السنون تتابعت
أن التشكى كان قبل أوانه

على أن محنة هذا الشاعر الشاب كانت متعددة الجوانب ، وكان من جوانبها أنه كان تلميذا لطفه حسين في كلية الآداب ، وكان يحاول أن يناقشه ، ولكن خيل إليه أنه لايلقى من أستاذه الترحيب الكافي ، ففقد ثقته في ذلك الأستاذ الذي كان حينذاك علما لامعا من أعلام العصر ، وتصور الشاعر الحساس أن طه حسين يضطهده ، وامتلات نفسه بالأسى والحيرة ، ولم يجد طريقا يخرج به من تلك الأزمة العاصفة في نفسه ، وقد تعددت جوانب هذه الأزمة من جانب عاطفى إلى جانب عائلى إلى جانب فكرى . . . وأخيرا اختار أحمد العاصى الانتحار بتلك الطريقة المؤسفة المريعة . . . لقد أحرق العاصى نفسه .



هؤلاء المتحرون الثلاثة لايمثلون أنفسهم وحسب، بل هم يمثلون جانبنا من الجيل الذى ظهر فى مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى

إلى نهاية الحرب الثانية ، وكما كان هناك من أبناء هذا الجيل من ناضلوا وصمدوا ووقفوا في وجه الظروف الصعبة ، فقد كان هناك أيضا تيار كبير يمثل بين أبناء هذا الجيل نوعا حادا من الحزن والقلق وعدم القدرة على معرفة طريق للخلاص أو النجاة . كان هناك من يظنون أن الحياة قد أصبحت تمضى في طريق مسدود يملؤه الحزن والفشل والعذاب ، وقد تكون أسوأهم غير معروفة للكثيرين ، ولكن حياتهم في الواقع كانت غنية وخصبة على قصرها . . وكانت دالة على نوع المجتمع الذى يعيشون فيه وبعدهم جاء جيل آخر كان يعاني نفس الحزن والقلق ، ولكنه استطاع أن يجد طريقا للخلاص . . لقد اختاروا هم طريق الانتحار أما الجيل الجديد الذى ظهر بعد الحرب العالمية الثانية . . فقد اختار طريقا آخر هو : الثورة والتمرد .

الزوجة المظلومة

احذرى أن تتزوجى عبقرى !

بهذه الكلمات نصحت كاتبة أمريكية كل بنات جنسها .
فالعبرى - من وجهة نظر هذه الكاتبة - رجل يعيش بالقلوب . .
وطريقته فى التفكير تختلف تماما عن طريقة الآخرين . إنه لن يحتمل
ثرثرة المرأة أو ضجيج الأطفال ، وهو غالبا ما يبنى حياته على أساس
الوحدة والعزلة ، إنه يريد أن يعيش مع أفكاره ونفسه أكثر من الحياة
فى المجتمع أو مع الناس .

بلزاك ، أكبر قصاص فرنسى من القرن الماضى كان يعيش لفترة
طويلة فى بيت ليس فيه أثاث سوى بلزاك نفسه . . ومع ذلك فقد كان
يتصور أنه يعيش فى أكبر قصور فرنسا . لقد أمسك بقلمه وكتب على
جدران البيت : هنا لوحة ليكلانجو . وهنا لوحة لدافنشى . . وبهذه

الطريقة الوهمية ملأ البيت بالأثاث الفاخر واللوحات الرائعة . . وإذا
نام على الأرض بعد ذلك فقد كان يتصور أنه نائم على سرير من ريش
النعام !!

برنارد شو ، عندما تزوج بعد الأربعين اشترط على زوجته ألا يكون
بينهما علاقة جنسية ، وعاشت معه الزوجة ثلاثين سنة في « زواج
روحي » .

هافلوك أليس ، العالم النفسى المشهور ، اتفق مع زوجته على أن
يعيش كل منهما فى بيت منفصل ، وألا يلتقيا إلا شهرين خلال
السنة . . واستطاع الزوج العبقري أن يحتمل هذه الحياة . أما الزوجة
فلم تستطع فأنهات أعصابها وانتهى بها الأمر إلى المستشفى ثم
ماتت .

ولكن أكبر مأساة من هذا النوع هى مأساة زوجة الأديب الروسى
الكبير تولستوى .

لقد ماتت هذه الزوجة بعد أن هجرها كل الناس حتى أولادها . .
وماتت مجنونة !

ولم ينته السخط عليها بعد موتها ، فقد ظهرت عشرات الكتب
والمقالات تهاجم الزوجة ، تقول إنها كانت سبب إلتعاسة والعذاب فى
حياة زوجها العظيم .

حتى صغرى بناتها أصدرت كتابا تقول فيه : إن أمى هى سبب
المأساة فى حياة أبى . .

ودائما يتجدد الاهتمام لزوجة تولستوى عندما يحتفل العالم بذكرى ميلاد الأديب الروسى الكبير فى ٢٨ أغسطس «آب» . . ويقدم العالم الزهور لذكرى تولستوى ، أما اللعنة فتصيب صوفيا أندرييفا زوجته .

عاشت صوفيا مع زوجها خمسين سنة وأنجبت له ثلاثة عشر ولدا وبنتا . . وكان تولستوى يحبها حبا كبيرا . . فما سبب المأساة إذن ؟

إن أكبر حادثة فى حياة تولستوى هى هربه الأخير . . لقد ضبط زوجته وهى تفتش مكتبه وأوراقه ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يضبطها فيها وهى تفعل ذلك . لقد كررت هذا التصرف مرارا بحثا عن أسرار زوجها ومذكراته ووصاياہ .

وعندما ضبطها تولستوى وهى تفعل ذلك لم يقل لها كلمة واحدة ، وذات ليلة - وبعد أن نام الجميع - خرج من قصره وقد قرر الهروب إلى الأبد من زوجته ومن حياته القديمة .

ولم يحمل تولستوى معه سوى قلم وبضعة أوراق ، ولبس ملابس الفلاحين الخشنه المتواضعة ، ووضع على رأسه طاقية غطت معظم جبهته ، وحاول أن يخفى شخصيته تماما تحت هذه الملابس ، بل وغير اسمه فأصبح «ت . نيقولايف» . . وكان يريد بذلك أن يبدأ فى الثانية والثمانين «حياة جديدة» ويفتش عن «موت نقى صالح» .

ركب القطار وحاول أن يذهب بعيدا إلى آخر حدود بلاده ، هناك حيث لا تطارده زوجته ، وحيث لا يطارده المجد والشهرة ؛ كى يموت فى سلام ، بعيدا عن تلك الأشياء الزائفة فى الحياة .

ولكن الناس اكتشفوا أمره في اللحظات الأخيرة ، غير أنه كان قد اقترب من الحدود الأخيرة للحياة ، ولم يعد بينه وبين الموت إلا مشوار قصير لا يزيد على أيام .

نزل الفنان العظيم في إحدى القرى الصغيرة حيث رقد على سرير حديدي قديم في مكتب ناظر المحطة . . ورفض أن يرى أحدا ، ورفض على الخصوص أن يلتقى بزوجه التي كانت تقف أمام مكتب ناظر المحطة حيث قضى تولستوى بضع ليال لم يستقبل غير الطبيب .

إن أول خلاف نشأ بين « صوفيا » وزوجها كان حول الأرض . لقد كان تولستوى إقطاعيا كبيرا ورث عن أهله أراضى واسعة ، ولكنه كان فنانا ومفكرا ، وكان قبل كل شيء إنسانا عميق الإنسانية .

وبعد أن قضى شبابا سعيدا ، وفي لحظة باهرة من حياته ، وقف يسأل : لماذا أملك الأرض ، ويجوع الفلاحون ؟

لماذا أكل أنا في أطباق من الذهب ولا يجدون ما يأكلون ؟

لماذا يعملون هم في الأرض فتتشقق أيديهم ويشرب التراب من عرقهم وأقصى حياتي في كسل شنيع ؟ !

وفي الآخر تصبح الثمار لى . . كل الحصاد لم أزرع منه بذرة واحدة . . ويحىء كعبد أجير . . لأستفيد منه وأستمتع وحدى ؟

هل هو الفن الذى أكتبه سبب ذلك ؟

إن الفن شيء تافه ، إنه عبث وترف يفكر فيه الكسالى الذين لا يعرفون معنى الألم ..

وثار الإنسان العظيم في قلب تولستوى على الإقطاعى ، وقرر أن يوزع الأرض على الفلاحين .

ووقفت صوفيا في وجه زوجها ..

فالأرض التي وزعها على الفلاحين ، أعادتها بالقوة ..
والفلاحون الذين كانوا قد أصبحوا مالكيين حولتهم هي من جديد إلى
أجراء .

واستسلم تولستوى لزوجته بعد صراع .

ولكنه كان استسلاما ظاهريا ، فقد كان لا يكف عن تعذيب نفسه
وإذلالها .. كان يذهب إلى العمل مع الفلاحين ، وكان يقضى أياما
في صناعة حذائه الخاص بيديه ، وكان يهاجم القيصر أمام الجميع وهو
يتمنى من وراء ذلك أن يسجنه القيصر أو ينفيه فيتحول إلى شهيد ..
إلى رمز لأفكاره التي ينادى بها ولا يستطيع تحقيقها في حياته الخاصة .



لقد تحول تولستوى إلى ما يشبه النبي عندما تحول من كتابة
القصص والروايات إلى المناذاة بدعوة سياسية واجتماعية شاملة : دعوة
إلى الحب ، ودعوة إلى إلغاء نظام الامتلاك .. كان يقول : إن كل

شئء يجب أن يتبدل . . وكان يقول ذلك فى عالم تسوده القيصرية والإقطاع ويتشتر فيه الظلم بصورة وحشية .

وعندما تحول تولستوى إلى شبه نبي كثر أتباعه وأصدقاؤه ، وأصبح قصره كعبة كل أيامها مواسم حج دائمة . . مئات من الناس يجيئون ويذهبون . . شاب يستوضحه فى رأى ، كاتب يعرض عليه إنتاجه . رجل دين يحاول أن يقنعه بالعدول عن الطريق الذى يسير فيه . صحفى يعد حديثا معه . يائس من الحياة يسأله : هل هناك أمل ؟

وكان على زوجة تولستوى أن تحتل هذا كله .

كان عليها أن تحتل عشرات « اللاجئين » إلى بيت تولستوى كأنهم من أهله .

وكان كثيرون منهم يخرجون بعد ذلك ليهاجموه ويقولوا إنهم عرفوا سر هذا النبى الدجال .

ولقد سجل أحد الأصدقاء المخلصين لتولستوى مجموعة من الصور الحية عندما كتب عن هؤلاء الذين كانوا يسيئون إلى تولستوى أبشع الإساءات . لقد كان كثير من هؤلاء الأتباع أذعياء زائفين . إنهم طائفة تحيط عادة بالرجل العظيم وتتغذى على حياته ، ثم تحاول أن تبنى وجودها بالهجوم عليه والتنكر له .

وكانت زوجة تولستوى تدرك ذلك ، وتحس بغريزتها مدى ما في هؤلاء الناس من انحطاط ؛ ولذلك فقد كانت تكرههم وتنفر منهم وتحاول أن تبعدهم عن زوجها . . ولكن تولستوى كان يفكر بطريقة أخرى ، كان كالأنبياء لا يريد من الناس أى جزء ، كل ما كان يفكر فيه هو أن يقدم تعاليمه ويلقيها على الناس ؛ ولذلك فقد فتح صدره وأعطى بيته ووقته وكل ما يملكه هؤلاء الناس ، بدون تمييز بين من يستحق ومن لا يستحق .

وهذه نقطة خلاف أخرى أساسية بين تولستوى وزوجته . لقد كانت تكره معظم أصدقائه وأتباعه . . ويقول جوركى - وقد كان من المؤمنين بتولستوى والمعجبين به - : ان تولستوى قد نجا بفضل زوجته من كثير من رفسات الحمير ، ولم يصل إليه بفضلها كثير من الطين .

وهكذا وقفت صوفيا في وجه تولستوى ، رفضت أن يتحول هذا الرجل المسئول عن أسرة كبيرة ضخمة إلى رجل معدم لا يجد ما يأكله . . ورفضت أن تسمح له بأن يقدم حياته ليعيش عليها هذا العدد الضخم من المعجبين الزائفين الذين سرعان ما يتحولون إلى ذباب ساخط ينهش حياته وشرفه وسمعته .

وقد دفع هذا كله زوجة تولستوى إلى أن تتدخل في حياته تدخلا عنيفا . . ومن هنا كانت المأساة .

كانت مجرد امرأة ، أما هو فكان أكثر من إنسان .

كانت تعيش في الحاضر . . أما هو فكان يعيش في المستقبل .
كانت تعيش في المجتمع أما هو فكان يعيش في الإنسانية .

كانت تعيش من أجل حياتها وحياة أسرتها ، أما هو فكان يعيش
من أجل مبادئ عالية . . من أجل الإنسان في كل مكان .

ومن أجل ذلك كانت تحاول دائما أن تعرف أسرارها وتدخل إلى عالمه
الخاص بقسوة لتعرف كل شيء عنه ؛ حتى لا يفلت من الحدود التي
رسمتها له .

وانهزمت هذه الزوجة في آخر الأمر ، لقد قرر أن يترك لها كل شيء
ويهرب . . إنه يريد أن يعيش ما بقي له من أيام وحيدا نقيًا . . لا
تلوثه أرض يمتلكها . . أو شعور بأنه سعيد على حساب فلاحين
عبيد . . أو شهرة تفسد إحساسه البسيط بالحياة .

إنه يريد الحقيقة المطلقة . . الحب الخالص . . الكلمة النقية
البريئة .

ومات تولستوى في هربه الأخير ميتة متواضعة بسيطة . . لعلها
كانت أجمل ما تمناه .

هل كانت زوجته سر مأساته ؟

أجل كانت جزءا من هذه المأساة . . لأنها لم تفهمه تماما . . ولكن
تولستوى كان لابد سيقع في المأساة سواء كانت معه زوجته أم لا . .

فقد كان قلقه فظيعا . . بشكل لا يمكن أن يعطيه أى لون من ألوان السعادة ، فهو لغم من الألغام النفسية التى تدمر كل هدوء واستقرار فى حياته .

كان يصر على كتابة المسودة سبع مرات ، وعلى أن يكتب الكتاب كله من الأول كلما قرأه من جديد .

وكان يكره عالمه الخاص والمجتمع الذى يعيش فيه ويريد تعديلا كاملا للوجود البشرى .

وهذا هو سر مأساته .

ومن الضروري أن يكون العالم أكثر إنصافا وهو يتذكر زوجة تولستوى ؛ فيكفى هذه الانسانية أنها استطاعت أن تتحمل لمدة خمسين سنة قلقا لا ذنب لها فيه . . ولم تكن مستعدة له بتربيتها ولا بطبيعة شخصيتها . كانت فتاة جميلة مترفة تأخذ الحياة ببسر وسهولة ولا تعرف أبدا معنى الألم . . ولكنها لم تكن تعرف أيضا أنها عندما تزوجت الإقطاعى الغنى تولستوى قد ربطت مصيرها بأكبر عاصفة من القلق والتمرد ظهرت خلال مائتى سنة تقريبا ، وقد استقرت هذه العاصفة فى قلب رجل واحد هو زوجها فدمرت إحساسه وإحساس من حوله بالسعادة .

لقد هجرها الناس بعد موت زوجها واعتبروها مسئولة عن مأساته ، وعاشت أيامها الأخيرة وحيدة . . حزينة . . ثم أصابها الجنون الذى قادها إلى القبر .

إنها زوجة مظلومة ، وهى لا تستحق من العالم أن يلعبها كلما تذكر زوجها العظيم ، بل أن يقدم لها زهرتين من الفهم والإنصاف .

بالخضن

« إذا أردتني فأبحث عني تحت نعل حذائك » .

والث ويتيان

بعض الناس يعاملون الحياة ببرود وعدم مبالاة ، إنهم يعيشونها كما
يؤدون واجبا ثقيلا على نفوسهم . . واجبا فرضته الظروف عليهم .
لا يحبونه ، ولكنهم لا يستطيعون الهروب منه .

وبعض الناس يعاملون الحياة كما يعامل موظف صغير رئيسا قاسيا
لا يرحم ، لعله بهذه المجاملة يخفف من قسوته وعنفه .

وبعض الناس يرفضون الحياة ويعاملونها باستهتار واستهانة ويبدون
دائما أن يتخلصوا منها ، فهم لا يرون لها معنى ولا قيمة .

ولكن هناك نوعا آخر من الناس يحب الحياة ويقبل عليها . .
ويأخذها بالخضن . . إنها بالنسبة له ماثوقة حبيبة . . كل ما فيها

جميل وعذب ، ليس فيها قوة وضعف . أو جمال وقبح . . بل كل شيء فيها قوى وجميل لأنه « حى » . . فالحياة مجرد الحياة ، رائعة . . إنه يأكل بنهم ، ويحب بنهم ، ويغنى دائما كأنه اسطوانة خلقتها 'لمليعة وسجلت عليها أصوات العصافير والبلابل . . .

وهو عندما يحزن إنما يحزن بنهم أيضا . . إنه يغرق في الحزن حتى قمة رأسه .

وبالنسبة لهذا النوع الذى يأخذ الحياة بالحضن لا يوجد مخطئون ولا عصاة ، لا يوجد إنسان غريب . . كل الناس كائنات جميلة ، وكل الحالات البشرية حالات مقبولة ، وكل إنسان قريب إلى القلب ؛ ذلك لأن رائحة الحياة تثير هذا النوع من الناس ، تدفع الدم إلى العروق وتملأ القلب بالعاطفة . . ويردد اللسان صلوات جميلة لتلك المعبودة المعشوقة : الحياة .

من هذا النوع النادر من الناس فنان عاش في أمريكا في القرن الماضى ، وملأ الدنيا بضحكاته التى كانت تصدر من قلبه ، وخرج على كل التقاليد الزائفة وهاجمها بعنف دون أن يكف عن الضحك والمرح ، وكانت البيئات المحافظة التى أزعجها هذا الفنان العجيب تقول عنه :

إن هذا الرجل يجب أن يطرد من كل مجتمع مهذب ، إنه أخط من البهائم .

وكانوا يقولون عنه أيضا : « إن معرفته بالفن كمعرفة الخنزير بالعلوم الرياضية » .

ولكنه لم يعبأ بشيء ، بل استمر يحتضن الحياة في أى مظهر من مظاهرها ، ويعيش أيامه بشجاعة وبدون خوف يصاحب « أبأس الناس في نيويورك » ويعيش في وسطهم .

وكان له كثير من الأصدقاء يعملون سائقى عربات كارو أو حمالين على أرصفة الميناء ، أما الزنوج فكانت علاقتهم به قوية ، وكانوا يحبونه ويتعلقون به ، فهو أحد البيض القلائل الذين يحترمونهم ويعاملونهم معاملة بشرية .

ذلك هو « والت ويتان » الذى كان يقول عن نفسه :

« إن أردتني فابحث عني تحت نعل حذاءك » .

فقد كان يمنح عواطفه لكل شيء في الحياة ، حتى للتراب والعشب ، ولذلك فأنت تستطيع أن تجده في التراب الذى تدوس عليه . . أليس هذا التراب جزءا من الوجود الجميل . . من الحياة الجميلة .

وليس هناك عند هذا الشاعر كائن غريب . . كل الناس قريبون من نفسه . . ففى قصيدة له تحت عنوان : « إليك » يقول :

« أيها الغريب . . يا عابر السبيل ، إذا مررت بى . . وكنت تريد أن تتحدث معى . . فلماذا لا تفعل ؟

إنى أيضا أريد أن أتحدث معك » .

وهكذا - عند هذا الشاعر الكبير - تذوب الثلوج بين الإنسان والإنسان ، ولا توجد حواجز ولا سدود ، فالقلب مفتوح للجميع يرحب بالجميع .

وفي قصيدة أخرى يهاجم الشاعر نفسه ونزعة الغرور والأناثية التى يمكن أن تعيش فى هذه النفس ، أو فى أى نفس أخرى . .

والقصيدة عنوانها : « من أكون فى آخر الأمر » .

« من أكون فى آخر الأمر سوى طفل . . أجد السعادة عندما أسمع صوت اسمى يتردد .

وإذا تكرر اسمى مرارا . . ومرارا . . فإننى أقف لأسمع سعيدا ، لا أحس بالسأم لحظة ولا أتعب .

وأنت أيضا تحس بنفس السعادة عندما تسمع اسمك . هل تظن أنه ليس هناك فى العالم سوى هذه المقاطع الصغيره التى يتكون منها اسمك ؟ ! » .

إن الشاعر هنا يريد أن يزيل هذا الحاجز الذى يضعه كثير من الناس أمامهم فلا يستطيعون رؤية العالم أو الاندماج فيه بقوة .

ذلك الحاجز الذى يتكون من كلمة هى « أنا » . . وهى كلمة ساحرة يسعد الإنسان عند سماعها ، وهناك ناس لا يودون أن يسمعوا

سوى هذه الكلمة ، ولا أن يروا أى نوع من جمال الحياة إلا إذا كان مرتبطا بها . . وبذلك يعيشون فى دائرة ضيقة ، مغلقة ، ليس فيها نافذة على رحابة العالم ، ومساحتها الواسعة الشاسعة المليئة بألوان جديدة من الجمال والعذوية .

ويتسع قلب هذا الفنان الإنسان فيشمل كثيرا من ألوان الحياة ، إنه يفتح ذراعيه بلا تردد ، ويندفع بوجهه الوسيم ومظهره البوهيمى إلى كل الذين يقيدهم الحزن ويعطى لحياتهم طعما مريرا ويجعل ابتسامتهم ذابلة ونظراتهم منكسرة .

ويحمل الإنسان الفنان معه كلماته الجميلة وعاطفته الحارة المندفعة ليعيد إلى هؤلاء البائسين المسحوقين إحساسهم بالحياة وحساسهم لها .

فى قصيدة له بعنوان « إلى موسم مجهولة » يقول :
« كوني هادئة . . كوني على غاية من الهدوء والراحة معى . .
أنا والت وبتان . .
من الأحرار . .

وقوى مندفع مثل الطبيعة . .
إن نور الشمس يطاردك . .
ولكنى لن أفعل ذلك .
ومياه الأنهار تحجب عنك ما فيها من لمعان وبريق
وأوراق الأغصان تخفى عنك حفيفها الجميل . .
ولكن كلماتى لن تخفى عنك البريق ولا الحفيف .

إني أتقدم إليك بتحية حارة . ونظرة احترام لن تستطيعى نسيانها
بمرور الأيام » .

وهكذا تمتد صلة الشاعر العاطفية إلى العالم كله ، حتى إلى هؤلاء
الذين طردتهم الظروف خارج دائرة المجتمع وجعلت منهم كائنات
لا يقابلها إلا الرفض والاستنكار . . حتى من شعاع الشمس ، ومياه
النهر وأوراق الأغصان .

يقول عن نفسه : أنا آتى مع الموسيقى قويا ، مع مزاميرى
وطبول ، أنا لا أعزف أناشيدى للظافرين فقط ، بل أعزف أيضا
للقتلى والمقهورين ، إننا نخسر المعارك بنفس الروح التى نكسبها بها .

فألف مرحى للذين فشلوا . .
للذين غرقت مراكبهم فى البحر . .
والذين غرقوا هم أنفسهم فى البحر . .
ثم يقول :

« أنا رفيق الشعب وصديقه . . كلهم خالدون مثلى .

إنهم لا يعرفون كم هم خالدون . . ولكن أنا أعرف . فكل إنسان
يحب نفسه ويمتلكاته . أما أنا فأحب هؤلاء الذين كانوا فتيانا ، والذين
يعشقون النساء . . أنا الرجل الأبقى الذى يشعر كم يؤلم المراء أن
يهان . أحب الحبيبة الحلوة . . والعانس ، أحب الأمهات . . وأمهات
الأمهات . . أحب الشفاه التى ابتسمت والعيون التى ذرفت
الدمع . . أحب الأطفال والذين يلدون الأطفال . . » .

وهكذا يتسع قلبه للكل ، للجميلة والعانس ، للبسمة والدمعة ،
للفاشلين والظافرين . .

ويمتد إحساسه الشامل بالحياة إلى الزهور والأعشاب .

إن الانسان عنده يتحول إلى تراب يدخل من جديد في تركيب
النباتات ، فالنبات يتغذى من التراب الذى يتكون - في جزء منه - من
جسد الانسان ، فلماذا لا تكون الزهور والأعشاب التى نراها هى في
الأصل فتاة جميلة عذراء أو شابا وسيا شجاعا ، أو طفلا طاهرا بريئا .

يقول ويتمان عن العشب :

« بحنان أتناولك أيها العشب ، فلعلك طلعت من صدور الفتيان
الذين لو عرفتهم لأحببتهم . . لعلك من عجوز أو من طفل صغير
انتزعوه من حضن أمه » .

« ماذا تظن انه حدث للرجال والفتيان والشيوخ ؟ ماذا تظن أنه
حدث للنساء والأطفال ؟ . . إنهم أحياء ويخبر في مكان ما . فأصغر
نبات علمي هذه الأرض يبرهن على أن الانسان لا يموت . . ولو كان
هناك موت فإنه إلى الحياة . كل شيء يسير إلى الأمام . . ولا شيء
يزول » .

بهذا الإحساس الذى يرى الحياة في كل شيء ويشمها في كل شيء
حتى في التراب والعشب يواجه « ويتمان » الدنيا ، ويعبر عن نفسية

تعشق الحياة وتقبل عليها بحرارة ، ويدعونا أيضا إلى الانفعال بنفس
الحرارة والحماس .



إن أجمل ما نتعلمه من هذا الفنان الذى يحتضن الحياة ويقبل عليها
« بنفس مفتوحة » هو أن نتقبل الحياة ، وأن نعيشها بشجاعة
كما عاشها هذا الشاعر . . والشجاعة هنا هى أن نبحث عن المعنى
الإيجابى فى التجارب التى نعيشها ، فالفشل الذى يواجهنا أحيانا ،
والصددمات التى تتعرض لها نفوسنا يجب ألا تجعلنا نفقد القدرة على
مواصلة الطريق والرغبة فى الاستمرار . . إن تقبل الحياة يحتاج إلى
نفسية متفتحة حية ، وهذه النفسية هى التى يمكن أن ترى فى الفشل
خطوة إلى النجاح ، وفى الألم طريقا إلى السعادة ، والذين لم يوهبوا
هذه النفسية المتفتحة يستسلمون من أول تجربة ، فيتسرب إليهم
الضيق بالحياة والإحساس بأنها لا نطاق ، أو تمتلئ نفوسهم بالحقد
 والمرارة فلا يستطيعون أن يتعاطفوا مع أى شىء جميل فى هذا العالم .

إن شجاعة الحياة التى يدعونا إليها هذا الفنان تعتمد على
التسامح واتساع الذهن والعاطفة ، إنها لا تقوم على المرارة والحقد
واستصغار شأن أى كائن فى هذا الوجود . . مهما كان بسيطا عاديا .

فنحن أحيانا نضيق بالناس العاديين ونقيس الفرد بمدى نجاحه فى
الحياة ومدى تفوقه ، ولكن هذا الفنان يدعونا إلى الحب الشامل ، إلى

احترام الحياة فى أبسط مظاهرها وأقلها أهمية ، والنظر إلى الإنسان بعاطفة تغفر كل شىء ولا تعرف اللوم والتأنيب أبداً ، إنه لا ينظر إلى الإنسان بتلك العاطفة التى تنقد دائماً ، وتشعر بعداء مستمر للحياة وسخط عليها لا يعرف التفاؤل .

إن هناك إنساناً بسيطاً قد لا يلفت نظراً إليه شىء هام من الناحية الخارجية ، ولكننا لو حاولنا أن نفهمه وأن نعطيه قليلاً من عواطفنا واهتمامنا لوجدنا وراءه شيئاً يستحق الحب والاحترام .

ربما كان هذا الرجل كناساً ولكنه يحمل فى قلبه مصباحاً صغيراً هو حبه لأمه أو زوجته أو ابنته . . إنه يقوم بعمله وهو مدفوع دائماً إلى رعاية إنسان فى هذا العالم وحبه ، وقد يستمر كذلك ثلاثين سنة أو أربعين . . ولو نظرنا إلى هذه السنوات الطويلة من ناحية أخرى لوجدناها روتيناً وجوداً لا معنى لهما ، ولو نظرنا إليها من ناحية أخرى لوجدناها حباً متواصلاً ، وكفاحاً جميلاً . . هو أقصى ما يستطيع هذا الرجل أن يفعله .

وقد كان « تولستوى » يعلن أحياناً بعض الآراء التى تصدم الناس ، ولكنها جديرة بالتأمل والتفكير . . كان يقول عن أحد الأشخاص : « لولا حبه للكلاب لكان أسوأ إنسان فى العالم » .

ففضيلته الوحيدة أنه يحب . . يجب أى شىء ولو كان كلباً .
فالعاطفة هى التى رفعته وجعلته إنساناً يستحق الاحترام ، ونفس

الفكرة يرددها غاندى عندما يقول عن نفسه : إن مذهبي ليس ديناً مغلقاً . . ففيه مجال لأقل مخلوقات الله شأننا .

إنها دعوة إلى حب الحياة ، والإقبال عليها ، والإبتسام دائماً في وجهها . . فهي جميلة حتى في عذابها وعصيانها ، وهي جميلة حتى في الناس البسطاء ، وحتى في العصاة والخاطئين والذين فشلوا . .

يا له من فنان عظيم وإنسان عظيم !

الطفل المدلل

هذا الكائن العجيب الذى يظهر بيننا كأنه حلم ، وقد أعطته الطبيعة جزءا من سحرها وسرها . . فإذا به يكتب كلاما جميلا أو يصنع أنعاما تثير فينا السعادة ، وتجعل إحساسنا بالحياة حلوا وعميقا . . أو ينسج من الألوان والخطوط لوحة لفتاة تبسم . . فإذا الابتسامة المرسومة أكثر إشراقا وجمالا من أى واقع نراه . .

هذا الكائن الذى نسميه الفنان . . هل له حق خاص فى أن يتمرد على كل القواعد والقوانين ، ويحصل على امتيازات ليست لغيره ، فيعيش حياته على هواه حتى لو كانت هذه الحياة غارقة فى الشذوذ والانحراف ؟

ما دام الفنان « كائنا ممتازا » . . أفلا يجوز له أن يلهو كما يريد بحجة التجربة ، وأن يقطع أى ارتباط بينه وبين العالم بحجة الإخلاص للفن ؟

ألم يقل فنان من هذا النوع في أحد مسرحيات شو :

« إن الفنان يؤثر أن يترك زوجته جائعة وأبناءه حفاة وأمه تكذب
لتحصل على لقمتها وهي في السبعين على أن يترك فنه كي يعمل عملا
آخر ؟ !

أليس من حق هذا الكائن أن يكون معجبا بنفسه ويطلب من
الناس أن يعاملوه معاملة خاصة . . ويسمحوا له بالحياة كما يشاء ؟ !

إن حياة « أوسكار وايلد » تقدم لنا تجربة عميقة تدلنا على أن هذه
الفكرة خاطئة ، وأن الامتياز الذي أعطته الطبيعة للفنان هو عبء
ومسئولية . . وليس فرصة يستغلها للبحث عن متعة « غير عادية » أو
« عبث غير عادى » .

فأوسكار وايلد فنان مشهور ، أحدث ضجة في إنجلترا ، بل في
أوروبا كلها في أواخر القرن الماضي . . لقد كان موهوبا ، وكانت
الكلمات الجميلة تتساقط من شفتيه بنفس السهولة والكثرة التي
يتساقط بها الندى من زهور الصباح . .

ويقول وايلد عن نفسه بحق : « لقد وهبني الله كل شيء : فأنعم
على بالذكاء والشهرة والمقام الاجتماعي العالي . . وأنا الذي جعلت
الفن فلسفة وجعلت الفلسفة فنا . . وما قلت قولا أو قمت بعمل إلا
كان موضع عجب الناس ورررشتهم . . وكل شيء مسته يدى أحواله
شيئا جميلا » .

وهذا الإحساس اندفع « وإيلد » يجرب كل شىء ، حتى وقع في الوحل . . وأصيب بالشذوذ ، ومرت فترة من حياته كان شذوذه فيها أهم من فنه ، وأهم من أى معنى آخر من معانى الحياة .

وهو نفسه يتحدث عن هذه التجربة العجيبة . تجربة انحرافه وشذوذه فيقول : « اتخذت الشذوذ والتسكع والمغالاة في التأنيق خطة لى فى الحياة ، فأحطت نفسى بأصحاب العقول الصغيرة ، وأصحاب النفوس الصغيرة ، وأسرفت فى تبديد ذكائى وفى تبذير شبابى الذى كنت أظنه لا يفنى أبدا الدهر ، وكنت أجد فى هذا التبديد وهذا التبرير لذة عجيبة » .

لقد وقع هذا الفنان الموهوب فريسة لتلك الفكرة الخاطئة ، فكرة حرية الفنان وحقه فى أن يعيش أى نوع من الحياة الشاذة . . بحثا عن التجربة . . . عن المعنى الفنى .

إنها الفكرة التى ترى أن الفنان هو طفل الحياة المدلل ، الذى يحق له ما لا يحق لأى إنسان آخر . . هذه الفكرة التى وصلت عند البعض إلى اعتبار الغرور وعدم الالتزام بأى مسئولية نحو الحياة والناس صفات مقترنة بالموهبة والعبقرية . .

وهذا هو ما حدث لأوسكار وإيلد فى فترة من حياته . لقد ظن أنه جاء إلى العالم ليأخذ منه أقصى ما يستطيع ، بل جاء ليجعل العالم يعبدّه ويمنحه امتيازات واسعة . . أليس موهوبا وعبقريا ؟ . . ثم

قادته هذه الفكرة إلى الانحراف والشذوذ في علاقات سيئة ، كانت أشهرها علاقته بالشاب الوسيم اللورد « ألفرد دوجلاس » والتي قادته في النهاية إلى السجن ليقتضى فيه سنتين كاملتين .

وفي السجن استطاع وإيلد العودة إلى صفاء عبقريته ؛ فحاكم نفسه محاكمة أقسى من محاكمة الناس له ، وأدان نفسه إدانة كاملة . . وهو في الحقيقة قد أدان الفكرة الخاطئة التي تقول : إن الفنان له الحرية المطلقة في أن يفعل ما يشاء ، ما دام أنه يتمتع بامتياز العبقرية . .

فالفنان الموهوب على العكس إنما يقوم بمحاولة لفهم الحياة فهما عميقا ، ثم اكتشاف الجمال المختبئ فيها . . لقد منحت الطبيعة الفنان عيونا سحرية يستطيع أن يرى بها ما في الحياة من جمال وعمق . . وهذه العيون السحرية هي مسئولية كبيرة يتحملها الفنان وليست امتيازاً يبرر الشذوذ والانحراف .

ودور الفنان في الحياة ليس فقط أن يقدم للناس متعة فنية ، فالفنان الذى يقف عند هذا الحد لا يفترق في الواقع كما يقول الكاتب الفرنسى « ديهامل » عن أى « عاهرة جميلة » . . إنها أيضا تقدم المتعة للناس . . بلا مقياس . . بلا هدف عميق . . بلا معنى من المعانى الكبيرة التي يمكن أن تقف وراء الجمال أو تكمن فيه .

ومعنى هذا الموقف الخاطئ أن الامتياز الذى تمنحه الطبيعة للفنان أو للمرأة الجميلة هو طريق إلى الفوضى والعبث . . طريق إلى تبديد الحياة ، والوصول بها إلى التمزق والفساد .

ولكن الموهبة الحقيقية هي خصوبة في الحياة . . هي مضاعفة للحياة . . فالفنان الموهوب هو الذى يعيش حياته بعمق ، يعيش اليوم الواحد بأكثر من قيمته العادية ؛ لأنه يكشف ، ويتكرر ويضيف إلى الحياة . . والفنان في الوقت نفسه يدعونا ويساعدنا على أن نعيش في الدنيا العميقة الجميلة التى اكتشفها لنا .

وعندما وقع أوسكار وايلد في محنته . . وقاده الشذوذ والانحراف إلى السجن . . كتب يبرىء فنه من تهمة « المسئولية » عن هذه النتيجة :

« إنه واجب على أن أقول لنفسي إننى أنا الذى أوردتها موارد الهلاك ، وإنه لا أحد في الدنيا مهما يكن عظيما أو حقيرا بقادر على أن يدفعك إلى موارد الهلاك إلا إذا ألقى نفسك بيدك في تلك المهالك . . إننى أصدر هذا الحكم القاسى على نفسي من غير شفقة ولا رحمة » .

أى أن الإنسان هو المسئول . . وليس الفنان . ثم يستمر « وايلد » في قسوته على نفسه ليكشف سر محنته :

« لقد استحوالت الشهرة عندي إلى مرض أو جنون ، وغاب عني أن أى عمل مهما صغر مقداره يبنى الخلق وهدمه . . إن ما يفعله الإنسان بين جدران غرفة مغلقة سوف يفعله يوما أمام الناس . . لقد فقدت السيطرة على نفسي ، بل جهلت نفسي فأثمت للذة أن تسيطر على ، ثم انتهى الأمر بفضيحة لا حد لبشاعتها ، ولم يبق لي الآن إلا الذلة والضعفة » .

ولم يحاول أوسكار وايلد أن يقول أن الفن يسمح بالانحراف والشذوذ ، وإن العبقريّة من حقها أن تعيش في الوحل والانحلال الدائم . فالمشكلة التي تعرض لها وايلد وقعت في « غفلة » من الفنان الأصيل ، لقد نسي نفسه ، وجرفه تيار الفساد الشائع في المجتمع الإنجليزي ، فاضطربت مقاييسه ، وزحفت التفاهة إلى عالمه حتى انتصرت عليه لفترة من الوقت . . وأوقعته في « الكارثة » التي هدمت حياته بعد ذلك .

فقد خرج من السجن بعد سنتين ، محطم النفس لا يحمل أملا في المستقبل ، وحاول أن ينسى الماضي ، ولكن الماضي انتصر عليه فمات بعد سنوات قليلة . . ويعد أن أنهكه العذاب النفسي . . والخمر . .

ولكن وايلد استطاع أن يصل من خلال الكارثة إلى أعماق نفسه الصافية ، وذلك حين سمحت له إدارة السجن بالكتابة ، فأعد كتابه الذي أسماه « من الأعماق » .

• وكان الكتاب شفافا رائعا . . يعترف فيه وايلد بتجاربه ، ويعبر مشاعره وأحاسيسه ، وكأنه لا يخشى من شيء مادام يدرك أن جوهره العميق هو : طهر وخير .

لقد انبثق شعاع من النور في حياة وايلد كشف له كل شيء . . وانبثق هذا الشعاع من خلال العذاب الشديد الذي كان يعانيه . . ومن خلال الوحدة الكاملة التي كان يعيش فيها ، وقد تخلّى عنه الناس جميعا ، وأصبحت ضجة الإعجاب التي كانت تحف به في كل مكان

مجرد ذكريات يروها الناس في خجل وحياء . . ولم يعد وايلد يجد أنيسا
غير الشعاع البسيط من النور . . شعاع الحقيقة العميقة التي تعيش
في داخله .

لقد تعلم الآن - وهو وحيد بعيد - ان الفكر الصافي والألم العميق
هما المنبع الحقيقي لمعرفة الحياة وفهمها . . ليس طريق الحياة هو طريق
اللذة ، وليس طريق الفن هو طريق الشذوذ والانحلال :

« لن أعيش بعد الآن إلا بصحبة الفنانين ، والناس الذين تألموا ،
فأولئك هم الذين يعرفون ما الجمال وما الحزم ؟ أما من عداهم فلا
يعينني من أمرهم شيئا » .

وعندما أصبح وايلد على وشك الخروج من السجن كانت أمنيته
هي : « أن يكون عندى ما يكفينى للعيش ثمانية عشر شهرا حتى إذا
لم أستطع تأليف الكتب النافعة ، استطعت على الأقل أن أقرأ الكتب
النافعة ، وماذا بعد هذا من لذة ومتعة ؟ ! » .

وخرج أوسكار وايلد من السجن بعد أن شفى نفسه من مرارة
الضغينة والحقد على العالم .

ولكن نفسه كانت قد أصابها الشيخوخة . . ولم يجد من مجتمع
الفاسد نفس النور الذى وجدته في قلبه عندما كان في الزنزانة . . لقد
كان مجتمع إنجلترا في أواخر القرن الماضي مجتمعاً كثيباً يتكون من :
اللوردات والسكارى والمسحوقين .

فأين يمضى الفنان بعد أن استخلص من ماضيه فى لحظات المحنة
كل ما هو جميل وعميق ؟

لقد عاد للسكر . . وتهشمت حياته كما تهشم الكأس الفارغة فى
بار رخيص .

ولكن الحكمة الأساسية فى تجربة « وايلد » كانت قد برزت بشكل
واضح عميق . . فالفنان ليس طفلا مدللا للمجتمع أو للطبيعة . .
بل على العكس إنه أكثر الجميع مسئولية ، وأكثر الجميع ألما . .

والفنان الحقيقى لا يمكن أن يتخذ الشذوذ والانحراف مذهبا فى
حياته . . إن الفن فى هذه الحالة خداع ووهم .

والشخصية المريضة هى التى تستخدم الفن بهذه الطريقة . .

ولا يكون ذلك عن عمق وعبقريّة ، بل عن مرض وابتعاد عن
منابع الفن الحقيقى . .

والذين اضطربوا فى حياتهم من الفنانين الأصلاء كانوا فى الحقيقة
ثارا لمجتمع سىء يضغط عليهم . .

ولكن الفنان الصادق يقاوم هذا الضغط دائما ويقف منه موقف
الفارس من عدوه . يجمع قواه المعنوية ، ويغامر وسط كل المخاطر ،
لكى يقول فى نهاية الأمر كلمته للحياة . كلمة : « الذى تعذب أكثر من
الكل فعرف أكثر من الكل » .

★ ★ ★

دائما فوق كل الكلمات الجميلة ترتفع عبارة جورج ديهامل :

« ان الأخلاق هي روح العبقرية .. بل ان الأخلاق أندر من العبقرية والأخلاق هي أثنى موهبة » ..

فما معنى الأخلاق ؟ .. إنها احتضان العالم ، وحب الإنسان واحترامه ومحاولة فهمه . إنها الإضافة إلى الوجود البشرى ، والعمل على تجديده دائما مشرقا بالمعانى النيلة الكبيرة .

والذى يحمل فى قلبه موهبة الفن الحقيقى ، يحمل فى الوقت نفسه موهبة الحب للحياة والاحترام الكامل للإنسان .. ومهما تعثر الفنان الحقيقى فى التجارب الصعبة القاسية فهو دائما يتبع ذلك الضوء الذى يشع من داخله فى لحظات العذاب .. الضوء الذى لاح لأوسكار وايلد وهو فى السجن .. « عندى أن كل شىء يقوم على الصدق يجب أن يصبح ديناً »^(١) .

والصدق هو جوهر الفن .. وجوهر الأخلاق .. بل هو جوهر الحياة أيضا .

(١) اعتمدت فى تقديم آراء وايلد على ترجمة أعدتها الأستاذ مبارك إبراهيم لكتاب « من الأعيان » لأوسكار وايلد .

حطم الكأس وعد إلى الحياة

« انس كل شيء في حياتك الحاضرة وعد إلينا .. حطم كأس
الفودكا وعد فإنني أنتظر .. كلنا ننتظرك » .

بهذه الكلمات الحلوة المؤثرة خاطب الفنان الكبير « أنطون
تشيكوف » أخاه « نيكولا » .. وكان « نيكولا » قد أخذ يشكو من
الحياة والناس ، فالحياة تضع العقبات في طريقه .. والناس دائماً
يسيئون فهمه ، ولذلك فهو تعيش شديد الضيق ، لا يجد عزاء إلا
في كأس من الفودكا ، ثم في الشكوى المريرة التي لا تنتهى .

وكان « نيكولا » شاباً موهوباً .. رساماً وكاتب قصة ، ولكنه لم يكن
يعرف طريقة المحافظة على موهبته وإستمرارها ، وكانت حساسيته

الشديدة تدفعه إلى التأثر العنيف بالحياة ، والاهتزاز وفقدان التوازن أمام مشاكلها المختلفة .

ولم يترك « تشيكوف » أخاه ، بل دعاه ، وحدد له طريق العودة من اليأس والانهار . . قال في بساطة وعمق : إن كل لحظة من حياتك لها قدرها .

ولكن « نيكولا » لم يستطع أن يعود، فقاده الخمر إلى اليأس ، وقاده اليأس إلى الدمار والموت بدون أن يقدم شيئا هاما جديلا للحياة . . وكان باستطاعته أن يفعل ذلك لو استمع لصوت أخيه العظيم وهو يناديه . . ولوسار في طريق العودة الذي ناداه إليه .

ولكن طريق العودة الذي حدده « تشيكوف » لم يمت لأنه لم يكن خاصا بنيكولا وحده . . فنيكولا هو نموذج شائع في الحياة .

إن كل واحد منا يمكن أن يصبح « نيكولا » في لحظة من اللحظات . قد تكون قصيرة وقد تمتد وتتسع إلى أن تشمل الحياة كلها .

لقد كانت محنة نيكولا : أنه يبدد حياته . . يبدد كل ما يملك من قوى معنوية . . حتى يصبح في آخر الأمر مثل المقامر الذي أفلس بعد منتصف الليل وطرده نادى القمار ، وذهب كل الرواد إلى بيوتهم . . وبقى هو وحيدا طريدا بلا مأوى ولا أمل .

هذا هو الإفلاس المادى .

وهذا هو الإفلاس المعنوى أيضا .

وتشيكوف يكشف السر لأخيه ، سر الإفلاس الروحي ، والغنى الروحي . . فقد كان تشيكوف نفسه غنى الروح بينما كان رأسه أقل من رأسمال أخيه بكثير ، لقد كان فقيراً جداً ، وكان مريضاً ، وحيداً باستمرار . . ومع ذلك فقد استثمر فقره ومريضه ووحدته وعرف قدر كل لحظة من حياته ، حتى استطاع أن يقدم للعالم في فترة عمره القصير الذي لا يزيد على أربعين سنة نسبة ضخمة من الحكمة العميقة ، والجمال الخصب . جمال الكلمات ، وجمال السلوك والفهم والشعور .

لقد استطاع أن يصنع من « الفقر في كل شيء » « غنى في كل شيء » .

وبذلك عالج تشيكوف أكبر مشكلة تسبب للإنسان التعاسة والارتباك وتؤدي أحياناً إلى الدمار . . هذه المشكلة هي أن يشعر الإنسان أن حياته تافهة ، لا فائدة منها ولا جدوى . .

وفي هذه الحالة يبدأ الإنسان بالشكوى ، الشكوى من العمل ، من الناس والظروف . . ويتحول كل شيء بالنسبة له إلى مرارة لا يطيقها الإحساس .

وقد يندفع الإنسان إلى أكثر من الشكوى ، فيقوم بعملية تبديد واسعة لامكانياته ، إنه يبذل وقته ومشاعره وصحته . . ويجد في كأس الخمر لذة لا يجدها في قراءة كتاب ، وفي التسكع والفرجة على الحياة والسخرية من الناس لذة لا يجدها في العمل ومحاولة الفهم الصحيح للأشياء .

وهذا الموقف يؤدي إلى الإحساس بالتعاسة ، إنه انتحار يتم على مراحل . . على عشر سنوات أو عشرين سنة أو أكثر . . ولكنه في النهاية هرب من الحياة وكراهية لها ، وبحث دائم عن الغياب عنها .

ماذا تكون نتيجة حياة من هذا النوع ؟ ماذا يكون حصاد زرع من هذا الطراز ؟ إن النتيجة الأخيرة هي انعدام الشعور بجدوى الحياة ، وانعدام الشعور بأن الإنسان قد ترك في هذه الدنيا أثرا مفيدا جميلاً .

والسؤال عن نتيجة حياة الإنسان اسؤال هام وخفيف ، وبعض الناس يهربون من السؤال تماما ، وبعضهم يواجهونه بفزع وارتباك ، وآخرون يواجهونه بقوة .

وهذا النوع الأخير هو وحده الذى يصل إلى نتيجة ، إلى ثمرة ترضيه وتقضى على شعوره بالتفاهة . . وقد تكون هذه الثمرة هي مجرد العمل ، مجرد المحاولة .

والحكمة الكبيرة التى دلنا عليها تشيكوف عندما قال لأخيه : كل لحظة من حياتك لها قدرها ، تتجاوب تماما مع الطريق الذى اختاره عدد كبير من العظماء ومعلمى البشرية . . هؤلاء الذين فتحوا الطريق أمامنا ، وساروا حتى وصلوا إلى أقصى أطرافه .
وكان كفاحهم دعوة لنا لكى نسير فى نفس الطريق ولو بعض خطوات .

فالحياة الناجحة هي الحياة المنظمة ، الحياة التى تخضع لرقابة دقيقة من الإنسان على نفسه ، وليست الحياة التى تجرى هكذا مع التيار . .

يدفعها إلى الأمام مرة وإلى الوراء مرة أخرى . . فالإنسان لن يحقق أى انتصار على مشاكل الحياة ، دون تخطيط ويقظة ، وعمل دائب من أجل تحقيق هذا التخطيط .

وقد سمى تولستوى هذه العملية تسمية جميلة . . سماها « الحراسة على الحياة الخاصة » ، وكان تولستوى نفسه يقوم بهذه الحراسة الدقيقة على حياته ، فلا يسمح لأحد اللصوص أن يدخل إلى نفسه فيسترق منه وقتا أو شعورا جميلا ، أو فكرة عميقة . : وهو لا يسمح أيضا لجانب من جوانب حياته أن يصدأ أو يتعفن ، بل هو « يكنس » نفسه ، ويغسلها وينظفها ويرتبها فى كل لحظة ، ثم يعمل على أن يملأها « بالأثاث الغالى الثمين » أى بالأفكار العميقة النبيلة ، وبالمشاعر الإنسانية الصافية المفيدة ، وبالسلوك النقى الرفيع . . إنه يريد أن يجعل من حياته شيئا مفيدا مجديا ، ولن يكون ذلك أبدا بأن يترك نفسه للمصادفة ، بل إنه يعرف جيدا كيف يواجه المصادفة ويحاربها ويعمل للتغلب عليها وضمها إلى صف أفكاره النبيلة .

ومنذ صباه الأول لم يكن يحامل نفسه أبدا أو يخدعها أو يكذب عليها ، كان على نفسه حارسا أميناً لا ينام . . يواجهها وينقدها دائما ، ويضع علامة حمراء عنيفة تحت أى تصرف أو فكرة أو شعور يتسم بالتبديد الخالى من المعنى . . التبديد بلا جدوى ولا مقابل .

ففى مذكراته وهو شاب صغير يسجل تولستوى ما فعله فى أحد الأيام بهذه الصورة : « من الظهيرة حتى الساعة الثانية مع « بيجتشيف » . .

تحدثت بحرية كثيرة ، وبغرور عظيم ، وأنا أكذب على نفسى أيضا . . من الثانية حتى الرابعة رياضة بدنية . قليل من العكوف والصبر . من الرابعة حتى السادسة تناولت طعامى وابتعت بعض الأشياء عديمة النفع . فى البيت لم أكتب شيئا . إنه الكسل . زرت بعض أصدقائى وتحدثت هناك ، إنه الجبن . »

ثم ينتهى تسجيله لليوم بهذه الجملة : « لقد تصرفت بصورة سيئة : جبن وغرور وطيش وضعف وكسل . »

وهكذا يضرب تولوستوى نفسه بسوط لا يرحم ، ويرابب نفسه بدقة وقسوة وكأنه قد انقسم إلى شخصيتين إحداهما تعادى الأخرى بشدة ، فتقول لها عيوبها بلا خوف ولا مجاملة ، وتكون هذه المواجهة القاسية هى بداية التغير نحو حياة أكثر جمالا وفائدة . . وإن لم تكن أكثر سهولة وراحة ، فعندما كان تولوستوى يصف بصدق وأمانة أن هذا التصرف جبن وهذا غرور أو كسل ، فهو فى الوقت نفسه يسجل سخطه على هذا النوع من التصرفات وكراهيته له ، وهو على الفور يبدأ فى التغير نحو الجميل والعميق معا .

وهذا هو الدرس الذى يعطيه لنا تولوستوى كما أعطاه لنا من قبل تشيكوف . . احترام كل لحظة فى الحياة وإقامة الحراسة عليها ، وجعلها - فى بساطة وصدق - مليئة بشيء نافع ، والنظر إلى حياة الإنسان على أنها نسيج كامل كبير ، يجب أن نضع فيه كل يوم ولو

« غرزة » واحدة مفيدة ، حتى إذا وصلنا إلى منتصف الطريق أو إلى نهايته استطعنا أن نقول إننا فعلنا شيئاً ، وإننا لم نعش مثل الجراد والصراصير . . كائنات بلا مغزى . كائنات بلا فائدة .

لقد كان تولستوى مثل زميله تشيكوف يخاف على حياته أن تصبح تافهة ، أو تصبح كريمة ، ولذلك فقد كان يقوم بحراسته الدقيقة على حياته بدون تهاون ، وبطرد المشاعر السيئة من نفسه ، تماماً كما يقص أظافره الطويلة ، ويرفض اللحظة السطحية التي بلا معنى ولا طعم . . إنه يزرع أرض حياته ببذور مختارة . . . بالقمح والورد والعنب . . ولا يترك هذه الأرض لتنمو فيها الأعشاب البرية السامة ، وتأوى إليها الغربان والفئران ، وتصبح كثية خالية من الفائدة والجمال . .

وهذه الطريقة استطاع تولستوى أن يعيش اثنتين وثلاثين سنة لا تتكرر . . خصبة كلها ، فعالة كلها ، عميقة في كل لحظة من لحظاتها . في القلق والاضطراب كما في الاستقرار والهدوء .



يقول مفكر أمريكي معاصر هو الأستاذ الجامعي تشارلز فرانكل « إن العصر الحديث يتميز بالتبديد الهائل للقوى البشرية » . . وهذه الفكرة تدعونا أكثر للتأمل في حياتنا على ضوء ملاحظات تولستوى وتشيكوف ، فالإنسان في عصرنا إذا لم يقم بالحراسة الدقيقة على

حياته ، فإنه سيكشف بعد وقت أنه قضى عمره في الأشياء الكثيرة العاجلة التي يمتلئ بها عصرنا . . سيكتشف أنه قضى حياته في تبادل كلمات المجاملة مع عدد كبير من الناس لا تربطه بهم علاقة عميقة ، وفي ركوب « الأتوبيسات » والجلوس على المقهى ، وتدخين السجائر والذهاب إلى السينما أحيانا . . وقد تدفعه الحياة إلى أن يركز على هدف أرقى قليلا ولكنه يستغرق حياته كلها ويسرقها ، مثل الحصول على عربة ، أو بناء بيت ، وغير ذلك من الأشياء التي تجذب أنظار الإنسان العصري . . وستجد الفتاة أنها قضت الجزء الأكبر من حياتها في الذهاب إلى الخياطة ، والثرثرة مع الصديقات . والوقوف في المطبخ ، والفرجة على المحلات العامة ، وشراء بعض الأشياء .

إنها نتيجة مؤسفة أن يكون حصاد الرجل والمرأة في الحياة مقصورا على هذه الأشياء محصورا فيها ، والذين يكتشفون ذلك ويشعرون بالأزمة ثم يندفعون إلى الهرب يقعون في مشكلة أخطر وأعمق . . إنهم يبحثون عن طريق لتدمير أنفسهم كما فعل « نيكولا » شقيق تشيكوف . . فما جدوى الحياة بالنسبة لهم ، وما الأمل الذي يمكن أن يتعلقوا به ؟

كل هؤلاء ضحية لمرض واحد هو عدم « الحراسة الدقيقة » على الحياة . . تبديد الطاقة البشرية بطريقة آلية متكررة لا تتجدد . النظر إلى الطلاء الخارجى للإنسان ، وإهمال الداخل إهمالا مطلقا ، حتى يصبح القلب مليئا بالغبار ، والعقل ساعة قديمة مكسورة متوقفة عن

العمل ، والإحساس متخدرا مشلولاً هامدا . . وهذه الطريقة تموت
النفس وتذبل الروح . . ونقضى حياة لا فرح فيها ولا بهجة . . ولا
قيمة لها ولا معنى .

وقد نذهب إلى الخمر . . كما ذهب نيكولا إلى عقد صداقة قاتلة
مع الفودكا .

وبذلك نبيع حياتنا ونفقدناها نهائياً .

★ ★ ★

إن علينا أن نستمع إلى الموسيقى الجميلة الخفية التى تنساب من
خلال الزمان ، ويأبى تألقها أن يتغير أو يضع ، وتظل قوية ثابتة ،
كأنها جزء من الطبيعة . « تلك الموسيقى التى تنبعث من صوت
تشيكوف وهو ينادى أخاه الغارق فى المخنة » .

« إنى فى انتظارك . . كلنا فى انتظارك . . إن كل لحظة من حياتك
لها قدرها » .

وعندئذ ترتفع الموسيقى الهادئة العذبة وتعزف بصوت تولستوى
السيمفونى الحار العنيف : « قم بالحراسة الدقيقة على حياتك » .

وبذلك لا تتسرب الحياة ولا تضيع ، ونستطيع أن نصنع من
وجودنا شيئاً جميلاً مقنعاً ولو على أضيق نطاق ، وتظل هذه الموسيقى
العذبة القوية تقودنا إلى النبع الجميل للحياة ، فنشرب منه ونشعر
بالصحة والبهجة ، مهما كانت متاعبنا ومشاكلنا . . ومهما كانت
العقبات التى تواجه الإنسان وتحاربه !

وهذا يكون حصاد الحياة خصباً ثميناً .

الباب الضيق

« دع ذلك الذى يتحسر
طريقه فى الظلام والضوء المرتجف
يستمسك بهذه الوصية ويحرص
عليها أشد الحرص وهى : أن
يعمل الواجب القريب منه ...
فإذا قام بذلك أصبح الواجب الذى
يتلوه واضحا ظاهرا » .

جيتة

فى الفترة المزدهرة من حياة الإنسان ، وهى فترة الشباب ، يبدو كل
شئ فى الحياة ممكنا . . فى هذه المرحلة من العمر يحس الإنسان بتدفق
طاقة الحياة فى عروقه ، ويحس أنه يكتشف الدنيا من جديد . . فبعد
أن كانت الأشياء فى مرحلة الطفولة تبدو سهلة ساذجة ، لا معنى لها
أحيانا . . أصبح كل شئ الآن ساخنا حارا له معنى ودلالة .

وفي فترة الشباب الأول ، ونتيجة للدفعة القوية المفاجئة من دفعات الحياة ، يبدو الإنسان في نظر نفسه قادرا على كل شيء . وبذلك تكون أحلامه واسعة ، ومشروعاته كبيرة غير محدودة . ثم تبدأ المفاجآت .

تبدأ بعد خطوة أو خطوتين من شباب الإنسان . . إنه يصطدم بالحياة ويجد أن الأحلام العريضة لا مجال لها ، وأن الأفكار المثالية النقية تحتاج إلى بعض التعديل أو إلى كثير من التعديل ، وأن المشروعات الكبيرة الرائعة تتضاءل وتفقد بريقها اللامع . وأن الفتاة التي كان يحبها لم تكن بكل هذه الروعة التي كان يتصورها من قبل . . إنها ليست ملاكا . . وأحيانا تقول كلاما سخيلا كأنه شوك . . لم يعد في كلامها عسل ولا سكر . . وأحيانا تتصرف تصرفات سخيفة تخلو من الشاعرية والسحر .

أين إذن أحلام الحب المتوهج البهيج ؟ !

والصديق الذي كان يؤمن به ، ويضعه في أعلى وأعرق مكان في القلب إنه هو الآخر يتصرف أحيانا بأنانية ، وبدون مثالية يضاء نقية .

أما العمل الكبير الذي كان يحلم به ، فقد تحول إلى شيء محدود بسيط . . إلى وظيفة في مكتب ، إلى مدرس أو مهندس أو طبيب .

أين إذن تلك الأحلام الأولى القديمة ؟

. . لقد كان يظن أنه سيغير الدنيا ، ويقوم بأعمال عظيمة رائعة .

وتتوالى المفاجآت . وتتوالى الصدمات النفسية ، التى تجرف معها
التفاؤل والحيوية ، وتخلق الحزن والإحساس بالكآبة والتعاسة .
ولحظة « الصدمة » تمر تقريبا بحياة كل إنسان . . وهناك من يعتبرون
هذه اللحظة هى نهاية الحياة ، فيتنحرون انتحارا فعليا . . أو
يتنحرون بطريقة أخرى لا تقل عن الأولى خطرا . . إنهم يغيبون عن
الحياة بالسكر . . أو بأي عادة أخرى جامدة تشغلهم عن التفكير فى
الحياة ، مثل الجلوس على مقهى والاستغراق فى ألعاب تافهة متكررة
مسلية .

وهناك من يعبرون لحظة الصدمة ويستمررون فى الحياة ، وشيئا فشيئا
يكشفون أن الحياة بعد « الصدمة » أعمق ؛ لأنها حقيقية وليست
ملفوفة فى « سلوفان » اسمه الوهم أو الحلم . . كما كان الموقف فى
شباب الإنسان الأول ، ولكن الخروج من ظلام الصدمة يحتاج إلى
بوصلة تحدد للإنسان اتجاهه وترسم له الطريق حتى لا يضيع .
وكل الأطباء الكبار للنفس البشرية يقولون إن البوصلة الوحيدة
هى : العمل .

ولكن السؤال : ماذا نعمل ؟ . .
إن كلمة العمل بمعناها العام لا تكفى ولا تؤدى إلى نتيجة . .
ذلك لأن « الصدمة » نفسها قد تؤدى بالإنسان إلى كراهية كل شىء ،
والإحساس بأن كل شىء فى هذه الدنيا لا يستحق الاهتمام . .

ويصل هذا الشعور أحيانا إلى حد احتقار النفس ، والإحساس
بأن ذات الإنسان أيضا هى جزء من هذا العبث الغريب الذى
نسميه : الحياة .

فإذا كان الحب لا يجدى ، والصدقة لا تجدى ، والمعرفة لا قيمة لها . . فأى نوع من أنواع العمل يمكن أن يكون مجدياً ؟ !

ونعود إلى الأطباء الكبار للنفس البشرية ، ونقف مع طبيب واحد من هؤلاء الأطباء هو أديب ألمانيا العظيم جيته .

إن هذا الطبيب العظيم للنفس البشرية يقول إن العمل وحده هو الذى يعطى بقية الأشياء فى الدنيا معناها وطعمها الحلو .

فالعامل هو القوة السحرية التى تجعل الحياة ربيعاً دائماً ، كل شئ فيها أمام الإحساس أخضر ، منتعش . . جميل فى الحقيقة لا فى الروهم .

إن العمل هو الذى ينعش الحب والصدقة ، ويجعل المعرفة زادا ثمينا نحمله معنا فى رحلة الحياة ، فلا تجوع أرواحنا أبداً ولا نتعرض للضباع .

ثم يقف طبيب النفس البشرية ليقول لنا : إن من الخطأ أن نرسم لأنفسنا خطة ضخمة لأعمال كبيرة ، ونتنظر أن يتحقق ذلك بصورة مفاجئة . . فإذا لم يتحقق ما كنا نحلم به أصابتنا التعاسة وامتألت نفوسنا بالكآبة والهم .

إن ذلك هو خطؤنا وليس خطأ الحياة . . والطريق الصحيح الذى يقودنا إلى نبع الحياة الحلو ، وسحرها الدافئ ، هو أن يقول الإنسان لنفسه : « ان الخطة المثلى هى أن أعمل الواجب القريب منى » . ثم يؤكد جيته هذا المعنى مرة ثانية فيقول :

« ما أؤمن وما أكثر أهمية الواجب القريب منى » .

ومرة ثانية يقول لنا طبيب النفس البشرية بصوته الذى صقلته التجربة ، والإشفاق على الإنسان فى محنة ضياعه وأساه :

« دع هذا الذى يتحسس طريقه فى الظلام والضوء المرتجف ويدعو ويبتهل لإقبال الفجر يستمسك بهذه الوصية ويحرص عليها أشد الحرص ، وهى أن يعمل الواجب القريب منه ، فإذا قام بذلك أصبح الواجب الذى يتلوّه واضحاً ظاهراً » .

فالعمل الصحيح الذى يحمل سر السعادة والتغلب على آلام الحياة هو :

عمل الواجب القريب من الإنسان ..

فالواجب القريب قد يكون حلقة ضيقة ، ولكن إتمام هذا الواجب يقود إلى دائرة أوسع ، ويكشف عن كثير من المعانى الجديدة الرحبة فى الحياة ، فالخطوة الأولى تقود إلى الخطوة الثانية ، وأكثر الناس الذين يحلمون بالأعمال الكبيرة ، هم أكثر الناس فهماً وإدراكاً لحقيقة هى : أن هذه الأعمال تبدأ دائماً بمراحل صغيرة متواضعة .

فالرجل الذى يشكو من أن زوجته لا تشاركه فى مشاعره وأفكاره .. هل حاول أن يقوم بتجربة بسيطة هى أن يساعدها على المعرفة والتطور حتى تصبح قريبة من نفسه وعقله ؟ ..

لقد كان هذا الزوج يعتبر السعادة هي أن يعرف امرأة تشاركه في كل شيء ، وهاهو الآن تعيس جدا لأنه اكتشف الفرق بينه وبين زوجته . . ولكنه مع ذلك لم يحاول أن يقوم بالواجب القريب منه وهو مساعدة هذه الزوجة على أن تتقدم وتقترب منه . . إنه يفضل أن يـ ويشكو ، على أن يعمل شيئا .

ويمكننا أن نلاحظ في حياتنا أن عددا من الشباب الفاشلين يتميزون بذكاء ومواهب واضحة . . ولكنهم مع ذلك فاشلون يائسون . . والسبب الحقيقي البسيط هو أنهم نسوا « الواجب القريب منهم » . . إنهم ينظرون إلى هذا الواجب نظرة ازدراء . . فأين هذا الواجب القريب البسيط من الأحلام الكبيرة والأمانى العريضة ؟ والنتيجة أن يفشلوا في تحقيق أحلامهم الكبيرة لأنهم أهملوا « الواجب القريب منهم » . . إنهم لم يسيروا في الطريق الصحيح الوحيد لتحقيق الأحلام الكبيرة . . بل أرادوا أن يصلوا إلى هذه الأحلام « بالبراشوت » لا بالسير خطوة خطوة ، في تأن وتواضع .



وحكمة جيته التي يلخصها في دعوته إلى « عمل الواجب القريب منه » . . هي نفسها حكمة المسيح : اجهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق .

فالعامل البسيط الرقيق المتواضع ، البعيد عن الأضواء ، البعيد عن الزحام والضجيج . . العمل الذي قد لا يكون مغريا مثيرا .

هذا النوع من العمل هو الباب الضيق ، الباب الذى لا يجب الكثيرون أن يدخلوا منه إلى الحياة ؛ لأنهم يفضلون الأبواب الواسعة التى تؤدى بهم إلى أهدافهم . . هذه الأبواب الواسعة التى نسجتها الثروة أو الشهرة أو غير ذلك من أبواب الحياة . إن التفكير فى هذه الأبواب نفسه هو الذى يسمم حياتنا ، ويجعلنا نشعر بالفشل والعجز عن تحقيق أحلامنا ويؤدى إلى التمزق النفسى الدائم . . ولكن الباب الضيق هو العمل الصغير المتواضع الذى يؤدى إلى عمل أوسع منه ، وقد يكون الباب الضيق خاليا من كل بريق إلا فى شيء واحد هو أنه يؤدى إلى الإحساس بمعنى الحياة ، والإمساك بالخيط السحري الرفيع الذى يجعل القلب مليئا بالأمل ، ويجعل العين تبصر فى الحياة أشياء قد لا تراها العيون العادية . . عيون الذين يدخلون من الأبواب الواسعة فيرون الأشياء نفسها ولكن بصورة قاتمة غائمة .

إن الباب الضيق هو فى كلمات : طريق السعادة الداخلية العميقة . . وهذا هو ما توصل إليه جيته ، وسائر العظماء الذين أعطونا مفتاح السر الذى نكشف به حقيقة الحياة . . لقد ظل جيته يعمل وهو فى قمة مجده وشهرته وثروته ، كما يعمل أى تلميذ صغير . . بنفس المثابرة والتواضع . . حتى وهو على فراش موته . . فقد طلب وهو فى آخر لحظات حياته ورقا وقلما ليعاود العمل . . ليستمر فى الكتابة . . عمله الذى أحبه واختاره وأخلص له منذ البداية . . وقبل أن يموت بلحظات عر سعادته وفرحته بعودة الربيع إلى الأرض .

لقد ظل حياته التي استمرت أكثر من ثمانين عاما . . يعمل
ويلتمس السعادة والفرح وعذوبة الحياة : في العمق . . في عمل
الواجب القريب منه دائما . . في الدخول من الباب الضيق الذي
لا يقبل عليه الكثيرون .

البئر

هى فتاة جميلة .. تعرف أنها تستطيع أن تجد « الرجل » فى أى وقت ، ولذلك فهى لا تجعل « عقدة » حياتها الأولى : انتظار الرجل ، والخوف من أن يفوتها القطار الخالد .. قطار الزواج .

وهى ليست فقيرة ؛ ولذلك فانها لا تعاني معركة كل يوم .. لا يطاردها البحث القاسى عن اللقمة ولا زحمة المواصلات ، ولا المسكن الضيق الذى يؤدى إلى الإحساس بضيق الحياة .

ولكن وزجها الجميل العذب ، والقيلا التى تسكنها فى المعادى ، والعربة التى توصلها كل يوم إلى الجامعة ، وتفوقها الدائم فى الدراسة .. كل هذا لم يصل بها إلى الجواب .

وهى تسأل : ما معنى الحياة ؟ هل هى أن تتزوج مثل أى فتاة ، وتواصل الحياة العادية الروتينية التى يعيشها معظم الناس ؟ .. إنها

ليست مقتنعة بهذا المصير ولا راضية . . فلا بد أن يكون في الحياة ما هو أعمق وأعظم من هذا الروتين الدائم الذى يجعل حياة الناس نغمة واحدة تتكرر ولا تتبدل أبدا .

وابتدأ وجهها الجميل العذب يكتسى القلق والشروء والحزن . . إنها تبحث عن الطريق ، وتلجأ إلى كل وسيلة ممكنة . . بدأت تقرأ الشعر والقصة ، وتدرس العلوم وتسمع الموسيقى ، وتعيش طويلا مع الفلاسفة .

وما زالت تبحث عن طريقها في الحياة ، بوسيلة أساسية هي المعرفة والثقافة . . . وقد قررت ألا تستسلم أبدا حتى تصل إلى شىء .
والمعرفة بئر عميقة حفرتها الطبيعة منذ آلاف السنين . . . وقد استخدمت الطبيعة في حفر هذه البئر كل غموضها وأسرارها ، ولذلك صارت بئرا رهيبية ، لا يقترب منها الا الذين يمتلكون الشجاعة وقوة الاحتمال .

وكل المصاييح التى وضعت في هذه البئر لم تضيئها إضاءة كاملة ، فما زالت البئر رغم المصاييح الكثيرة التى فيها غامضة تحيط بها الأسرار وعلامات الاستفهام .

وكل الذين دخلوا بئر المعرفة عادوا إلينا يقولون : لا يمكن أن نصل إلى أعماقها !

الأنبياء الذين أنار الله قلوبهم على جبل ، أوفى حلم من الأحلام ، أوفى إشراقة من إشراقات الوحي قالوا : لا تجهدوا أنفسكم في معرفة

كل الأسرار فهذا طريق المعصية . . . أما إذا أردتم الطريق الصحيح ، فعليكم أن تؤمنوا بقلوبكم ومشاعركم .

واينشتين بعد أن اكتشف النسبية التي أدت إلى تفتيت الذرة قال :
ما أكثر الأسرار التي مازالت في الكون . . . وعندما نقرأ كتابه المعروف « العالم كما أراه » نحس أننا مع أحد الدارويش المتصوفين لا مع أحد العلماء الذين فتحوا أسرار الكون بمفتاح العقل .

وعشرات الفلاسفة جعلوا شعارهم كلمة واحدة هي : لا أدري .
والشعراء والأدباء يقدمون على مر التاريخ أحزانا ومشاعر منددة بالخوف والإحساس بصعوبة الحياة وغموض العالم . . . أكثر مما يقدمون لنا حلولاً أو طرقاً للخلاص .

وفي بئر المعرفة ضاع كثيرون . . . وتعذب كثيرون . . .
تولستوى : الكونت الإقطاعي ، القوى الصحة كأنه حصان ، كان في الخمسين من عمره سعيداً بزوجته الجميلة الحسنة ، وشهرته التي تملأ العالم ، وثروته الكبيرة التي لم تجعله يوماً يشعر بأى احتياج من أى نوع . . . فجأة أصيب بالحنين إلى بئر المعرفة المطلقة ، واستيقظ في منتصف ليلة من الليالي يتلوى ويقول : إنى أريد أن أعرف سر الحياة وهدفها الحقيقي ؟ وجرى تولستوى إلى بئر المعرفة فغرق فيها ، وانتهت إلى الأبد قصة هدوئه وطمأنينته .

وقال عنه بعض الناس : إنه قديس . . وقال آخرون : انه مجنون .

وقالت عنه زوجته : إنه ضحية حب لامرأة أخرى ..

وقال القيصر : هذا رجل خارج عن طاعتي .

أما هو فقد أحس بحنين عجيب إلى اكتشاف الأشياء المجهولة في هذه الحياة' ... ولم تكن الثروة تغنيه ، ولا زوجته الجميلة وأولاده يعطونه معنى حاسماً للحياة ، ولم تقدم له الشهرة إلا مزيداً من العذاب .

إنه يريد شيئاً أبعد وأشمل يريد شيئاً يفسر هذه الأسئلة الستة بوضوح :

لماذا أعيش ؟

ما سبب وجودي ووجود كل إنسان غيري ؟

ما سبب الخلاف الذي يوجد داخل بين الخير والشر ؟

كيف يجب أن أعيش ؟

ما الموت ؟ ..

كيف يمكنني أن أصل إلى النجاة ؟ ..

وقادته هذه الأسئلة الرئيسية إلى التفكير في العدل والظلم ، وفي عذاب الناس وحرمانهم .

لقد وقع في بئر المعرفة .. ثم أضاع بعض المصابيح مثل الدين والأخلاق والعدل الاجتماعي والحب .. ولكنها كلها « فرقت » في وجهه .. ولم تضيء له الطريق !

وبقيت له على صفحات التاريخ قيمة « المحاولة العظيمة » . كان شقيا . . . ولكن كان في الوقت نفسه يشعر بنوع خاص من الرضا عن حاله .

لقد خرج من عالم الاستقرار الوهمي الذي كان يعيش فيه ، وبدأ يحس بمشاكل الناس ويرى القبح الذي كان يملأ العالم ويشوّهه ، ووقف ينادى بتغيير العالم ، وجعله مكانا أرحب للعدل والحب والجمال .

لقد انتقل تولستوى بنفسه من مرحلة « السعادة » إلى مرحلة « العظمة » . . . ترك الحياة السعيدة الهادئة ، إلى حياة عظيمة ليس فيها هدوء .

ومعظم الثورات الإنسانية التي نشأت بعد ذلك في أوروبا أو في الشرق تأثرت في شكل من الأشكال بشخصية تولستوى العظيم ، لا بشخصية تولستوى السعيد .

وفي تاريخ الشرق قصة أخرى مشابهة ، خرج صاحبها من النعمة والهدوء ، إلى التعب والشقاء في سبيل المعرفة والحقيقة . وكانت المعرفة والحقيقة في نظره أيضا هما العدل والحب .

ذلك هو « بوذا » ، نبي الهند القديم ، كان أبوه من أكبر الأمراء الأثرياء ، وكان بوذا الابن الوحيد لأبيه ، وكان أيضا الوارث الوحيد لثروة أبيه الكبيرة .

وكلمة بوذا نفسها معناها « الذى يعرف » .

وعندما وصل بوذا إلى سن الشباب بدأ يتساءل عن المشاكل الكبرى في الحياة والمجتمع ، فهو يرى الفقر الشديد في بلده إلى جانب الغنى الشديد ، ثم يرى الموت والمرض والشيخوخة تفتك كلها بالبشرية . . . وكان بإمكانه طبعاً أن يجعل من ثرائه وسعاده سورا يفصله عن شقاء العالم ، كان من الممكن أن يجد سعاده الكامله لو لم يسمح لهذه الأسئلة عن « الشقاء الإنسانى » أن تضنيه وتقتحم عالمه . . . ووقف أبوه الأمير الثرى يلاحظ عوامل القلق والحيرة والحزن التى تتسرب إلى شخصية ابنه ، فحاول أن يغريه بشتى ألوان الإغراء لكى يثنيه عن العالم الجديد الذى بدأ يدخله . . . عالم المعرفة الإنسانية العميقة . . . عالم التساؤل والشك .

ولكن بوذا ترك كل شىء . . . ترك ثروة أبيه . . ترك زوجته الجميلة وابنه الطفل . . . وذهب ليغرق هو الآخر في بئر المعرفة ، وعاش في أحد الكهوف المظلمة الخشنة ، وأخذ يقرأ ويدرس . . . ثم خرج إلى الناس ليقول لهم حكمته ، وفهمه الجديد للسعادة . . .

« سعيد كل من رأى الحق ، وسعيد كل من خلت نفسه من سوء النية » . . .

« يجب أن نتصر على عوامل الفناء في الحياة : الموت والفقر والمرض والشيخوخة » .

واعتبر بوذا حياة أبيه الأمير « باطلة زائفة حمقاء مثل قصة يروها أبله » .

وجعل هدفه « أن يسعى لإراحة المتعبين ، وإسعاد المكروبين ، وانزال السكينة على قلوب الذين ناءوا بأعباء الحياة ، وتشجيع المستضعفين حينما يشرفون على فقد ثقتهم بأنفسهم » .

وكان يلبس أحشن الملابس ، ويعيش في أفقر الأماكن ويواجه أى ظلم يراه برأى صريح فيه ، ويهاجم بشدة الأسباب « الإنسانية » للتعاسة وهى الأسباب التى يخلقها الإنسان وليست الأسباب التى تخلقها الطبيعة أو المصادفة .

فالذين يعاملون الإنسان كأنه عبد ، والذين يبحثون عن الثروة ولو بطريق السرقة والظلم ، والذين يتفرجون على الإنسان وهو يتعذب كأنهم يشاهدون شيئاً مسلياً طريفاً !

كل هؤلاء يخلقون التعاسة ويبدون فى الدنيا بذور العذاب .
وهكذا . . ظل بوذا يعمل ويشقى . . . يقول الحكمة والحق ويرفض الحياة الناعمة اليسيرة . . . ويدفعه إحساس عميق أن يعيش فى بئر المعرفة دائماً ، ولو كان فى هذه البئر ظلام خفيف . . .

ولقد تعذب طيلة حياته ولكنه حمل الابتسامة إلى شفاه الكثيرين من التعساء ، والقوة إلى القلوب الضعيفة ، ورفع معنويات الذين أرهقتهم الدنيا وسحقتهم ظروف المجتمع .

★ ★ ★

هذان مثالان من التاريخ . . تحولت شعلة المعرفة عندهما إلى حريق كبير ، وخرج هذا الحريق إلى مسرح الحياة الواسعة فكان تأثيره كبيرا على حياة الناس .

وبالنسبة لتولستوى وبودا . . كان هذا الحريق مصدر عذاب شخصي ، ولم يستطيعا تجنب هذا العذاب أبدا . . ولم يستطيعا أن يرضيا بالسعادة الخاصة ، ولا بالقصور الكبيرة ، ولا بعدم الحاجة إلى الناس . .

بحثا وعرفا . . وكان الحنين يدفع بهما إلى أعماق بئر المعرفة بدون رحمة . . وكانا يغامران دائما ضد الظلام ، ولا يعبان بالتعب . .

ولم يكن كفاحهما بدون جدوى . . فتولستوى كان من أكبر الصرخات التي مهدت للثورات الاشتراكية المعاصرة . . وبودا هو واحد من أسبق الشرقيين الذين فتحوا قصور الأغنياء ، وقالوا للفقراء ادخلوا . . إن من حقكم أن تعيشوا . . وتسعدوا مثل الآخرين .

والذين يحملون في نفوسهم « شرارة » المعرفة ، وحنينا كبيرا إلى رفض الحياة الروتينية . . هم دائما الذين يرسمون للحياة مستواها الجميل ، رغم ما يلاقونه من التعب . .

فالفتاة الجميلة العذبة التي جذبتها بئر المعرفة . . فدخلتها بكل ما فيها من رقة وشفافية وبراعة . . إنها تبحث عن مستوى جديد لحياة المرأة . . .

تبحث عن معنى عميق للحب . . يسبق الزواج ويكون سببا له . . وتبحث عن دور لها في المجتمع أكثر من دور « ست البيت » . . تبحث عن أنواع أخرى من المتعة الراقية ، غير مجرد راحة البيت ، واستقرار الحياة ، وقد تكون هذه المتعة للجديدة : لحنا ، أو فكرة ، أو قصيدة شعر أو صداقة عميقة ، أو عملا جميلا تقوم به .

وسوف يزيدها شوقها إلى المعرفة حلاوة وعذوبة . . والوجه الجميل سوف يقترن بنفس جميلة تعرف ينابيع الصدق وتفهم الأشياء بعمق ونبل .

إن المعرفة قلق وألم . . ولكنها أرقى طريق إلى تعميق الحياة وتنويعها ، وتوسيع أفق الإنسان ، وخلق صلة واسعة بينه وبين العالم ، وإعطاء كل لحظة من الحياة طعما . . ومهما كان هذا الطعم فهو أفضل من لحظة تمر بلا طعم !

والذين يدخلون بئر المعرفة قد ينجحون أو يفشلون . . ولكنهم دائما يقومون باستغلال أعظم ما يملكه الإنسان : الفكر والعاطفة . والضائعون في بئر المعرفة مثل المتصرين . . كلهم « أبطال » إنهم يعملون لتجميل الحياة وجعلها عميقة وحلوة . . . محتملة ومعقولة .

المنصورة

كثيرا ما تحدثنا أنفسنا فى ملل . . إننا نفعل الشئ نفسه كل يوم . . . نخرج من بيوتنا فى الصباح ، ونذهب إلى العمل ، ونعود إلى بيوتنا مرة أخرى لتنفيذ بقية البرنامج اليومى الخالد الذى لا يتغير ، ونمر بنا الأيام فنكشف أن حياتنا نفسها ليست إلا تكرارا لحياة الآخرين ، هذه الحياة التى تدور فى دائرة تكاد تكون مغلقة هى : الميلاد والزواج والعمل والموت . . فكل شئ يعود دائما إلى ما كان عليه . . متكرر لا يتجدد ، روتينى لا مفاجأة فيه .

وقد تصور اليونان القدماء حياة الإنسان فى إحدى الأساطير حياة رتيبة خالية من أى شئ جديد . وتقول هذه الأسطورة إن كبير الآلهة غضب على « سيزيف » وحكم عليه حكما عجيبا . . حكم عليه أن يحمل صخرة من سفح جبل وينقلها إلى قمة الجبل على مائة مرحلة ،

وعندما تبغ الصخرة قمة الجبل تسقط من جديد إلى أسفل ليعود إلى نقيتها مرة أخرى ، وتكرر القصة كل يوم .

هذا هو العقاب الصارم الذى فرضته الآلهة على « سيزيف » : إن يظل يكافح من أجل غاية هى الوصول بصخرته إلى القمة ، ثم لا يكاد يصل إلى غايته حتى تتدحرج الصخرة ، فيعود إلى الكفاح من جديد . وبذلك يصبح كفاحه ألياً مريراً ، أولاً لأنه نافه بلا هدف ، وثانياً لأنه يتكرر ولا يتجدد .

وترمز هذه الأسطورة إلى أن حياة الإنسان بلا جدوى ولا معنى ، فسيزيف يرمز للكائن البشرى ، والصخرة ترمز للعمل والحياة اليومية التى نعيشها ونكررها دائماً .

وقد اتفق الفلاسفة على أن يسموا هذه المشكلة بمشكلة العبث ، مشكلة الإحساس بأن الحياة لا جدوى منها ولا معنى لها ، فكل شيء قد ينجدهنا ، ويدعونا إليه ، فإذا جربناه وجدناه سراباً لا ماء فيه ، وهما لا ظل له فى الواقع . . إن الصداقة والحب أو العمل قد تغرينا ، ولكن التجربة تثبت أنها أشياء خاوية لا تقضى على ما فى الحياة من تكرار ، بل على العكس تدخل تحت سلطان التكرار ، وتفقد أول بريق لها بعد قليل من التجربة .

هذا هو ما توحى به الأسطورة اليونانية : الإحساس بالعبث . . وقد عبر عن هذا الإحساس كثيرون من كبار الفنانين والمفكرين . هناك كاتب أوروبى هو « مارسيل بروست » شعر بأن الحياة الإنسانية

وهم وعبث ، وظل الإحساس بالعبث يطارده ويلح عليه ؛ فانسحب من حياة الناس وصنع لنفسه حجرة من الفلين ، واختار الفلين بالذات حتى لا يسمع صوتا يأتيه من الخارج . . حتى لا يسمع أى حركة أبدا . . حتى ينغزل نهائيا عن هذا الكائن الذى يصنع العبث ويعيش فيه . . الكائن البشرى .

وشكسبير كانت تؤرقه نفس المشكلة ، مشكلة « عبث الحياة » ، وفى مسرحيته الشهيرة « هاملت » يعبر شكسبير عن هذه المشكلة تعبيراً عتيفاً . . ولعل أبرز المواقف فى هذه المسرحية هو موقف حفار القبور ، الذى كان يقوم بعمله وهو يغنى ، كأنه يستعد لحفلة زفاف لا استقبال موتى ، وأخذ الحفار يمسك بالجهاجم الباقية من رءوس البشر كأنه يمسك بأحذية قديمة بالية يريد أن يتخلص منها . . ولكل جمجمة بالطبع قصة ، وتنتهى القصص مهما كانت مثيرة إلى التراب الذى لا يكاد يصلح « لسد ثغرة فى جدار قديم » .

فهذه جمجمة « كان فيها لسان يستطيع الغناء » وهذه جمجمة محام كبير . . « أين سفسطته الآن وتورياته ، وقضاياه وعقوده والأعيبه ؟ » وهذه جمجمة صاحب أراضى وأملاك ، وهامى « الجمجمة المحترمة تمتلئ بتراب محترم » .

ثم . . هذه جمجمة « يوريك » هذا الذى كان ممتلكا بالحياة والنشاط قد انتهى هذه النهاية .

يقول هاملت مخاطبا صديقه هوراشيو :

« هفى عليك يا يوريك ! كنت أعرفه يا هوراشيو ، رجلا لا حد لنكتته . ونيس نه مثيل فى براعته . لقد حملنى على ظهره ألف مرة ومرة . أما الآن . . حين أتخيل مصيره ، فما أبغض هذا الأمر إلى نفسى . . هنا كانت الشفتان اللتان قبلتهما ، لست أدرى كم مرة ، أين آراؤك اللاذعة يا يوريك الآن ؟ . أين قفزاتك الفرحانة وأغانيك ؟ أين لمعات فكاهتك التى كان يستلقى لها الناس على ظهورهم من الضحك ؟ » .

« أفلا يجوز للخيال أيضا أن يتعقب أثر الإسكندر وترابه النبيل إلى أن يلقاه سداداً لرجاجة خمر ؟ » ^(١) .

وهكذا يعبر شكسبير - على لسان هاملت - عن إحساسه العميق ببث الحياة ، وبأن كل شىء إنما ينتهى هذه النهاية . . التافهة السخيفة . . ويتحول إلى تراب فى تراب .

ولكن فيلسوف « العبث » فى هذا العصر وأشهر اسم ارتبط بهذه المشكلة وعبر عنها تعبيرا عميقا واسعا هو « ألير كامو » . . ولقد ظل كامو طيلة حياته الأدبية يعبر عن فكرة « العبث » ، ويكتب رواياته ومسرحياته ودراساته الفلسفية عن هذه الفكرة ، ثم التقط الأسطورة اليونانية القديمة . . أسطورة سيزيف ، وألف عنها كتابا كاملا .

وفى سنة ١٩٦٠ مات فيلسوف العبث ألير كامو وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، كان يقود عربة ، وانقلبت العربة به فمات وحده وعاش كل من كان فى العربة !

(١) هاملت - شكسبير - ترجمة جبرا إبراهيم جبرا .

والإنسان عند كامو غريب ضائع يعيش حياة كلها عبث ، وفي رواية شهيرة كتبها « كامو » في بداية حياته هي « الغريب » يذهب البطل إلى السينما يوم وفاة أمه ، ويستجيب في نفس اليوم لفتاة تدعوه إلى أن يصحبها للنزهة والحب ، ثم يقتل إنسانا لأنه وجد في يده خنجرا يلمع ، ومحكم عليه القاضى بالإعدام ، فلا يكافح من أجل تخفيف الحكم ، ولا من أجل الدفاع عن نفسه . . إنه يأخذ كل شيء بلا مبالاة ؛ لأن أى شيء لا يستحق المبالاة ، ورغم أن هذه الأحداث بالنسبة له أحداث هامة تزلزل حياته ، فهو ينظر إليها كأنها لا شيء : لا فرق بين موته وحياته ، لا فرق بين المشى في جنازة أو الذهاب إلى السينما .

ثم . . لا حب ولا صداقة ولا علاقات بشرية . . فكل هذه العلاقات - في نظره - لا تضيف شيئا ولا تعطى للحياة معنى .

هذا هو « إنسان » كامو الذى يثبت أن الحياة « عبثية » خالية من المعنى . . إنه نخلة وحيدة قائمة في فضاء واسع . . في صحراء . .



ولكن كامو يتطور ويناقش هذه المشكلة مناقشة أعمق ، ثم يتجاوز « الإحساس بالعبث » ، ويتنقل إلى نقطة مهمة أخرى .

فهو يؤمن بأن الحياة عبث مطلق ، وبأن الإنسان قد حكم عليه بأن يقوم بعمل تافه ، وأن يكرره كل يوم . . تماما مثل سيزيف : يحمل

الصخرة إلى قمة الجبل ولكنها ما تكاد تستقر قليلا حتى تتدحرج وتعود إلى الأرض .

ويقف كامو هنا ليسأل : هل معنى ذلك أن الانتحار هو الرد على هذا الإحساس بالعبث ؟ . . هل الطريق الصحيح هو أن نتخلص من الحياة ما دامت خالية من المعنى ؟ . . أليس من الأفضل ألا نحمل الصخرة إلى أعلى ما دام ذلك لا فائدة منه ؟

ويجب كامو عن هذه الأسئلة كلها « بأنه على العكس يجب أن نتقبل الحياة ونحملها ، ويجب أن نتخلص من الحزن الذي لا حد له » . يجب أن نتخلص من « ليلة رعبنا وعذابنا » . . وإذا كانت الحياة خالية من المعنى . . فيجب علينا نحن أن نعطيها معناها . . والطريق الصحيح هو الوعي ، فكلما ازداد وعينا ازداد احتمالنا للحياة . . .

« فالحقائق المؤلمة الساحقة تفنى عندما نعرفها ونعترف بها » . . . وما دمنا نعرف مصيرنا ونعترف به ، فإن ذلك سوف يؤدي بنا إلى الانتصار والارتفاع على الحزن وعلى الرغبة في التخلص من الحياة .

وكامو يرى أن سيزيف كان يبلغ قمة المأساة عندما يعرف مصيره ويدركه . . ولكنه في الوقت نفسه كان يسجل أعظم انتصاراته أيضا . . فعندما ينزل من الجبل ، ويعرف أنه سيعيد نفس العمل الشاق بلا هدف ولا جدوى . . ثم يقبل مع ذلك هذا المصير ويستمر في عمله فإنه في الحقيقة يكون بذلك قد قرر أن يكون إنسانا قويا ،

أن يجد في مجرد محاولة الصعود نوعاً من السعادة ، إنه « يصارع لكي يرتفع إلى أعلى » « ويكفيه هذا الصراع في حد ذاته » ليملاً قلبه « بالحماس والسعادة » .

إن المغزى الذى يقف عنده كامو هو أن العمل في حد ذاته سعادة ، بدون هدف معين أو نتيجة محددة ، وكلما ازدادت معرفتنا بعدم وجود نتيجة أو غاية ، فإننا في هذه اللحظة نحس العمل في ذاته ، وبدون سبب خارجي آخر . .

ولذلك فكاملو لا يحارب من أجل الوصول إلى غاية الحياة ؛ لأنه يائس من هذه القضية . . وهو يرفض تماماً أن يندفع نفسه بوهم من الأوهام ، ويرفض أن يكون سعيداً لمجرد أنه « جاهل لا يعرف ما يدور في الحياة » .

فالوعى والشوق إلى المعرفة هنا أهم ما يؤمن به كامو ، ولذلك فهو يحارب البلادة ، ويحارب التقاليد ، ويدعو إلى الاستقلال النفسى ، واستقلال الفكر .

ومهما كانت المأساة التى يعيشها الإنسان فعليه أن يرتفع فوقها بوعيه وشعوره ، بالاحتمال والفهم ، وكاملو يضرب لنا مثلاً آخر من الأدب العالمى . . إنه حكمة « أوديب » الملك في مسرحية « سوفوكليس » المعروفة . فأوديب يقع في مأساة فظيعة ، فيتزوج أمه دون أن يعلم ذلك . . وعندما يكتشف المأساة ، يوقع بنفسه العقاب على نفسه فيفقد أعينه ويسير في العالم . . عيناه تدمعان دماً . . وتقوده بنت

صغيرة . . هي أبتته وشقيقته في الوقت نفسه . ويظل سائحاً في العالم
هكذا .

وفي قمة العذاب بعد أن اكتشف « أوديب » كل شيء عن مأساته
يقول :

« بالرغم من كل هذه المأساة ، فإن تقدم سنى ونبل روحي
يجعلانني أنتهي إلى أن كل شيء حسن » .

وعندما يقول هذا الذي عانى أفزع ما يمكن أن يعانيه البشر : إن
كل شيء حسن . . فذلك بالنسبة لنا حكمة كبيرة ، ودافع لكي
نكتشف بين أعواد القش الصفراء زهرة تفوح برائحة جميلة . . وقد لا
نجد هذه الزهرة في العالم الخارجي . .

وعند ذلك يجب علينا أن نبحث عنها في أنفسنا وفي وعينا
وشعورنا ، بل ويجب علينا أن نصنعها أيضا .

وفي الطريق إلى الزهرة الضائعة سيكون معنا مصباح يضيء . هذا
المصباح هو حكمة الحياة وهي تعبر عن نفسها في كلمات « أوديب »
وتصرفات حامل الصخرة : سيزيف . . . تلك التصرفات التي تتسم
بالصبر والاحتمال .

والحكمة هي الإيمان بالعمل . . إنه أنشودة السعادة ؛ لأنه يملأ
لحظات حياتنا بالعمق ويجعلها صافية شفافة . . إنه سلاحنا القوي في
وجه « الروتين » و« التكرار » ، وكلما كان العمل قائماً على أساس من

السوعى والادراك كانت مقدرتنا كبيرة على أن نسعد بالحياة سعادة
داخلية عميقة ، وكانت مقدرتنا أوسع وأشمل فى التغلب على ما فى
الحياة الإنسانية من « عبث » و« عدم جدوى » .
وبذلك نتصر على الصخرة .

الحب لا يتكلم كثيرا

الإنسان الذى يتكلم كثيرا ، ويصافحنا فى عنف وحرارة ويؤيدنا ويحاملنا فى كل ما نقوله ، ويسأل عنا دائما بسبب ويدون سبب . . هذا الإنسان نسميه غالبا إنسانا عاطفيا .

ويحدث أن نتعرض لبعض التجارب القاسية . . تجارب من ذلك النوع الذى يكشف لنا معدن الناس ، ونلتفت حولنا ثم نكتشف شيئا عجيبا ، فالإنسان الذى يسحرنا بحرارته واندفاعه ، قد اختفى ونحن نصارع التجربة القاسية وخذنا ونمر بالأزمة العنيفة ، بل قد نكتشف ما هو أعجب من ذلك ، إذ يحدث أن تكون الأزمة التى نمر بها من صنع هؤلاء الذين ظهروا أمامنا دائما بمظهر العاطفيين المندفعين نحونا فى حرارة ودفع .

وهذا التناقض بين المظهر والسلوك يثير سؤالا هاما عن الإنسان العاطفى . . من هو؟ وكيف تعبر العاطفة الصحيحة عن نفسها؟

نقد تُثبت التجارب الإنسانية الكثيرة أن هؤلاء الذين يلجأون إلى زخرفة عواطفهم بالكلمات المثيرة ، والحماس الخارجى الحاد ، هم فى الحقيقة أبعد الناس عن العاطفة الصحيحة الصادقة ، فالعاطفة فى حد ذاتها جمال وزخرفة طبيعية للحياة ، وهى تعطى صاحبها اكتفاء وسعادة داخلية ، ثم تخلق فيه احتراماً لهذه العاطفة ، فلا يمكن أن يعثرها فى مناسبات مبتذلة ، بل ينتظر دائماً الفرص الحقيقية للتعبير عن عاطفته فى بساطة صادقة .

يروى نهرو فى قصة حياته حادثة كانت موضع تأمله الطويل « فقد أنشأ بعض الطلاب الهنود فى لندن فى بداية هذا القرن جمعية لهم ، وكانوا يناقشون فى هذه الجمعية السياسة الهندية بشكل بالغ التطرف . . كانوا دائماً متحمسين متطرفين » .

أما نهرو فكان قليلاً ما يتكلم فى هذه الجمعية ، ولذلك كان هؤلاء الطلاب المتحمسون يوجهون إليه اللوم دائماً بسبب صمته وعدم حماسه ، ثم مرت الأيام وعاد هؤلاء الطلاب ومعهم نهرو إلى الهند فاکتشف نهرو بعد ذلك شيئاً عجيباً .

يقول نهرو :

« لقد وجدت هؤلاء المتحمسين المتطرفين بالذات قد أصبحوا موظفى إدارة الانتداب الإنجليزية فى الهند ، ولم يلعبوا فى الحركات السياسية أى دور فعال ، أين راح سخطهم على الإنجليز ؟ ! أين

ذهب حماسهم العنيف ؟! . . كل هذا قد تبدد على المكاتب الفاخرة
التي أعدها الإنجليز لهم في الهند .

والذى لم يقله نهرو أنه - وهو الصامت الذى لم يكن يتكلم كثيرا -
قد دخل معركة الهند بكل قواه ، وتعرض للسجن وللأذى سنوات
طويلة ، وكان فى طليعة حركة الاستقلال الهندية الكبرى ، التى كان
قلبها غاندى ، وكان نهرو عقلها المفكر . . يشارك فيها ويقودها ويدفع
حياته ثمنا لانتصارها الكامل .

فالتحمسون الصاخبون الذين كانوا يضربون المناضد بأيديهم كانوا
فى الحقيقة هم أقل الناس عاطفة نحو الهند ، كانوا مثل الطبل يرتفع
صوته وهو من الداخل أجوف ، أما نهرو فكان يحمل عاطفة عميقة ،
وهى يسبب عمقها بسيطة لا تلجأ إلى الزخارف والمبالغات ، وقد
ظلت هذه العاطفة كامنة هادئة . . تنتظر الفرصة المناسبة لتظهر بقوتها
الحقيقية فى الظروف القاسية ، والتجارب الكبيرة .

أما العاطفة التى كان يعبر عنها هؤلاء الطلاب الهنود فقد كانت فى
الحقيقة صورة من « حب النفس » ، وقد اتخذت هذه العاطفة صورة
جذابة هى : « حب الوطن » . . وكل محاولاتهم المتحمسة كان
دافعها هو التظاهر ، وإبراز تفوقهم أمام الآخرين ، إنهم يريدون أن
يكونوا ذوى مظهر له تأثير وسحر ؛ حتى تعلق بذلك أسماؤهم ، وترتفع
أهميتهم الشخصية .

وهذا شأن كل عاطفة غير ناضجة .

أما العاطفة الناضجة الصادقة فإنها تتحرر من العناصر الدخيلة الزائفة . . حتى تصبح عاطفة سليمة ، وحتى تعبر عن نفسها تعبيراً مناسباً .

وأرقى مقياس للعاطفة الصادقة هو « ضبط النفس » . . حتى لا ينساق الإنسان مع أوهامه ، ومع مشاعره الأولى التي ينقصها النضج والتجربة ، حتى ولو كانت هذه المشاعر الأولى عنيفة ، فمن الأفضل أن يكون هذه المشاعر « لجام » يحد منها ؛ حتى تسير بقوة نحو هدف ، ولا تكون جاذبة عديمة الاتجاه تجرى في أى طريق .

فالاستسلام للعاطفة الزائفة - كما يقول أحد علماء النفس - « يحدث فينا انطباعات مزورة عن الأشياء الخارجية » . . . كما إن هذا الاستسلام هو نوع من « الخداع الذاتى » ، وهو إحدى درجات « الضعف العاطفى » . . فصاحب العاطفة القوية الثابتة التي لا يصيبها تبدل تغير سريعان لا يلجأ أبداً إلى المبالغات أو يهتم بها . . إنما يفعل ذلك صاحب العاطفة الضعيفة ، إنه يلجأ إلى الزخارف والمبالغات والطقوس الكثيرة التي تخلو من البساطة والوداعة ، والبساطة والوداعة هما في آخر الأمر علامتان للعاطفة الصادقة الناضجة .

وهذا هو السبب الذى يجعلنا نرى هؤلاء الذين يعبرون عن عواطفهم بعنف وهم يسلكون سلوكاً مناقضاً لعواطفهم الظاهرة التي أعلنوها من قبل ، وذلك عندما يتعرضون لتجربة عميقة صعبة .

إن الإنسان في هذه الحالة يكون شبيها بالوجه القبيح الذى أخفى
نقصه بالروح والمساحيق والعطور . . ثم عندما تذوب هذه الوسائل
المصطنعة يبدو الوجه على حقيقته خاليا من الجمال والوسامة .



عندما نفتح للصفحة الأولى من الرواية الرائعة « الساعة الخامسة
والعشرون » التى كتبها الكاتب الرومانى « كونستنتان جيورجيو »
نجد البطل وهو يتهيأ لسفر بعيد ، ورحلة طويلة ، ويخفق قلب حبيبته
البسيطة التى تشعر نحوه بعاطفة عميقة كبيرة وهى لا تستطيع أن تقاوم
قرار رحلته بعيدا عنها ، رغم أن حياتها بدونها لا معنى لها ، ولا
طعم . . إنه بالنسبة لها جمال الحياة وعذوبة الدنيا وروعة الطبيعة .

وترجو البطلة حبيبها أن ينتظر قليلا . . إنها تريد أن تحدثه فى أمر
هام قبل أن يرحل ، وبعد تردد يستجيب البطل ، ويجلس على
العشب ، ثم يسترخى قليلا ويستعد لسماع الكلمات الهامة التى تريد
أن تقولها له . . وتبدأ هذه الحبيبة البسيطة الصادقة فى الحديث . . فما
الشيء الذى تريد أن تقوله ؟ إنها تبتسم فى وداعة حزينة ثم تقول وهى
تعبث بشعر رأسه :

« إن السماء صافية والنجوم جميلة » . . وتواصل حديثا من هذا
النوع الذى يشبه الثثرة التى لا قيمة لها . . إنها لم تقل له : أحبك ،
ولم تحدثه عن رحلته الطويلة البعيدة الخطيرة التى ربما لا يعود منها

أبدا . ولم تحدثه عن رأيه في مستقبلها . . وماذا تفعل بعده . . ولم
تطلب منه أن يعدل عن رحلته . . ولم تذرف دمعة .

كل ما قالته هو نثره بسيطة تريد بها أن تقضى معه لحظة ، ومن
خلال هذه الثثرة المفاجئة نشعر نحن كم تحبه بدون أن تقول كلمة
حب . .

إن أقصى ما تتمناه هو أن تقضى معه لحظة أخرى . . مجرد لحظة
تملؤها بأى شىء ، فهذه اللحظة التى لا أهمية لها من الناحية الزمنية
لها أهمية عميقة من الناحية النفسية . . إنها لحظة ثمينة غالية .

ويرحل الحبيب بعدها . . وتشعر هى كأنها حققت شيئا ، كأنها
امتلكت شيئا .

هذه هى العاطفة العميقة . . تعبر عن نفسها ببساطة وبدون
صخب أو ضجيج وبأبسط الصور .

وما ينطبق على عاطفة الفرد ، ينطبق أيضا على عاطفة الجماعة .

وهناك فكرة شائعة هى أننا شعب عاطفى يتميز فيه الإنسان
بالحرارة والانفعال الشديد .

وقد لاحظت الباحثة « سنية حمادى » فى كتابها عن « المزاج العربى
والشخصية العربية » كثرة الطقوس الاجتماعية العنيفة التى تعبر عن
عواطفنا الخاصة فى الريف ، فهناك مثلا لا بد أن يمر « جهاز »

العروس بالقرية كلها ليراه جميع الناس . تحمل الفتيات أجزاء هذا الجهاز ويمشين في طابور طويل .

هنا يتضح أن عاطفة الفرح تعبر عن نفسها بمظهر اجتماعي واضح . . أى أن « المظهر الاجتماعي » يسبق ويفوق « المظهر النفسى » الإنسانى الذى يتصل بنفسية العروسين وحدهما ، وهذا المظهر الاجتماعى « للفرح » هو مظهر صاحب لا علاقة له بالشعور العميق الذى يستقر داخل الإنسان ويدفئ قلبه ومشاعره .

وتلك هى القاعدة الشائعة للعواطف فى كثير من البيئات المتخلفة ، فالطقوس الخارجية أهم من المشاعر الداخلية الهادئة . أهم من العاطفة الذاتية التى يشعر بها الإنسان وحده ، أو مع عدد قليل من الناس هم الذين يقتربون من قلبه وأحاسيسه العميقة .

فالاحتفال بميلاد طفل يأخذ مظهرها اجتماعيا .

والموت يتحول الحزن فيه أيضا إلى ظاهرة اجتماعية . . وفى البيئات الريفية تبرز ظاهرة « الندب » الذى تقوم به سيدة تحترف البكاء على الراحل - أى راحل - وإعلان فضائله .

ومن مظاهر هذه التزعة العاطفية أيضا الانفعال السريع ، سواء كان هذا الانفعال غضبا أو سرورا . وكثيرا ما تؤدي كلمات بسيطة - فى هذه البيئات - إلى مشاكل كبيرة عنيفة . كلمة قد تؤدي إلى معركة تنتهى بالقتل ! . . وكلمة أخرى قد تفصل بين صديقين مدى العمر !! .

وذلك كله بسبب التركيز الشديد على النفس ، واعتبار أى مناقشة أو تعليق خارجى هجوما على « الذات » يستحق الاستعداد للدفاع ، والانفعال بهذه الطريقة يرجع إلى ضيق البيئة وقسوة الحياة ، فليس هناك أمام الإنسان تلك الوسائل التى تجعل صلته بالعالم عميقة ، وإحساسه بالناس والوجود رحيبا ، وتزيل التأثير السريع العنيف بالأشياء العرضية السطحية . . وهذه الوسائل هى الثقافة بشتى فروعها ، والتجربة الراسعة ، ثم رحابة الحياة واتساعها .

وفى البيئات الزراعية تبرز هذه العاطفة بعنف ، فالإنسان فيها لم يتعود تلك الصفة الأساسية للعاطفة الناضجة ، وهى « ضبط النفس » .

وهذه البيئات نتيجة لضيقها وبساطتها واستقرارها الدائم ، وعدم وجود فرصة واسعة للتجدد والابتكار فيها ، قد وسعت من سلطان تلك النزعة التى ينقصها النضج ، وأدت هذه النزعة إلى تأخر النظرة العلمية التى لم تظهر عندنا بصورة قوية إلا أخيرا ، ففى الماضى كنا نميل دائما إلى التفسير العاطفى للوجود ، ولا نبذل جهدا فكريا يخرجنا من سلطان الدهشة والإعجاب إلى نطاق التفسير والتفكير .

هذا هو ميراثنا العاطفى القديم . . عاطفة زائدة غير ناضجة ولا مترنة ، تنزع للحياة فى المظاهر الاجتماعية أكثر مما تعيش فى نفس الفرد نقية شفافة ، وتعتمد على الزخارف الكثيرة فى الكلمات والتصرفات ، ولا تعتمد على الشعور الشخصى الذى تحس به نفس الإنسان عن

اقتناع وصدق ، كما أنها ترتكب أى خطأ . . . وتلفه فى ستار حريرى
اسمه : العاطفة .

وقد بدأت حياتنا تتجه نحو نوع آخر من العاطفة أرقى وأنضج . .
نوع مختلف تماما عن ميراثنا العاطفى القديم .

فقد تسللت الآلة إلينا ، وبدأ المصنع ينافس الحقل ، وظهر إنسان
جديد فى بلادنا له مواعيد منتظمة ، وعمل متخصص ، وعلاقات
اجتماعية لها نظامها أيضا . كذلك بدأت الثقافة تنتشر وتدخل إلى
بيئات جديدة عن طريق الكتاب والجريدة والراديو والتليفزيون .

وكل هذا سيؤدى إلى تنظيم « الدورة النفسية » للمجتمع ، ويرتفع
به إلى مستوى العاطفة العميقة الأصيلة ، لا العاطفة الكاذبة
المتحمسة الصاخبة التى لا تصمد أمام تجربة الحياة .

إن العاطفة الناضجة بالنسبة للفرد والمجتمع هى التى تتركز فى قول
الأمريكى « ثورو » : « اختصر . . اختصر . . فالإنسان يجب أن
يعيش حياة بسيطة وعالية الهدف فى الوقت نفسه » . . فأصحاب
العاطفة الكبيرة هم فى الوقت نفسه أصحاب العاطفة البسيطة . . هم
الذين يراقبون مشاعرهم فلا يقولون كل ما يحسون به ، بل يقولون
أجمل وأهم ما يحسون به فى أبسط صورة . . كلماتهم قليلة ولكنها
غنية . . سهلة وعميقة .

فالسلك الإنسانى ، والعلاقات بين الناس . . كالحب والصدقة
وكذلك الفن باعتباره تعبيرا عن العاطفة . . كل هذه الأشياء تخصه

تعد عدة واحدة حتى تكون راقية ، هي قاعدة « ضبط النفس » .
ويجب أن تتخلص كلها من المبالغة والزخارف ، وتنتقل من الصوت
المرتفع وكثرة الكلام والثثرة إلى الهمس والعزف النقي الذي يختار
الموسيقار نغماته بأناقه ورقة وعمق .

بهذه الطريقة نصبح عاطفيين حقا .

أبى .. إنى أكرهك

بدأ يبكى بصوت خفيف ، ثم ارتفع صوته شيئا فشيئا حتى ملأ
جوانب الحجر ، وأصبح بكاءه أشبه بالصراخ أو بالعويل .. ولم
يكتف الطفل الصغير بدموعه وصوته المرتفع ، بل أخذ يدب في أرض
الحجرة بقدمه ، ويضرب الحائط بقبضة يده الرقيقة الصغيرة .. وفي
الحجرة كان الأب والأم يوشكان على النوم ، وكان الليل قد انقضى
ثلثه الأول ، وحن الموعد الذى تعود الأب أن ينام فيه ، كان هذا
الأب واحدا من ذلك النوع من الرجال الذين يفرضون إرادتهم على
أفراد البيت .. إنه قوى الشخصية حاسم الكلمة ، لا يحب معارضة
الآخرين ولا يقبلها ، أما عاداته فثابتة راسخة ، وعلى الجميع أن
يقبلوها وأن يحاولوا التلاؤم معها ... وعلى العكس من ذلك كانت
الأم ، إنها رقيقة عاطفية مطيعة لزوجها لا تعارضه على الإطلاق ،
وهى تدلل أبنائها ، وتداعبهم كثيرا إذا ما كان الوالد بعيدا عن

نبيت . أما في حضوره فلا كلمة إلا ما يقول ، ولا صوت أعلى من صوته . . . إنها تنسى شخصيتها لتكون مطيعة لذلك الأب ، منفذة لأوامره .

واشتد بكاء الطفل فقام أبوه إليه ، وسأله في شدة وحزم :

- ماذا تريد ؟
- لا شيء . . .
- إذن لماذا تبكي ؟
- أريد أن أشرب .

وقدم له الأب كوبا من الماء . ولكن الطفل لم يكف عن البكاء . . أخذته والده ووضعه في سريره ، وطلب منه في كلمات قاسية أن ينام ، ولكن الطفل استمر في بكائه وصراخه . . وعاد إليه الأب ولم يتكلم هذه المرة . . وإنما أخرج الطفل من سريره وحمله إلى الشرفة حيث تركه بعض الوقت وحيدا ، وليس على جسده الا رداء رقيق ، وأغلق باب الشرفة . . تاركا ذلك الطفل بين الفزع والظلام والإحساس الغامر بالقسوة . . أما الأم فقد وقفت موقفا سلبيا . . لم تعترض ولم تقاوم . . ولم تستطع أن تنتزع الطفل من يد أبيه ، بل لم تفكر أن تعبر عن سخطها على تصرف الأب .

امتلأت نفس الطفل بالرعب ، وكف عن البكاء ، ووقف في شبه ذهول ، وقف في ظلام الشرفة فترة من الوقت ربما كانت قصيرة ، ولكنها كانت بالنسبة إليه طويلة قاسية .

وكبر الطفل وأصبح شابا معروفا بشخصيته الخاصة ، وميونه المتميزة . . كان اسمه « فرانز كافكا » . . وأصبح « فرانز » بعد ذلك أديبا وكاتبا كبيرا . . لقد تقلبت عليه الأحداث بعد ذلك ، وحلته الأيام إلى مراحل جديدة من العمر غير مرحلة الطفولة . ولكنه لم ينس أبدا ذلك الحادث الذى وقع له فى طفولته .

ربما لو وقع هذا الحادث لطفل غير هذا الطفل ، ومن أب غير هذا الأب ، لكانت الأيام قد استطاعت أن تمحوه ، وأن تجعل منه ذكرى طريفة من ذكريات الوعى الأول بالحياة . .

ولكن الحادث الصغير كان جزءا دالا من سلوك الأب وشخصيته العامة ، ولم يتغير هذا الأب عندما تغير أبنائه وتقدمت بهم السن وأصبحوا فى مرحلة الوعى الذاتى المستقل ، بل ظل يتبع نفس السلوك ، ويعامل أولاده وعلى رأسهم « فرانز » نفس المعاملة القاسية التى لا تعرف اللين ، ولا تعرف الحنان ، والتى تدل على شخصية واثقة بنفسها ثقة سدت عليها منافذ الإيمان بالآخرين . . فليس هناك فى نظر هذا الأب من يدرك الأمور إدراكا صحيحا إلا هو ، وليس هناك من سلوك صائب إلا سلوكه ، وليست الحياة كما يفهمها أولاده ومحبتونها ، ولكنها كما يفهمها هو ، وكما يشعر بها !! . . فإذا اختلف معه أو اختلف عنه واحد من أبنائه ، فإن هذا « الاختلاف » ليس له معنى إلا الخطأ وسوء التقدير والشعور . . وكانت شخصية الوالد مدعمة بعدة عناصر . . فهو تاجر يهودى ، بدأ حياته من السفح ،

ثم أصبح - باجتهاده ومثابرته وقسوته على نفسه - تاجرا ناجحا غنيا ،
ولم يكن ضعيف البنية ، بل كان قوى الجسم ، ممتد القامة ، عريض
النصدر . . وكان تفوقه الجسماني واضحا إلى أبعد الحدود ، ومن هذه
العناصر ، وعلى رأسها الثراء وقوة الجسم اكتسب الأب ثقة كبيرة
بنفسه ، وأصبح يرى في شخصه مثلا أعلى ينبغي أن يحتذيه الأبناء .

كان هذا الأب يقول لأبنائه :

- « إنكم تعيشون حياة جميلة أكثر مما يجب » .

ثم يعقب على ذلك قائلا :

- « حين كنت في السابعة من عمري كنت أنتقل من قرية إلى قرية
دافعا أمامي عربتي الصغيرة ، كنا ننام جميعا في حجرة واحدة .
وكانت تملؤني السعادة حين نعثر على البطاطس لتتغشى . . كنت
ألبس في زمهرير البرد ملابس ممزقة ، حتى إن القروح التي
أصابت أطرافي ظلت سنوات طويلة لا تلتئم . . . كان يتعين على بعد
أن صرت صبيا أن أذهب لأعمل في أحد المحلات التجارية . . لم
يكن أهلي يعطونني شيئا من النقود ، بل إنني كنت أرسل إليهم ما
يحتاجون إليه منها بعد أن التحقت بالجيش . . ولكن من يدرك هذه
الحقيقة في هذه الأيام ؟ هل يستطيع أبناء اليوم أن يفهموا ذلك » ^(١)

(١) كافكا - تأليف كامل زهيرى وآخرين .

بهذه الطريقة كان الأب « هيرمان كافكا » يتحدث إلى أولاده . .
انه معتز بنفسه ، فخور بها ، يحس بالدهشة لضعف شخصية أولاده
وعجزهم عن بلوغ ما بلغه هو من تقدم ومن تفوق في مجال الحياة
العملية .

ولكن « فرانز » الابن خرج إلى الحياة أديبا فنانا ، ولم تكن علاقته
بالأدب والفن عن طريق القراءة والكتابة فحسب ، بل كانت إحساسا
عميقا مسيطرا على شخصيته كلها . . . لقد كان يعالج كل أمور حياته
بتلك الحساسية المرفهة الدقيقة الذكية في الوقت نفسه ، واستطاع عن
هذا الطريق أن يصل إلى مستوى كبير رائع من الفن ، فأصبحت
رواياته وقصصه القصيرة من أروع ما أنتجه القلب البشري في القرن
العشرين ، وأصبح فن كافكا شاهدا من أبرز الشواهد وأصدقها على
ما يعانيه الإنسان الحديث من تمزقات وآلام ومأس عديدة . وينظر
النقاد إلى أدب كافكا على أنه مثال حتى لما يسمى « بالأدب الأسود »
أى أدب التشاؤم والحزن ، أدب الكآبة والأسى . . على أن أحزان
كافكا ليست نابعة من السطح ، وليست نابعة من الآلام العادية
القرية ، وليست نابعة من العجز . . ولكنها أحزان عميقة قادرة ،
تمزق الستار الخادع الذى كانت الحياة تضعه على نفسها أمام الناس
في القرن العشرين ، فإذا ما ظهر فنان قادر حساس . . استطاع أن
يمزق ذلك الستار واستطاع أن يقول : إن حياة أوروبا في النصف
الأول من القرن العشرين هي حياة تمزق . . هي مأساة .

هذا الفنان الذكى الحساس ، لم يندع نفسه لحظة بوهم ؛ ولذلك فقد واجه الفشل بعد الفشل فى كثير من مشروعات حياته ، وانتهى به الأمر إلى أن مرض بالسل حيث مات فى سن الواحدة والأربعين فى سنة ١٩٢٤ . . وكانت هناك ثلاث قضايا رئيسية فى حياته ، الأولى هى قضية الحياة فى ألمانيا فى مطلع القرن العشرين ، لقد كانت حياة مريرة ، يسيطر عليها التنافس الفردى ، وليس فى قلوب الناس نحو بعضهم البعض أى نوع من التعاطف أو الحنان . . الناس كالسمك يأكل الكبير الصغير ، ويأتى القادر على الضعيف ، وليس هناك حدود للثراء ، وليس هناك حدود للفقير . . . تستطيع أن تصبح صاحب ملايين بأى طريقة من الطرق ، سواء أكانت عليها علامة الشرف ، أو كانت خالية من هذه العلامة . . وينتج عن هذا بالطبع نوع قاس مر من أنواع الحياة ، ولا يمكن أن تستريح الحساسية المفرطة الذكية لهذه القسوة ، ولهذا الصراع الخالى من الجانب الإنسانى المتناسق السليم . هذه هى القضية الأولى فى حياة « كافكا » . . .

أما القضية الثانية فهى قضية حبه . فقد خطب فتاة بعد حب فى سنة ١٩١٤ . . وبعد فترة قليلة تمزق حبه . .

ويمكننا أن نتصور تلك الهوة التى حدثت بينه وبين حبيبته وخطيبته . . لا شك أن الاختلاف بينهما كان أساسيا ، هو يفكر فى كل شئ ويشعر بكل شئ . . وكان كل شئ على غير ما ترتضيه الفطرة الإنسانية الحساسة السليمة فى مثل ذلك المجتمع الألمانى الذى كان يعيش فيه « كافكا » . . . ولكن ماذا يعنى الفتاة من كل هذا ؟ .

إن كافكا في نظرها عام ، وكاتب ، وهو ابن لرجل غنى صاحب ثروة كبيرة واسعة ، فيم يعينها إذا عاشت هي سعيدة ألا يكون الناس سعداء ؟ . . . ماذا يهملها من آلام الدنيا إذا كانت هذه الآلام لا تستطيع أن تبني لنفسها عشا في سماء حياتها ؟ إنها تفكر في نفسها وفي خطيئها وحسب ، أما هو فيفكر فيها هو أبعد ، إنه يرى الدنيا تحت « ميكروسكوب » حساسيته ، فيرى كل شيء . . . ويراها حزينا قاسيا فيفكر ويتأمل ويأسى . . . وتكون النهاية بالطبع أن « يفشل » حبه . . . وتركه خطيئته إلى حيث تجد كوخا فيه طمأنينة ، وليس فيه ذلك القلق المخيف العنيد ، ومرة ثانية يحاول أن يتزوج ، ويجد حبا جديدا ، ولكنه سرعان ما يفشل ، وعند فشله الثاني يكتشف أنه مريض بالسل .

فقضية « الحب الفاشل » قضية رئيسية هامة في حياة هذا الفنان . .

وتبقى قضية ثالثة ، هامة وأساسية ، هي « علاقته بوالده » . . تلك العلاقة السيئة المريعة التي خلدها كافكا في رسالة كتبها ذات يوم إلى أبيه . . وسلمها لوالدته الرقيقة النبيلة لتعطيها لهذا الوالد القاسي المعتز بنفسه . . ولكن الأم أخفتها حتى مات الأب ومات الابن أيضا ، وذهب صديق الفنان ورفيقه الناشر المثقف « ماكس برود » ليجمع أوراقه ، ويقرأ وصيته . وقد وجد الرسالة في هذه الأوراق فنشرها ، وكانت طويلة كبيرة في حجم كتاب صغير . . أما الوصية التي تركها كافكا قبل أن يموت لصديقه « ماكس برود » فهي أن يحرق

كتبه كلها ، وبحرق أوراقه جميعا ؛ فليس فيها فائدة ولا نفع ، وليس لها قيمة في نظره . . . ولم ينفذ « ماكس » وصية صديقه الراحل ، بل كان أحرص الناس على نشر إنتاج كافكا وتقديمه إلى مسرح الثقافة الأوروبية بل والثقافة العالمية ، حيث اختل كافكا مكانا كبيرا في الأدب الحديث . . وخصوصا بعد وفاته .

إن رسالة كافكا إلى والده هي درس كبير من دروس الحياة الإنسانية . إنها موجهة في الظاهر إلى والد « كافكا » ولكنها في حقيقتها موجهة إلى كل والد ، ولو قرأها الآباء لتعلموا الكثير عن فن الأبوة ، وعرفوا إلى أى حد يمكن أن يكونوا في حياة أبنائهم شيئا جميلا رائعا في بعض الأحيان وشيئا قاسيا مؤلما في أحيان أخرى .

فدور الأب في حياة الإنسان يبدأ منذ اللحظات الأولى لخطواته في طريق الحياة ، بل إن أول « عالم » يلقاه الإنسان هو « عالم الأب » ، فإذا كانت الأم هي مصدر بقاء الابن ، لأنها تغذيه وترعاه وتساعد على النمو والاستمرار ، فإن الأب هو الواسطة بين الابن والمجتمع ، إن الأب هو الذى يمثل العالم الخارجى ، فتصرفاته وسلوكه ومعاملته لأبنائه هي الخطوط الأولى والأساسية التى تعطيهم « فكرة الحياة » . .

وعلى قدر نضج الأب وسلامة شخصيته تتحدد شخصية الابن في المستقبل ، ونموذج والد « كافكا » نموذج شائع معروف في شتى المجتمعات .

ولنعد إلى رسالة كافكا لنرى ذلك الفنان العظيم مع والده ، إنه يبدأ الرسالة بقوله :

« منذ عهد غير بعيد سألتني عما يخفى منك ، فلم أدر كعادتي معك بم أجيب ، ويرجع ذلك من ناحية إلى ذلك الخوف الذي يملك على نفسى إزاءك ، وإلى أن دوافع هذا الخوف كثيرة ومتعددة يصعب الكلام عنها في دقة وتفصيل »^(١) . . .

هذه العبارة في رسالة كافكا تعنى أن العلاقة بينه وبين والده إنما تقوم على الخوف . . خوف الابن . . وهذا هو الأساس الأول الذي أدى بعد ذلك إلى عدد من النتائج على جانب كبير من الخطورة . وهو من ناحية أخرى نتيجة لسلوك الأب وشخصيته الخاصة . فالأب لا يحاول أن يفهم نفسية الطفل فهما صحيحا ، بل يعامله كما لو كان ندا له . . والمثال على ذلك تلك القصة التي روينها في أول هذا المقال ، عندما أراد « كافكا » وهو طفل أن يشرب ويكى وصرخ ، وكان عقابه أن وضعه أبوه في الشرفة ، وسط الظلام والبرد ، دون رحمة أو حنان . . ولنسمع كافكا يقول عن تلك الحادثة في رسالته إلى أبيه :

« . . من المؤكد أن العطش لم يكن الدافع الوحيد للبكاء ، ولكننى كنت أبكى لكى أثيرك من ناحية ، ولكى أتسلى من ناحية أخرى ، ولما لم تفلح تهديداتك العنيفة المتكررة فى إسكاتى أخرجتنى من

(١) نص الرسالة مترجم بالكامل فى كتاب كافكا بقلم كامل زهيرى وآخرين .

سريرى ، وملتنى إلى الشرفة حيث تركتنى بعض الوقت وحيدا وليس على جسدى إلا رداء رقيق ، وأغلقت باب الشرفة دونى .

هذا هو الطفل الحقيقى . . إنه يبكى أحيانا للإثارة ، وأحيانا للتسلية . . إنه يريد أن يثير انتباه الأب ، يريد أن يشعر بوجوده ، وبشخصيته من خلال اهتمام الآخرين به

وهذا حق من حقوق الطفل ، بل وجزء من الطبيعة البشرية السليمة فى تلك المرحلة من العمر . وعلى الأب أن يقدرها تمام التقدير ، ويعالجها بطريقة سليمة . . أما إذا عالجها على أن الطفل يبكى بدون سبب معقول ، فإن النتيجة ستكون أن يقف منه موقف العقاب ، وقد يشتد هذا العقاب فيؤدى إلى آثار سيئة ضارة .

ما تلك الآثار السيئة الضارة ؟

إن كافكا يجيب عن ذلك فى رسالته :

« لقد كان ذلك كافيا ولا ريب لكى يجعل منى مخلوقا مطيعا فى الظاهر ، وإن كان قد سبب ضررا آخر خفيا ، فلم يكن ذهنى فى ذلك الوقت يستطيع أن يدرك العلاقة بين طلبى للماء بدون مبرر ، وإخراجى إلى الشرفة ، والأمر الأول كان يبدو طبيعيا جدا فى نظرى ، ولكن الثانى كان مريعا وخيفيا ولا شك ، ولقد ظللت سنين طويلة أتألم فى مرارة كلما تذكرت كيف أن ذلك الرجل الجبار ، الذى هو أبى ، وهو الملاذ الأخير لى ، كان يستطيع أن يخرجنى من السرير بدون مبرر

قوى أثناء الليل ليركنى فى الشرفة ، مدللا بذلك على تفاهتى وضالة
شأنى !! .

« بيد أن هذا الشعور بالتفاهة الذى كان متواضعا فى أول الأمر
والذى كنت أستمدّه من تأثيرك على ، استفحل خطره فيما بعد ، حتى
سيطر تماما على شخصيتى » .

إن فهم نفسية الطفل مسألة هامة إلى أبعد حد ، وإذا كان ذلك
مطلوبا من المتصلين بالطفل فهو مطلوب على وجه
الخصوص من الأب . . إنه واجبه الأول ومسئوليته الكبيرة . . والنقطة
التي يشير إليها كافكا فى الفقرة السابقة من الرسالة ، وهى عدم الثقة
بالنفس والإحساس الذاتى بأن الإنسان لا قيمة له ولا أهمية . . هذا
النوع من الشعور بالتفاهة هو أمر مدمر قاتل ، قد يؤدى إلى انهيار
الشخصية تماما ، وهو يؤدى أحيانا إلى نوع مرير من التمزق والقلق ،
مثل ذلك الذى سيطر على كافكا وأدى فى النهاية إلى مرضه بالسل ،
ثم إلى وفاته فى سن الحادية والأربعين . وفى بعض الأحيان يصبح
انعدام الثقة بالنفس مفيدا ؛ لأنه يدفع إلى العمل والاجتهاد رغبة فى
تعويض النقص الموجود داخل الشخصية ، ولكن ذلك لا يتحقق إذا
كان الشعور بانعدام الثقة غائرا وعميقا فى النفس إلى الحد الذى يشل
قدرة الإنسان على العمل .

إن قدرا محدودا معقولا من هذا الشعور هو وحده الذى يفيد الحياة
الإنسانية السليمة ، أما الإسراف فيه فدمار ، أو طريق إلى الدمار .

وربما ترجع مسئولية هذا الشعور إلى الظروف أو التجارب . .
ولكن مرجعها الأساسى فى حياة الإنسان هو : شخصية الأب ، ومن
هنا كان واجب الآباء كبيرا . .

إن عليهم أن يفكروا كثيرا فى علاقاتهم بأبنائهم . وأن يتخلوا عن
جعل الأبناء حقلا للتجربة ، أو مجالا لتعويض ما ينقصهم فى
حياتهم . . كأن يتحول الأب المستضعف فى المجتمع إلى ديكتاتور مع
أبنائه . . إنه تعويض مريض . . أما التعويض السليم فهو أن يلتمس
الأب قوته فى تقوية أبنائه ومساعدتهم على الحياة الطبيعية .

ونقطة أخرى على درجة كبيرة من الأهمية يثيرها « كافكا » فى رسالته
إلى أبيه ، يقول الكاتب الفنان :

« لقد كان محروما علينا نحن أن نمتص العظام ، أما أنت فكنت
تفعل ذلك ، ولقد كان محروما علينا نحن أيضا أن نلعق الخلل ، أما
أنت فكنت تلعبه ، كنت ترى أنه يجب تقطيع الخبز قطاعا متساوية
نظيفة ، ولكنك لم تكن تتورع عن تقطيعه بسكين ملوث بالصلصة ،
كنت تحذرنا من أن يقع الفتات منا على الأرض ، ولكن عقب الطعام
كنا نرى كثيرا من الفتات المتناثر حيث كنت تجلس ، كنت تقول إن
المرء يجب أن يتفرغ على المائدة للأكل فقط ، ولكنك كنت تنظف
أظافرك وتقليمها ، وتبرى الأقلام ، وتنظف أذنيك بالخلال التى
تستخدم لتنظيف الأسنان بعد الأكل » .

إن كافكا يؤكد هنا خطورة التناقض بين القول والفعل .

وإذا كان هذا المبدأ سليماً في كل الأمور ، فهو أكثر سلامة في ميدان الأبوة ، فالأب هو المدرسة الأولى والكبرى التي يتعلم فيها الابن ، وقد لا يتمكن الابن من أن يكتشف التناقض بين القول والعمل في حياة أستاذه ، أو في حياة زميله ، أو جاره . . ولكنه سيتمكن حتماً من كشف هذا التناقض في حياة والده ؛ لأنه يعيش مع والده وقتاً طويلاً ، وفي ظروف تمكنه من أن يعرف إذا كان أبوه صادقاً فيما يقوله ، أم أن أقواله ليست إلا مجرد ادعاءات .

لقد مات كافكا حزينا متألماً ، مات بعد أن عاش حياة مريرة تعيسة . . لم يهنأ فيها بعالم سليم ، ولم يهنأ فيها بأب يتعاطف معه ويحترمه . وبعد أن مات كافكا بسنوات جاء « هتلر » إلى الحكم فقرر أن يحرق كتب كافكا ويصادرهما ، ونفذ هذا الأمر بالفعل ، وكان السبب الحقيقي هو أن كافكا يصور « الظلام النفسى » الذى يمزق الناس ، وكان هذا التصوير هو التعبير الحقيقى عن واقع الناس فى ألمانيا قبل أيام هتلر وفى أيامه أيضاً . أما السبب الظاهر : فهو أن كافكا يهودى ، والحقيقة التى كان يعلمها هتلر أن كافكا كان إنسانياً ، شامل النظرة ، بعيداً كل البعد عن الأفكار الضيقة المحدودة .

لكن عذاب كافكا قد منحنا أشياء عظيمة . . لقد منحنا عزاء نفسياً ، ودعوة إلى الحياة فى انسجام وتناسق وكرامية للمتناقضات التى يغلف بها الناس حقيقة الحياة .

أما رسالته إلى والده فهي عمل فني صادق ، وهي إلى جانب ذلك درس اجتماعي ذكي . . . يعلمنا فن الأبوة الحقيقي على أنه فن من الفنون السامية الصعبة الخطرة في الوقت نفسه ، إنه فن يحتاج إلى جهد ومثابرة وتواضع حتى يكون أساسا لخلق أشخاص إيجابيين أصفياء ، لا طريقا إلى التعقيد النفسي والدمار وضيعة الإنسان في الحياة .

المغامر

في مسرحية « الأيدي القذرة » للكاتب الفرنسي جان بول سارتر يقدم الكاتب نموذجا غريبا من الشباب تمثله شخصية « هوجو » . . . فهو شاب متحمس مندفع ؛ ولد وفي فمه ملعقة من الذهب ، ولكن ملعقة الذهب لم تجعل حياته طعما . . . إن حياته باردة مملّة لا تحصل إليه شيئا جديدا يثير أفكاره أو عواطفه . . . ولم يكن « هوجو » مقتنعا بأن يعيش مثل القطة الوديعّة الناعمة . . . كان يريد أن يخرج إلى عالم التجربة الواسع . . . يريد أن يذوق طعم الحياة الحادة العنيفة .

وفتش كثيرا عن طريقة لتغيير حياته . . حتى استقر أخيرا على أن ينضم إلى حزب ثوري . . وفي هذه التجربة وجد الطعم الحاد العنيف للحياة ، فحياته محفوفة بالخطر ، وديناه مملوءة بالأسرار ، وقد يجد نفسه مكلفا ذات يوم بعمل كبير . . عمل لم يحلم به في حياته

الوادعة القديمة . . حيث ملاعق الذهب وستائر الحرير ، والنظام الدقيق ، والعادات القاتلة .

ثم جاءت اللحظة الكبيرة . . لقد كلفه الحزب باغتيال أحد الزعماء السياسيين المعادين لهذا الحزب ، وعلى الشاب أن يقوم الآن بمطاردة هذا الزعيم . . حمل الشاب المسدس في جيبه في انتظار اللحظة المناسبة ، وسافر إلى المدينة التي يقيم فيها الزعيم ، واتصل به ، وأخذ يناقشه في مشاكل السياسة حتى يكسب ثقته . . . ثم يفاجئه بعد ذلك وينفذ خطة الاغتيال .

ولكن نفسية الشاب لم تكن تبحث عن العنف لمجرد العنف ، بل كانت تبحث عن عنف له ما يبرره ، عنف له أسبابه الصادقة المقنعة . . . وقد سافر الشاب إلى حيث يقيم ذلك الزعيم السياسى ونفسه لا تحمل أى تردد في تنفيذ خطة الاغتيال . . . ولكنه بعد أن ناقشه وتعرف عليه تغير الأمر تماما ، لقد وجد هذا الزعيم يحمل آراء صائبة وأفكارا حكيمة ناضجة ، ووجد فيه شخصية قوية عميقة الفهم . . وهنا بدأ التردد يتسلل إلى نفسه . . وبدأ يشك في سلامة موقفه ، وأصبح الاغتيال بالنسبة له عملا غير مقبول وغير مقنع .

لقد فقد الشاب إيمانه بسلامة أفكار الحزب ، ولم يعد يجد في نفسه الشجاعة على تنفيذ خطة الاغتيال . . . وذات يوم ذهب الشاب إلى مكتب الزعيم ، وعندما فتحه وجد زوجته - زوجة الشاب - بين ذراعى ذلك الزعيم . . . كانت الزوجة قد تعرفت على هذا الزعيم مع

زوجها الشاب ، وكان الزعيم قد جذبها إليه بقوة شخصيته ، وهنا فقط يحمل الشاب مسدسه ويقتل الزعيم . . وبذلك يكون الاغتيال قائما على سبب شخصى ، وليس على فكرة سياسية أو مبدأ من المبادئ .

وبعد أن يتم الاغتيال تصبح نفسية الشاب مرتبكة ضائعة . . لقد أراد أن يخرج من عالمه الحالم إلى عالم آخر فيه عنف وانفعال ولحظات لها طعم . . ولكنه وجد نفسه مثل ذلك الذى يركب سفينة فى بحر عاصف وقد فقد « البوصلة » ففقد الاتجاه نتيجة لذلك . . . فهو لا يدرى إلى أين يسير ، وأين هو طريق النجاة .

وبذلك أصبحت الحياة فى نظر هذا الشاب « مغامرة » . . إن الشيء الوحيد الذى اكتسبه من حياته الجديدة هو معرفة العنف . . . لقد ذاق العنف ، ولحظات التوتر والقلق والترقب . . وبعد أن كان العنف وسيلة لغاية هى خدمة الحزب وخدمة مبادئه أصبح العنف غاية فى ذاته . . وذلك بعد أن انهارت أمامه مبادئ الحزب . . ولم تعد خدمة الحزب هدفا من الأهداف المقننة .

إنه الآن إرهابى مغامر ، بعد أن كان صاحب فكرة وصاحب مبدأ .

وهذه الحالة تحدث كثيرا . . أن يتحول الشاب الثورى إلى مغامر ، وهى حالة من الحالات العنيفة المريرة التى يتعرض لها بعض الشباب فى بيئات خاصة . من هذه البيئات البيئة السياسية فى مصر قبل

الثورة ، كان هناك بعض الشباب ينظرون إلى الحياة في أسف ومراة... وكانت كل الحلول التدريجية التى تعتمد على العقل الهادى عاجزة عن أن تجد حلا لأزمة المجتمع ، تلك الأزمة العنيفة التى كانت تعكس نفسها على قلوب الشبان أيضا ؛ لذلك كان هؤلاء الشبان يفكرون فى حل الأزمة بالانفجار والعنف .

وبدأ عدد من هؤلاء الذين يحملون بتغيير المجتمع وتخليصه من أزمته يلجأون إلى العنف ، ويتعلمون وسائله المختلفة لاستخدامها ضد أسباب الأزمة ، وعلى رأس هذه الأسباب الإنجليز الذين كانوا يستعمرون البلاد . ثم أعوان الإنجليز فى الاقتصاد أو فى السياسة . وفى الوقت الذى كان على الواحد من هؤلاء الشباب أن يهتم بالحب ، والبحث عن فتاة تشاركه أحلام المرحلة الجميلة التى يمر بها ، وفى الوقت الذى كان من حقه أن يشرب من متعة الحياة الصافية ، دون أن يحمل فى قلبه أى هم كبير ، أو أن يثقل مشاعره بأفكار قاسية وهو فى عمر الحب والاستمتاع بالحياة . . كان هؤلاء الشباب يتركون كل شىء ويتعلمون استخدام الديناميت وإطلاق الرصاص ، والوسائل المختلفة للإرهاب والاغتيال . . .

وتمر السنوات وهم مشغولون ليلا ونهارا بهذا العمل العنيف ، من أجل بلادهم ، من أجل الخلاص من الأزمة التى يمثلها الاستعمار وأعوانه ، والتى تجعل الحياة كثيية بل ومستحيلة . وبدأ هؤلاء الشبان يعيشون فى الجو الجديد ويشعرون بألفة كاملة معه . . وشيئا فشيئا

أصبح معنى الحياة الوحيد بالنسبة لهم هو العنف ، هو القتال الدموي الحاد . . . لم يعد بالإمكان أن يعيش الواحد منهم لحظة هدوء وادعة . . لقد تعود على صوت الانفجار ، وتعود على حياة الاندفاع والمغامرة .

والاستغراق الكامل في جو من الأجواء يؤثر على بعض النفسيات تأثيرا عنيفا ، إنه يجعل هذا الجو بالنسبة للإنسان هو الحياة . . ويصبح الخروج من جو العنف والمغامرة مثل خروج السمكة من الماء : معناه الوحيد هو الموت .

لقد كان اختيار العنف في أول الأمر مجرد وسيلة لغاية ، هي إخراج الإنجليز من البلاد و القضاء على الاستغلال . . . ولكن الاستغراق في جو العنف لمدة طويلة يجعل العنف هدفا مستقلا ليس له غاية .

وهنا يتحول الثورى إلى إرهابى ثم إلى مغامر .

وهذا هو الذى حدث لشخصية « هوجو » كما صوره سارتر . . . لقد أراد أن يخدم مبدأ عن طريق العنف ، فأصبح العنف بالنسبة له هو المبدأ الوحيد الأخير .

وقد تلقت رسالة من أحد هؤلاء الشبان الذين عاشوا جو العنف في حياتنا قبل الثورة وتحول العنف بالنسبة لهم إلى غاية دائمة .
والنتيجة . . .

إن هذا الشاب قد وقع في أزمة عنيفة عندما أصبحت الحياة خالية من الحاجة إلى العنف والإرهاب . . . فقد قامت الثورة المصرية

سنة ١٩٥٢ . . . وأخرجت الإنجليز وهدمت بنيان المجتمع القديم ، وأصبحت المهمة الرئيسية للقوى الجديدة هي بناء المجتمع الجديد . . ان المجتمع الآن يحتاج إلى نفسية هادئة تعمل في ميدان البناء الإيجابي الذي يخلق الحياة الجديدة ويسندها . . . المجتمع يحتاج إلى المهندس والطبيب والعامل الفنى . . . وكما قال أحد زعماء الثورة الروسية بعد نجاح الثورة : « . . الآن مهندس واحد خير من عشرين سياسيا » .

ولكن هذا الشاب لم يستطع أن يتخلص من تجربته القديمة ، إن جو العنف والإرهاب هو الجو الوحيد الذى يناسبه . . . وعندما وجد أن الحياة لا تسمح بذلك بعد أن خرج الإنجليز من البلاد وانتصرت المبادئ التى كان الشباب يحلمون بها ويفكرون فى تحقيقها بأى طريق . . عندما أحس ذلك لجأ إلى المغامرة .

إن المغامرة توفر له الجو القديم العنيف نفسه ، إنها تخلق فى حياته نوعا من التوتر ، وتجعله دائما مشغولا عن نفسه ؛ لأنه لو وقف أمام نفسه وجها لوجه ، لما وجد فى حياته شيئا مريحا . . إنه لم يعرف الحب أبدا . . والحب فى حقيقته تربية طويلة عميقة ، ولا يمكن لإنسان حرم من هذه التربية أن يعيش تجربة الحب بطريقة سليمة . . وليس فى حياة هذا الشاب أيضا مهنة أساسية يمكن أن يلجأ إليها ويهتم بها ، فقد كانت مهنته هي « الإرهاب السياسى » ضد الإنجليز وأعدائهم . . وليس فى حياته صداقات مع الناس ، أو مع الكتب ، أو غير ذلك من دعائم الاستقرار والهدوء والتحول إلى حياة جديدة .

وأصبح في أزمة عنيفة ، ولم يعرف أبدا طريق الخلاص .

وهو الآن ينتقل من بلد إلى بلد ، ويخرج من الشرق إلى أوروبا ، ويلقى بنفسه في أى مكان من العالم بلا مال ولا أمل . . . إن الشيء الذى يسعده هو الانشغال عن نفسه ، ومواجهة تجارب عنيفة في كل لحظة استمرارا لماضيه الذى لا يستطيع أن يتخلص منه .

ورسالته التى تسلمتها منه أخيرا كتبها إلى من هامبورج في ألمانيا يقول فيها :

« لقد اشتغلت عاملا في مصانع كبيرة . . . ومن أول ساعة لبست بدلة العمال واشتغلت بأصعب الأعمال : تحميل أكياس من البواخر إلى المخازن ، ومن المخازن إلى عربات البضاعة .

كنت أحمل جبالا من أكياس الكيماويات ، وعملت أمين مخزن ، وعملت معلقا ومذيعا بالعربى والإنجليزى في إذاعة ألمانيا ، ثم عملت مدرسا وسائقا . . في الخامسة فجر كل يوم والجليد يتساقط على وجهى وأكتافى أخرج متجها إلى محطة الترام ؛ لأكون في المصنع في السادسة والنصف وفي « المكبس » في السابعة بالضبط . . وبلا مبالغة فأنا الوحيد في ألمانيا الذى عاش الشتاء القاسى بلا « بالطو » ودون « جوانتى » .

والنتيجة أن دمي نقص عن الحذ الطبيعى ٤٥٪ وانخفض النبض إلى ٦٠ ضربة فقط . . ومنذ نحو عشرة أيام أشرف القلب علما ،

التوقف ، لولا سرعة نقلى إلى المستشفى ، وقد غادرت المستشفى بعد أيام لأنى لا أملك ثمننا للعلاج . . وكل شىء هنا له ثمن . . حتى الرحمة والابتسامات . وإذا لم تكن تملك الثمن فمصيرك الطرد ولو أدى بك الأمر إلى الموت » .

هذه صورة من الحياة التى يعيشها الآن ذلك الذى كان منذ أكثر من عشرين سنة ثوريا عنيفا يساهم فى إرهاب الإنجليز وعملائهم مساهمة كبيرة .

وليس هذه الصورة التى تنقلها الرسالة غريبة أو شاذة ، فحياة هذا الشاب تدور منذ سنوات فى هذه الدائرة نفسها .

إن الثورة كائن حى ينمو ويتطور . . والثورى الذى لا يفهم هذه الحقيقة يتعرض للضيق وللآلام العنيفة ؛ لأن الثورة سوف تكبر وتنمو ويظل هو على حاله .

وتكون النتيجة هى اليأس أو الارتباك والبحث عن المغامرة .

وأصعب تجربة يمكن أن يتعرض لها الثورى هى أن تنجح الثورة ، فعلى الثورى الحقيقى أن يلائم نفسه مع الظروف الجديدة ؛ لأن نجاح الثورة يعنى أنها تحتاج إلى وسائل جديدة ، وطريقة جديدة فى العمل ، فإذا كانت الثورة فى دور الإعداد بحاجة إلى العنف . . فهى بعد النجاح بحاجة إلى المهندس والفنان والطبيب . . الخ .

إن نجاح الثورة معنا أنها حصلت على الأرض ، وعليها بعد ذلك
أن تملأها بالسنبال والزهور .

وعدم الفهم أو عدم الإدراك الصحيح للمرحلة التي تمر بها الثورة
يؤدى إلى مشكلة نفسية عميقة . . . مثل تلك المشكلة التي وقع فيها
صاحب الرسالة .

فعد أيها المغامر الحبيب إلى وطنك فهو أحنى عليك من أى عالم
غريب . . . عد . . . واملأ قلبك بإحساس جديد . . فكل ما كان
مطلوبا سنة ١٩٥٠ لم يعد مطلوبا الآن .

وباستطاعتك أن تنمو مع الثورة وتتطور معها .

إن أبسط عمل متواضع يعتبر الآن خدمة للوطن . . فعد وابحث
عن الحب والصدقة والأمن هنا فى أرضك العربية ، وستجد ذلك كله
بعد أن كنت محروما منه كله فى الماضى .

عد إلى أى عمل متواضع هنا ، فهذا العمل هو امتداد لماضيك ،
وهو الترجمة الوحيدة له فى المجتمع الجديد .

هذا هو طريق الخلاص من الأزمة النفسية . . . وليست المغامرة
أبدا هى الطريق .

المجز العاطفى

عندما تنظر إلى وجهها ، تشعر أنها خلقت لتكون لرجل واحد ..

بهذه الكلمات وصف فنان فرنسى كبير زوجة صديق له .

وكثيرا ما أفكر فى هذا الوصف . إننا عندما ننظر إلى بعض نماذج المرأة الحديثة نحس فى نظراتها عشرات الرجال : . لا رجلا واحدا فحسب ..

فما الذى يجعل بعض بنات هذه الأيام يفقدن أجمل صفات حواء : التوحيد فى الحب .. والإخلاص لشريك الحياة ..

السبب : الحرية .. أو الفهم الخاطىء للحرية ..

إن المرأة العصرية تذوق طعم الحرية لأول مرة . لقد أصبح من حقها أن تختار الرجل ، دون أن يقول لها المجتمع : عيب !

وحرية المرأة في العالم تجربة جديدة .. وفي بلادنا تجربة جديدة جدا .. وهذا هو سر المرض الذي تعانيه بعض نهاذج المرأة في هذه الأيام ..

إنه العجز العاطفى !

وهو أخطر من العجز الجنسى وأكثر تشوها لمعانى الحياة .. والبنات المصابات بهذا المرض فى حيرة . إنهن لا يعرفن ماذا يفعلن بالحرية .

هل تكون البنت - مثلا - فرنسواز ساجان ، وتعيش فى : مراهقة دائمة ؟ ! أم تقلد مارلين مونرو . . فتعرض فتنتها دائما على العيون لتشعر بالنشوة من نظرات الإعجاب . . فى الشارع والأتوبيس ومكان العمل ؟

أم تقلد الكاتبة السورية كوليت خورى . . فتتكلم فى الأدب والموسيقى والرسم . . وتجمع حولها المعجبين من كل لون وطراز ؟

لقد أصبح هذا النوع من البنات حائرا بالحرية ، لا يدري ماذا يفعل بهذا العبء اللئذ . ولكن الحيرة والقلق تحولوا بمرور الوقت إلى ذلك المرض الخطير : « العجز العاطفى » .

وأكبر أعراض هذا المرض أن يقول لك وجه المرأة : إنها لجميع الرجال وليست لرجل واحد ، وأن يقول لك سلوك المرأة : إن المجتمع قد سمح لى بالاختيار . . وأنا أختار جميع الرجال .

وربما كان أشهر نموذج لهذا النوع من النساء هو أديبة فرنسا المشهورة جورج صاند . . وجورج صاند عاشت في القرن الماضي ، وكانت غربية وشاذة . . ولكنها لو عادت إلى العصر الحديث لكانت امرأة عادية ، فالعصر ملئ بمن يشبهنها إلى حد بعيد . . وقصة واحدة من حياة جورج صاند تكشف طبيعتها المتقلبة الغريبة . فقد أحبها الأديب والشاعر الرقيق ألفريد دى موسيه ، وكان يقول لها أجل شعره ، أما هي فكانت تقول له : إنى أعبدك .

وذهبا معا إلى إيطاليا ؛ ليعيشا في أحضان الطبيعة . . يتمرغان في « اللهب المقدس ويفنيان في القبل » . وفي إيطاليا مرض موسيه ، وجلست إلى جانبه جورج صاند ، وعندما جاء الطبيب الإيطالي « باجالو » لعلاج المريض نسيت المرأة المتقلبة حبسها - وقامت لتحضن الطبيب وتقول له : أنت حبيبي ، إنى أعبدك . .

وكان موسيه في فراشه يهتز من الحمى ، أما هي فقد جلست تكتب إلى الطبيب رسالة غرام ملتفة وتسلمها له . . ثم تسلم له نفسها ، وترك حبسها على فراش مرضه وحيدا ، وتسافر مع الطبيب الذى يستمر معها بعض الوقت ثم يهجرها .

هذه صورة من المرض الذى تصاب به المرأة عندما تعجز عن فهم الحرية والاستفادة منها . .

إنه العجز العاطفى الذى يجعل المرأة غير قادرة على حب رجل واحد والوفاء له .

ولهذا المرض أكثر من صورة . . ولعل الأديب العالمى « تشيكوف » هو واحد من أروع الذين صوروا هذا المرض واكتشفوا أعراضه ، وما كتبه تشيكوف منذ ستين سنة ينطبق على حياتنا اليوم . . وكثيرا ما نلتقى بتلك الصور النسائية التى صورها تشيكوف وعبر عنها . .

ففى إحدى قصصه كتب عن امرأة سبأها : الجرادة . والجرادة سيدة جميلة لبقة ، تزوجت من طبيب شاب وديع . . وكانت هذه السيدة تريد أن تشعر بالأهمية ، فحولت بيتها إلى صالون تجتمع فيه مع رجال مشهورين من الرسامين والموسيقيين ، وكانت « أولجا » - وهذا هو اسم السيدة - تقول لأصدقائها وهى تشير إلى زوجها : « انظروا إليه ، ان فى سبأه شيئا ما ، أليس كذلك ؟ » وكان يبدو عليها وهى تقول ذلك حرصها الشديد على إن تبرر لمعارفها لماذا قبلت الزواج من شخص عادى ليست له أى صفة تخرج به إلى صفوف الممتازين .

كانت تحب المشهورين اللامعين فى أى شىء حتى ولو كانوا تافهين وزائفين .

وكانت تشعر وهى إلى جانبهم أنها ممتازة ولامعة . . أليست على معرفة بألح الناس وأشهرهم ؟ وكانت هذه هى موهبتها الرئيسية ، والوحيدة . . معرفة المشهورين .

واحد من هؤلاء المشهورين أخذ يعلمها الخطابة . . وآخر يعلمها الموسيقى ويقول لها بصوت حزين : « إنك موهوبة ، ولكنك على وشك أن تقبرى نفسك إن لم تستغلى مواهبك لتصبحى مغنية

رقية » . وثالث كان رساما ، وهو أيضا يقول لها إنها رسامة موهوبة
لولا الكسل . . ولولا ارتباطها بزوج عادى مغمور . .

· كان أصدقاءها جماعة من الباحثين عن الشهرة والذين يلبسون
مسوح الفن ويتظاهرون بالتفكير ، وهم يتملقون تلك السيدة
ويقنعونها بأنها موهوبة في كل شيء . . وكانت تصدقهم وتسعد بهذه
الحياة العبقريّة ، حياة المواهب .

وأخيرا استسلمت لحب واحد من هؤلاء العباقرة وهو الرسام .

وكان العبقري يلتقى بها في بيته . وأحيانا على صفحة الماء في قارب
وهو يقول لها : ما أروع السماء والماء والقمر والحب .

ولكن العبقري الزائف الذى انساق وراءه تركها بعد قليل وسئم
منها ؛ فهو الآخر يجب دائما أن تكون هناك امرأة تطارده لتؤكد له
ذاته .

وظلت الجرادة تجرى وراء الأضواء والصخب بدون عمق ولا
فهم . وهذه الرغبة هى التى قادتها إلى الخيانة ، وقادتها الخيانة إلى
الإحساس بالتفاهة والتعاسة . . وجاء يوم . .

مرض زوجها الطبيب ؛ لأنه « امتص الصديد من حنجرة غلام
صغير مصاب بالدفترىيا » .

واشتد المرض على الزوج وأصبح من الواضح أنه سيموت .

وجاء عدد كبير من الناس إلى البيت يزورون المريض . . وكان
الحزن الشديد واضحا في عيونهم . .

وبدأت الزوجة تنتبه إلى شيء غريب . واكتشفت فجأة أن زوجها
رجل عبقرى ، رجل مهم !!

كان أحد زملائه يقول عنه « ما أفدح خسارة العلم فيه ، فقد كان
على خلافنا جميعا رجلا ممتازا ، وأى موهبة وأى أمل كان يشيعه فينا »
وفوجئت الزوجة !

إن هذا هو ما تبحث عنه طول عمرها . لقد كانت دائما تريد أن
ترتبط برجل عظيم له أهمية ووزن . . وكان زوجها عظيما دون أن
تدرى . . وها هي تعلم الحقيقة ولكن في آخر لحظة . . وهو على
فراش الموت . .

إنها لم تكن تفهم شيئا وكانت مخدوعة بأصدقائها الزائفين وتواضع
زوجها العظيم . . ومشكلة هذه الزوجة أنها كانت مصابة بالمرض
الخطير الذى نتحدث عنه وهو : « العجز العاطفى » . . إنها لم تعرف
التركيز فى حياتها ، وعواطفها . . فكانت حائرة قلقة ، ولم تكن تعرف
كيف تتصرف فى حريتها . .

ولم تحاول أن تفهم الأمور بعمق . . وكان البريق الخارجى يثيرها .
وأدى هذا كله إلى تشويش نفسها وأفكارها . .

فلم تعد تعرف كيف تميز بين الجمال والقبح . ولم تعرف لمن تعطي حياتها ، فكانت تنتقل بين عدد كبير من الرجال ، تحب هذا فترة ، وفي فترة أخرى تحب غيره ، ثم تضيق به وب نفسها . .

إن اتساع علاقتها مع الرجال ، وعدم عمقها في معرفة قيمتهم الحقيقية ، ورغبتها المريضة في الشهرة بدون جهد وبأى ثمن وبشكل عاجل وسريع . .

هذه الحياة المشوشة قد جعلتها عاجزة عن الإحساس بأى عاطفة عميقة . . وكانت النتيجة أن عجزت عن تحقيق هدفها . وهو الارتباط برجل مهم . بينما كان هذا الهدف أقرب إليها من أى شيء آخر .

ويقدر ما يكشف تشيكوف عن تفاهة هذه المرأة وعجزها عن الشعور بعاطفة عميقة نحو رجل واحد ، فإنه يكشف أيضا أن الشيء الجميل العميق إنما هو شيء بسيط متواضع ، أما الثرثارون المتظاهرون ، فهم تفاهة أنيقة ملفوفة بالسلفان . وهذا النوع من النساء نموذج نراه كثيرا في حياتنا . . امرأة تريد أن تكون مهمة ، وتتعرف على المشهورين بدون مقياس أو وعى . وهى دائما تحيط نفسها بمجموعة من التافهين ؛ لتغذى عجزها وشذوذاها العاطفى . .

والنموذج الثانى للعجز العاطفى يقدمه لنا تشيكوف أيضا فى قصة أخرى ، وهو نموذج لا يقل صدقا وروعة عن نموذج « الجردة » ، والنموذج الثانى هو المرأة المكافحة واسمها « ليدا » ، وهى فتاة تؤمن

بالجمعيات الخيرية وتقوم بالتدريس في مدارس تلك الجمعيات ، وهي جادة صلبة . لا تعرف ولا تحب الكلام في الأشياء العادية - من وجهة نظرها - مثل الزواج والحب والفن . كل حياتها عمل حديدي من أجل علاج المرضى وتعليم الأُميين ، وكانت تعيش مع أمها وأختها عندما تعرف عليهم رسام شاب فأحب الأخت الصغيرة ، ولم يكن يبالي بها . تقوم به الأخت الكبرى من أعمال .

وكان له في ذلك رأى عميق ومعقول : فما جدوى العناية بعلاج المرض دون علاج أسباب المرضى . ما جدوى أن تعالج الفلاح وهو يعيش في ظل الإقطاع ويعمل ١٦ ساعة في النهار . . إنك ستعالجه ليعود إلى ظروفه الأولى ويمرض من جديد . . وما جدوى تعليم القراءة والكتابة إذا لم يكن لدى الناس فراغ للاستفادة من قراءاتهم .
إن الرسام يرفض الإصلاح الجزئى ويؤمن بالإصلاح الشامل .

وكان يناقش الفتاة الكبيرة في آرائها فكرهته . وفرضت على أختها الصغيرة التى تحبه أن تقطع علاقتها به ، وأطاعتها الأخت مرغمه خوفا من إغضاب أختها الكبرى .

وبذلك خلقت الأخت الكبرى مأساة في حياة أختها وحياة الرسام ، بالرغم من أنها تطالب بعلاج المرضى وتعليم الأُميين . . أى أنها تطالب بالخير والجمال . .

لقد هدمت تجربة عاطفية جميلة بدافع من الحقد والتعصب والغرور . ولا يمكن أن تكون هذه الفتاة « المكافحة » صادقة ؛ لأن

حب الجمال لا يتجزأ . ومشكلة هذه الفتاة المكافحة هي أنها مصابة بالعجز العاطفى . . إنها تحب نفسها بسطحية وعناد .

وهي تظن أنها خرجت للحياة العملية فلا بد أن يكون لها رأى صائب وقوى . . وإذا وقف أحد في طريقها فليس عليها إلا أن تحطمه وتقضى عليه . . أما الحب فهو في نظرها عاطفة تافهة صغيرة . وهي تربط نفسها ببعض الأشياء الجميلة لكي يقول الناس عنها إنها طيبة وذكية ومهمة . . لا لأنها تريد الخير والجمال بالفعل . .

ولولم تكن مصابة بالتشويه والعجز العاطفى لما وقفت في وجه هذا الحب البريء الجميل . فالمفروض أنها تكافح من أجل تجميل الحياة ، وليس في الحياة أجمل من الحب ، فهو أساس العمل والأخلاق ، وهو الزهرة التي تعطى للوجود رائحة حلوة . . ولا يمكن أن تكون الحرية تفسيراً أو تبريراً لهذا المرض .

فالحرية التي تفسد شعور المرأة بالحياة هي مرض وليست ميزة .

إن هذا النوع من الحرية الزائفة يؤدي إلى شيء واحد هو « العجز العاطفى » . .

عجز المرأة عن حب رجل واحد والإخلاص له . . وهو مرض يشقى المرأة كما يشقى الرجل . . إنه يؤدي بالمرأة نفسها إلى المأساة . فلا بد أن تتحطم حياتها في النهاية . . ولا بد أن تقف في آخر الأمر أمام حياة كلها فراغ ، وليس فيها ذكريات سوى الألم . .

غروباء

هى سمراء تفيض حيوية ونشاطا وصحة ، عندما تراها أو تجلس إليها تحس بمعانى السلام تملأ نفسك وتشيع فى روحك ، وكنت أراها فى الجامعة أيام كنا معا ، ولم أكن أتحدث إليها كثيرا ولا قليلا ، ولكننى كنت أحس نحوها بالاحترام ، وأنظر إليها نظرة ود ، فقد كانت جادة مشتعلة ، تبتسم على الدوام فى أمل . . وخرجنا من الجامعة ، وكدت أنساها ضمن الأشياء الكثيرة التى ينساها المرء بعد أن تدفع به الحياة العملية إلى آفاق عديدة مزدهمة بالمشاعر والأفكار والمشاكل .

وفى الغمام الماضى التقيت بها فى مناسبة من المناسبات ، أو بالأحرى فى مصادفة من المصادفات ، ولأول مرة تخرج معرفتى بها من حدود الصمت الذى كان مضروبا حولنا طيلة أيام الجامعة .

وفى هذه المصادفة تكلمنا . . وأخذنا نستعيد بعض ذكريات الجامعة ، وتبادل الحديث عن بعض ذكريات الحياة ، وشعرت أننى

حقاً أمام إنسانة عميقة الشعور طيبة النفس ، متفائلة ، يمتلئ وجدانها بالسلام والأمان فتضفيها على الناس .

وبعد لقائنا كنت سعيداً راضى النفس ، انتقلت إلى ذاتى أشعة من التفاؤل الذى يملأ قلبها الكبير الحنون ، ولم أنسها من يومها . بل ظلت هذه الفتاة فى ذاكرتى علامة من علامات الإنسانية الطيبة الأمانة .

وبعد أيام من لقائنا قابلنى صديق أديب . . واحد من الذين يعيشون الحياة بإحساسهم ، ويتذوقون الوجود بمشاعرهم ، ويقابلون من مصاعب الحياة العملية أشياء جديدة كل يوم . . وقال لى الصديق الفنان وبلغة مرتعشة حزينة إنه يجب تلك الفتاة السمراء ، التى التقيت بها منذ أيام ، وإنه ينوى الزواج منها . . والحب عند هؤلاء الشباب الذين يعيشون حياة مثقلة بالهموم ليس لونا من الخيال وليس أحلاماً وردية ، ولكنه شعور حاد بالرغبة فى العون ، فى الثقة ، فى ألا يكونوا وحدهم وسط هذه العواصف الحادة التى تقتلع كل وحيد منفرد . . . لقد وجد صديقى فى هذه الفتاة مثلاً طيباً يمكن أن يسانده ويعاونه ، فمد يده إليها فى عنف ورغبة حارة ، ولم يشأ أن يدع هذه الفرصة الفريدة تضيع منه .

وباركت هذا الحب ؛ لأننى معجب بهذه الفتاة ومؤمن بصديقى الأديب الفنان . . ومرت الأيام ، وكان صديقى يروى لى كثيراً عن علاقته بفتاته . .

كان يروى لى قصيدة كتبها عنها ، أو حديثا دار بينهما ، أو دنيا من
الآمال كانا يفتحانها بحرارة ومودة من أجل الغد ، من أجل
المستقبل .

وكان يوم . . جاءنى صديقى حزين النفس ، وإذا به يقول لى إن
علاقته الجميلة النبيلة بتلك الفتاة مهددة بالفشل !! . .

قلت له : وما السبب ؟ ! ، فقال : إن الفتاة متشائمة إلى أبعد
حدود التشاؤم ، ولا تكف عن التفكير فى الموت . . كلما تقدمنا خطوة
فى حياتنا قالت لى : لماذا تفعل هذا ؟ وما نهاية هذا كله ؟ لا شىء . .
الموت . . العدم . . لماذا نتزوج ما دمنا سنموت ؟ لماذا ننجب أبناء
يتعرضون للعذاب ولقسوة الظروف ثم يموتون آخر الأمر ؟ . .

لا فائدة لشىء ، ولا جدوى من أى شىء . . لا الحب ، ولا
الزواج ، ولا الأمومة ، ولا متعة الجسد ، ولا متعة الروح . . إننا
نخدع أنفسنا خداعا ضخما ، ونعيش فى وهم كبير . .

نتصور العزاء ينبعث من الحب . . ولا عزاء فى الحب ، ونتصور
أن الحياة مليئة بالأمل . . ولا أمل فى الحياة ، نتصور أن مشاعر الناس
تحيطنا بمودتها الصادقة . . والناس فى حقيقتهم يبحثون عن مصالح
ذاتية فردية مهما كانت أساليب بحثهم متحضرة ومهذبة ، لا أحد
يضمن الحب للآخرين ، والناس لا تحب إلا من ترى صورتها فيه . .
والمجتمع كثيف متزاحم كثيف ، تربطه علاقات من الأكاذيب

والأفكار المصطنعة والكلمات المصطنعة ولا شىء بعد ذلك ، وتلك
هى القصة . . فلماذا نتزوج ؟ ، ولماذا نحب ؟ ولماذا ننجب أطفالا ؟
ولماذا لا نترك أنفسنا هكذا سلبين يجرفنا تيار الحياة إلى حيث يشاء .
ما دامت الحقيقة المؤسفة واضحة ، ولا خفاء فى الأمر . . إننا نعيش
فى مأساة . .

آخر ما كنت أتصوره أن تتكلم هذه السمرء الطيبة مثل هذا
الكلام المتشائم الحزين . . لقد أعطيت لها فى شعورى صورة الإنسانة
المتفائلة الطيبة . .

أكان هذا كله وهما ؟ !

أكانت تستر حقيقة نفسها عندما التقينا وتحدثنا عن الناس
والأشياء ؟

إننى أحيانا أرسم فى نفسى صورة خاطئة للناس .

فقد أكون فى حاجة إلى الإيمان بشىء معين . . فى حاجة
- مثلا إلى الإيمان بأن الإنسان المثقف لابد أن يكون على مستوى عال
من السلوك النبيل ، وألتقى بأى إنسان مثقف فأضفى عليه من نفسى
تلك الصورة التى أحبها وأتمناها وأنتظرها بلهفة وحرارة ، وتمر الأيام
فإذا بى . أكتشف أننى صنعت وهما ، وأضفيت على ذلك الإنسان
ما ليس فيه ، وانتظرت منه مالا يمكن أن يصدر عنه .

أكانت هذه الفتاة من هذا النوع الأخير ؟ أكنت أتمنى أن أرى فتاة
صافية النفس توحى بالثقة والأمل فى الحياة بعد أن سئمتنا الصور

الحبيطة الباهتة من فتيات الجيل الجديد اللاتي يملأن الحياة بالعفن ،
ويسلبن من نفوس الشباب كل ثقة ، وينظرون إلى العالم من كل وجوهه
من خلال المطالب المادية المباشرة التي لا تفرق بين رجل ورجل ؟ ..
أكان شعورا وهميا ملأ نفسي بأن هذه الفتاة مثالية ناضجة ؟

ربما كان هذا صحيحا .. ولكنني حتى بعد إن سمعت حديث
الفتاة مع صديقي لم أفقد احترامي لها ، ولم أفقد ثقتي بها .. فالمشكلة
التي تثيرها هذه الفتاة مختلفة عن المشاكل التي تثيرها الفتيات
الرخيصات ، اللاتي لا يقمن وزنا للفكر ولا للشعور .

ومن حديث طويل بيني وبين صديقي عرفت أن فتاته تشكو الغربة
في هذا العالم ، كان لها آمال ومطامح ، وتوقفت آمالها ومطامحها عند
حدود الواقع العملي الصاخب .. ولم تجد في حبها ما يغنيها عن
آلامها ؛ فهي مشدودة إلى تلك الآلام .. مشدودة إلى والدها الذي
مات .. مشدودة إلى وجهها الأسمر الشديد السمرة ، في مجتمع ظالم
ما زال ينظر إلى اللون الأسود نظرة اضطهاد .. ولا تجد في الفكر
عزاء .. ولا في الفن .

إنها غريبة ، تشعر بالوحدة .. ولكن ما الحل ؟ لقد وقف أمام هذا
السؤال فلاسفة وفنانون عصريون كبار .. وقف أمامه سارتر ، ووقف
أمامه ألبر كامو ، ووقف أمامه جراهام جرين ، ووقفت أمامه سيمون
دى بوفوار ..

أهو الانتحار للتخلص من تلك المشاكل المغلقة ؟

كانت الإجابة دائما لدى المجتمع : كلا . . إن الانتحار لا يحل المشكلة بحال من الأحوال . .

وأكثر الناس تشككا في قيمة الحياة هم أكثر الناس خوفا من الموت ورهبة ، والذي يرهب الموت ويشك في الحياة لا يمكن أن يصل إلى شيء أكثر من الاضطراب والفرع . الحل الحقيقي هو : الوعي . . أن نعى ما يمكن وعيه من مشاكلنا ، وأن نبذل جهدنا لنجعل من حياتنا شيئا ظاهرا ملموسا يعطينا مزيدا من اليقين . . فالحب الصادق ، والأبناء ، والمصلحة المشتركة مع بعض الناس ، ومحاولة التفكير المتعقل الهادىء فيما يتعرض له الإنسان من مشاكل . . كل هذا يمثل بعض وسائل الحل لهذه الإشكالات العنيفة .

لست أزعم أن هذا سيؤدى إلى قتل المشكلة . . ولكننى أعتقد أنه سيضعنا جنبا إلى جنب معها . . لن نكون أقل من المشكلة ، ولن نكون أهون منها . فنحن في هذه الحالة كمن فرضت عليه الظروف أن يواجه أسدا . . علينا أن نواجهه بكل شجاعة . . وبكل سلاح . . وإذا قتلنا الأسد في آخر الأمر فسوف نموت وقد بذلنا غاية الجهد . . سنموت منتصرين ، دون فرع . . دون اضطراب أو جزع .

فعودى إلى الحب يا سمراء . . وتزوجى فتاك الفنان الذى يؤمن بك . وواجهى القلق والحيرة وإلى جانبك قلب كبير مثل قلبه .

ولن تكونى وحدك الغربية فى هذا العالم .

وسمراء أخرى . .

إنها حائرة أيضا ، وهى تشعر بالغربة فى العالم . . وهى شعلة من النشاط والحيوية ، وعلى مستوى ثقافى نادر طيب ، لو رأيتهما لذكرتك بإقصاءات الباليه العصرى : حركة جميلة رشيقة تنبض بالحياة يقودها نغم ساحر حلو ، ولو حدثتها لوجدت النشوة تسرى فى نفسك . . فهى تفكر معك ، وتشعر معك ، ولا تترك لحظة حتى تشعر أنك وحيد تتحدث مع شخصية باهتة مسلوية التفكير والشعور . .

وإذا عرفتها عن قرب رأيت مثالا آخر من أمثلة الغربية ، والبحث الدائب عن نفس ضائعة . . إنها تعرف عشرات من الشبان ، وتسعى إلى ذلك وتنجح فيه ؛ بسبب ما فى شخصيتها من قوة وتميز واضح عن غيرها من الفتيات . . ولكنك تحس من عينها القلقة ، وسلوكها الذى لا يخضع لمنطق واحد ، أو قاعدة منظمة . . تحس أنها غريبة هى الأخرى ، لا تعرف سبيلها المحدد فى هذه الحياة ، انها تقبل على معرفة الشباب من كل لون وكل اتجاه ، وقد لا يدهشك أنها تعرف شابا مثقفا واعيا وتعقد معه أواصر صداقة قوية ، ثم تفاجئك بأنها تعرف شابا آخر على قدر واضح من التفاهة وانعدام الوعي الثقافى !! . .

وتتحدث معها عن شؤونها هى فتعلم منها أنها تكره وظيفتها وتتمنى أن تعمل عملا حرا ، أو أن تنتقل إلى وظيفة أخرى . . هى تكره

الوظيفة عموما ؛ لأنها قيد ، وتنظن أن العمل الحر لا قيود فيه . .
وتكره وظيفتها بالذات ؛ لأنها ساكنة جامدة ، وهي تريد وظيفة مرتبطة
بالفن ، متحركة مليئة بالحياة . . وتحب الثقافة ولكن الثقافة تحتاج
إلى تركيز وانتظام . أما هي فتسعى في هذه الحياة على مسرح واسع
جدا تلتقى فيه بالعشرات والعشرات ، ولا يمكن لهذه اللقاءات أن
تسمح لها بتركيز في الثقافة بحال من الأحوال . . إنها مزيج من فنيات
الصالونات اللاتي يتميزن بالخفة والحياة ورقة الحديث . . وفنيات
العمل المشتغلات في القرن العشرين اللاتي يبشطن عن التركيز
والوضوح والتحدد ، ولكنها ليست من هؤلاء ولا من هؤلاء . .

ما الذى تريده هذه الفتاة على التحقيق ؟ لا هى تعرف ، ولا هى
تستطيع أن تعرف . . ان البحث عن العلاقات الكثيرة دونها هدف هو
في الحقيقة لون من الضياع ، ولون من النقص في معرفة الذات .
والخلط بين الطموح الاجتماعى ، والطموح الثقافى خطأ كبير آخر .
فمن يريد الثقافة حقا ، لا يضيق بالوظيفة التى تعطيه فرصة القراءة
والفهم ، وإذا كان هذا الضيق مدفوعا بالإحساس بأن في المجتمع
فرصا أخرى يناهها آخرون ، فلا يمكن للإنسان أن يصل إلى
شئ . . إن نجيب محفوظ كان موظفا بوزارة الأوقاف ، وكان لهذا
العمل الرديء فضل كبير على أدبنا كله ، فمن خلال هدوء العمل
وانفصاله الكامل عن الأدب استطاع نجيب محفوظ أن يكتب إنتاجه
العظيم . . لقد استطاع من خلال الاستقرار العادى للإنسان الناضج
أن يصل إلى الأشياء العظيمة التى يريد أن يصل إليها . .

وبالنسبة للمرأة هل تعتبر الوظيفة الحكومية قيда من القيود ؟ . .
 كلا . . إن الوظيفة هي مستوى طيب من حرية المرأة يتيح لها الاتصال
 بالحياة والمشاركة فيها . . ولكن في حدود منظمة سليمة ، كما أن
 العمل الحر لا يخلو من القيود ، بل إن قيوده - فيما أعتقد - أشد عنها
 وقسوة من قيود العمل الحكومي ، وقد تكون هذه القيود خافية ،
 ولكنها موجودة بعنف وتؤثر في الإنسان تأثيرا بالغاً عنيفا .

وهل الحرية بالنسبة للفتاة هي أن تعرف - بلا هدف حقيقى -
 عشرات الشباب من شتى الألوان والاتجاهات . . وتعرفهم بنفس
 العمق والاهتمام ؟

كلا بالطبع . . إن الاختيار الواعى هو الوسيلة الصحيحة للارتباط
 بالناس .

وهذه الفتاة في حقيقتها هي واحدة من اللاتي يعشن في غربة ، قد
 تلتقى بها ذات يوم ، أو تسمع عنها . . فهي الصديقة لمعظم الشباب
 المرتبطين بالحياة الثقافية . .

ومعظم الأكفاء من هؤلاء الشباب فكروا فيها ذات يوم كرفيقة
 عمر . . ثم انصرفوا عن التفكير بعد فترة . . لقد تأكدوا أنها لا تعرف
 ماذا تريد . . وأنها تخلط بين الحرية والفوضى ، وأن وعيها الجميل
 منفصل عن سلوكها الخالى من التركيز والضوابط المحكمة . . وبإليتها
 تعرف طريقها وتركز عليه ولسوف تستطيع يومها أن تضيف شيئا
 جديلا إلى الحياة .

وغريب آخر . .

شخص حبيب عزيز ، هو قصيدة رقيقة أو نغمة حلوة ، أو كلمة صافية . . ولكنه غريب يبحث عن نفسه منذ زمان ، ويجرى هنا وهناك لعله يستقر على معنى لحياته ، وكلما رأى شيئا جديدا تعلق به وظن أنه هو المعنى التائه الضائع فجري وراءه ثم بعد فترة . . عاد إلينا وجرا به ملء بالقلق والدمع ، والرغبة في البحث من جديد . إنه الصديق الفنان عبد الغفار مكاوى . . لقد سافر منذ شهرين إلى ألمانيا^(١) ، يبحث عن نفسه هناك ، لعله يجدها في مزيد من الاتصال بأرض جوته وبريخت وغيرهما من الفنانين المقربين إلى قلبه .

كتب إلى في الأسبوع الماضي من فرايبورج بألمانيا يقول :

« أنا هنا منذ شهر في هذه المدينة الجميلة الكريمة معا ، هي جميلة بمشاهدها وآثارها والغابة السوداء التي تحيط بها من كل جانب ، وهي كريمة بناسها الجادين كل الجد ، وبلغتها المستعصية ، يبردها الظالم المستبد » .

ثم يقول :

« أخى . . ربما كنت مبالغا و« فشارا » كما هي عادتي ، ربما كنت أظلم نفسي أكثر مما ينبغى كما هي عادتي أيضا ، ولكنني على أية حال قلق غير مستريح أعاني مرارة الوحدة - وما أقساها - وأحس أن أيامي

(١) عاد الآن من ألمانيا وأصبح أستاذا لامعا في كلية الآداب قسم اللغة الألمانية . كما عمل أستاذا للفلسفة في عدد من الجامعات العربية خارج مصر .

تساقط ذابلة يوما بعد يوم ، إننى مقبل على الدراسة بالجامعة بكل ما أستطيع ، وأتردد على المسرح هنا كثيرا ، ولكنى مع ذلك أتذكر مقاتلك لى إنه ينبغى على أن أبقى فى بلدى وأن لا أهرب ، أنا الآن أتحقق صدق كلمتك . . . » .

إنه غريب هو الآخر يشكو الغربة ، كان يعمل فى دار الكتب ويقرأ ويكتب ويعيش بين أصدقائه ، ولكنه كان قلقا لا يستقر ، وتعلم الألمانية بعد تخرجه فى الجامعة . . ثم عرضوا عليه بعثة إلى ألمانيا فسافر إليها علة يجد هناك مزيدا من اليقين ، فهو هنا لم يجد يقينا ولا استقرارا بعد ، وما هو يكتب من ألمانيا ليقول إنه ما زال قلقا . . بل إن قلقه قد زاد . لقد كنت مؤمنا على الدوام بأن القلق نابع من نفسه ، وانه واحد من جيل يحس ويتألم ويشاهد عملية جراحية ضخمة لمجتمع مريض هزيل يريد أن يستيقظ ويصح . . وهو واحد من الذين يتحملون التبعة . . واحد من الذين قرروا أن يعيشوا بصدق وشجاعة وفى حقيقة دائمة لا فى خداع ووهم .

وهو من أجل هذا يشعر بالقلق والغربة . . وسوف يشعر بهما فى وطنه ، وفى أى مكان آخر ؛ لأنها ينبعان منه ومن طريقته فى الحياة وطريقته فى إدراك الأمور وفهمها .

ولا أملك أن أقول لهذا الغريب شيئا ، ولا للغرباء الأعزاء . . فمن قلب هذه الغربة يقدمون حياتنا أحاسيس المسؤولية والضمير . إنهم أشرف الغرباء وأشجعهم على الإطلاق . . حتى ولو مزقتهم وطحتهم الأيام .

دفاع عن الجسد

يقول الكاتب العالمى الكبير برنارد شو :

قولنا العقل السليم فى الجسم السليم خطأ ؛ لأن الجسم هو ثمرة العقل السليم .

والفكرة التى يعبر عنها برنارد شو هى فى كلمات أخرى . إن العقل السليم لابد أن يفكر بكل الوسائل فى خلق جسد سليم صحيح .

وهناك فئات من الناس تنظر إلى الجسد على أنه شىء مرادف للخطيئة ، وهناك فئات أخرى ترى أن العناية بالجسد تتناقض مع العناية بالروح ، وأن مطالب الروح فى الإنسان تحتم تعذيب الجسد وعدم العناية به ، وقد وصلت هذه الفكرة إلى بعض العقائد الشائعة فى إيران والهند وفى بعض أجزاء العراق ، فهناك مناسبات لدى المؤمنين بهذه العقائد ينصرفون فيها إلى تعذيب الجسد تعذيباً مادياً ،

بأن يضربوا أنفسهم على صدورهم ضربا عنيفا ، ومن هذه المناسبات المعروفة « ذكرى استشهاد الحسين » ، ولدى بعض الهنود تشيع عقائد تدعو إلى تعذيب النفس بالصوم الطويل الذى يؤدى الجسد اىذاء شديدا ، وقد لجأ « غاندى » إلى مثل هذا الأسلوب ، ولكن الفرق كبير بين غاندى والهنود الذين نشير إليهم . . وهذا الفرق يتركز فى نقطة واحدة هى : وظيفة هذا التعذيب الجسدى كما يفهمها غاندى ، وكما يفهمها غيره من الهنود . . لقد كان غاندى يصوم حتى يصبح على شفا الموت والهلاك ، وكان يمتنع لفترات طويلة جدا عن أى علاقة جسدية مع زوجته . . ولكنه يفعل هذا كله بدافع إيجابى ، هو التعود على ممارسة المصاعب والسمو الروحى بما يفرضه من مسئوليات من أجل تحقيق أعلى معانى التضحية فى نفوس المواطنين الهنود الذين كان عليهم أن يعملوا كثيرا جداً ليتخلصوا من التدهور البالغ الذى وقعوا فيه نتيجة للاستعمار الغربى ، ولقد كان أسلوب غاندى أسلوبا فريدا عظيما ، ولم تكن قيمته مستمدة منه هو فى ذاته ، ولكنها كانت مستمدة - كما قلت - من « الوظيفة » التى يخدمها هذا الأسلوب ، إنه لم يكن احتقارا للحياة ، ولم يكن كفرا بدور الجسد فى الدفاع عن الانسان ، ولكنه كان تعميقا لمعنى الحياة التى كانت تحتاج فى تلك اللحظة من تاريخ الهند إلى المزيد من التضحيات ؛ لأنها كانت فى وضع يحتاج إلى مثل هذا النوع من النضال .

وروح الفلسفة المسيحية تميل هى الأخرى إلى الإغلاء من القيم الروحية على حساب الجسد الإنسانى ، إنها تقدس الروح ولا تقدس

الجسد ، ولقد كانت حياة المسيح نفسه تقوم على أساس الاستغناء عن كثير جدا من مطالب الجسد البشرى ، وكان على رأس هذه المطالب « غريزة الجنس » فالمسيح لم يتزوج ، ولم يستجب للحب العائى العنيف الذى حملته له إنسانة كانت تملك عبقرية الجسد الفاتن . . . وهي مريم المجدلية ، لقد اختار المسيح النضال الروحى ، وخاض المعركة حتى ضد الجسد ، ولم يتسامح فى هذه المعركة - لا فى سلوكه ولا فى أقواله ودعوته ، وما قيل عن غاندى يمكن أن يقال عن المسيح . . فالمسيح قبل غاندى كان يهدف بموقفه إلى أهداف إيجابية كانت تحتتمها ظروف التاريخ فى عصره ، ولم يكن المسيح متكاسلا ، ولكنه كان مناضلا إيجابيا يعمل من أجل أهداف كبيرة لتطوير النزعة المادية المتطرفة التى شاعت فى عالم تلك الأيام .

من هذا كله نستنتج الفكرة التى نريد أن نقف أمامها وهى :

إن الذين قادوا المعركة ضد مطالب الجسد البشرى ، ودعوا إلى السمو على المطامع والتخلص منها . . إنما كانوا يهدفون من دعوتهم إلى أهداف إيجابية عملية ، وعلى ذلك يمكننا أن نقول إن موقفهم قد أملت ظروف معينة ، وإن الأصل فى الحياة الإنسانية هو الاهتمام بالجسد واعتباره وسيلة أساسية يقوم عليها بناء الحياة ، فتطرف المتصوف الهندى فى تعذيب جسده بالجوع لمجرد التعذيب ، أو بدافع من حوافز غيبية . . كالوصول إلى الصفاء والطهر والاتصال بالله ، مثل هذا الموقف لا مبرر له ، وهو بمقياس الحياة الحقيقية خطأ ينبغى

أن يزول ، ومثل هذا القول ينطبق تماماً على موقف المتصوف الإسلامي - في إيران أو في العراق - الذي يؤمن بأن عذاب الجسد هو تكريم لذكرى الشهيد العظيم ، « الحسين بن علي » . . .

إن هذا التكريم في الواقع تكريم سلبى خاطيء ، لقد كان الحسين يحارب عندما استشهد ، ولم تكن حربه في سبيل أشياء غامضة ، وإنما كان يدافع دفاعاً نبيلاً مجيداً عن العدالة في الحياة ، أى عن القوت لكل إنسان ، والمساواة بين الجميع ، وإنزال الظلم الاجتماعى من أسواره العالية المحصنة في قصور بنى أمية التى تسرف في الترف ، والنعموة ، على حساب أبناء الشعب الذين يعملون ويجهدون في كل مكان .

لقد استشهد الحسين وهو يناضل بجسد صحيح قوى احتمل الكثير من الأذى لفرط سلامته وصلابته . . فلماذا يعذب المتصوف الإسلامى جسده في يوم ذكرى رجل دافع عن مبادئه بجسد شجاع؟ . وهذا نفسه يقال عن المتصوف المسيحى الذى أسرف في ازدراء الجسد ، حتى لقد أصبح « الدير » بالنسبة للمسيحية مكاناً يتحدى فيه الإنسان جسده ، ويرهن نفسه من أجل الروح ومن أجل الله .

ويلجأ إلى « الدير » ناس احتقروا الجسد ، وقرروا تعذيبه للتقرب من الحقيقة العليا التى تسكن السماء ، ولكن المسيح العظيم لم يكن يعذب جسده بهذا المعنى الخاطيء السلبى ، الذى يذكركنا في كل

لحظة بالعدم والخراب . . لقد كان المسيح يفعل ذلك كتعبير عن مزيد من الايمان بحقوق الجائعين الذين لا يجدون القوت بعد أن سلبهم إياه جشع سادة إسرائيل ، وسادة العالم في ذلك الحين . . أى أنه كان يحمل في الحقيقة رسالة الدفاع عن المطالب العادلة للجسد الإنسانى .

وفي العصر الحديث نجد بلدا كبيرا مثل روسيا تعد براجمها الإنشائية المختلفة على أساس من التقشف الشديد في الكماليات ، ليس هناك «ماكياج» متنوع وليس هناك «أثاث فاخر» وليس هناك عربات غريبة الألوان والأشكال ، وليست هناك «فساتين» متعددة «الموديلات» . . . ليس هناك شيء من هذا ، بل هناك إهمال مقصود لكثير جدا من الكماليات ، ولكنهم يسرفون في شيء آخر . . . يسرفون في الطعام وفي السلاح . . . إن الطعام عندهم شيء هام إلى أبعد الحدود . فهم يأكلون بكثرة ، ويوفرون كميات ضخمة من الطعام . . ولديهم وجبات متعددة ربما فاقت الوجبات العادية الشائعة .

لماذا ؟ لأنهم يؤمنون بأن الجسد الإنسانى هو دعامة هائلة لكل إنتاج روحى ، بل هو الأساس . . بالجسد الإنسانى الصحيح يولد الفن : ويتدعم السلام ، وتزدهر الطفولة الجميلة ، والورد الجميلة . . . أما الجسد المريض الهزيل فهو بداية الطريق إلى العدم . بداية الفقر ، والعجز ، وضعف الانتاج العقلى من فن وفكر وغير ذلك من ألوان الإنتاج الذى تخلقه عبقرية الإنسان الصحيح .

وفي الفنون هناك فن يعتمد على الجسد ، وهو فن عظيم مثير .

هذا الفن هو الباليه . . . إنه لغة إنسانية يفهمها الجميع ، وهو لغة غنية بالمعاني العظيمة الحلوة النبيلة ، ولا يمكن أن ينبع هذا الفن العظيم من جسد هزيل . . بل إن من الضروري لأدائه وإتقانه وجود جسد صحيح رشيق تنبض عروقه بالدم ، بالصحة ، بعشق الحياة ، ولقد عرض في القاهرة خلال السنة الماضية فيلم « روميو وجوليت » عن قصة الفنان الإنجليزي العظيم شيكسبير ، وكان هذا الفيلم روسيا ، ولم يكن يعتمد على الكلام ، فأبطاله لا ينطقون أى كلمة ، وإنما كان هذا الفيلم يعتمد على حركة الجسد ، على الباليه . . وقد قامت بتمثيل دور « جوليت » الفنانة الروسية المعروفة : « جالينا أولانوف »

وكان هذا الفيلم الذى يعتمد على حركة الجسد يعبر عن أعمق المشاعر الإنسانية تعبيراً غريباً مثيراً ، فهذه عاطفة الحب تعبر عنها حركات الجسد العبقري لـ « جالينا أولانوف » فتصور ما فى هذه العاطفة من أفراح وأشواق ونشوة وخاوف . . وهذه عاطفة الكراهية بما تحتويه من رفض ونفور . . وهذا هو الموت يمثلنا فى حركات معبرة أحد أبطال الفيلم دون أن يتكلم ، ولكنه مع ذلك يعبر عن مقاومة الإنسان للموت ، وجهه للحياة ، ونضاله من أجل نبضات القلب ، واستسلامه آخر الأمر فى عذاب هائل تعبر لك عنه أبسط الأشياء : حركة من جفن ، أو شفة ذابلة أعيها الاصفرار . . ولكنها مع ذلك تبسم ، أو إشارة إصبع صغيرة . . . ثم يسكت القلب .

وعند اليونان القدماء كانوا يعبدون الجسد ، فكانت « فينوس »
إلهة للجمال ، وكانوا يصنعون لها تماثيل عارية ، وكان هذا الجسد
العارى يثير فى نفوسهم أعظم المشاعر وأعذب الأحاسيس . . .

كانوا يعبدون هذا الجسد . . . وفى تماثيل أخرى كانوا يصورون
عظمة الجسد البشرى فى « عضلات » السواعد ، أو قوة الصدر ، أو
ارتفاع الرأس فى فتوة وعنقوان . . لقد عبد اليونان الجسد وقدموه ،
واستلهموا منه أفكارا كثيرة ، ومشاعر كثيرة . . فعلوا ذلك كله كما
لم تفعله حضارة أخرى . . .

وفى مصر القديمة بلغت قوة التفكير فى الجسد والدفاع عنه أن
اخترع المصريون من وسائل الطب ما يحفظ الجسد بعد الموت عن
طريق التحنيط ، ولم تستطع الحضارة الإنسانية على تقدمها اليوم أن
تصل إلى أسرار التحنيط المصرى القديم فى تلك العصور المتأخرة
البعيدة .

وفى تاريخ الحضارة الإنسانية تميز كثير من العباقر ، بقوة الجسد
الواضحة . .

وتبرز هذه الحقيقة فى العباقر الذين تفوقوا فى العمل إلى جانب
تفوقهم فى التفكير ، و « محمد » « ص » كان قوى البنية إلى حد
بعيد ، وكذلك كان « عمر بن الخطاب » . . وكان « الإسكندر » قويا
فتيا ولكنه مرض فجأة ، وكذلك كان « نابليون » . . وبالنسبة لحياتنا
نجد أن كثيرا من زعمائنا السياسيين الذين قاموا بأعمال عظيمة قد تميزوا

بقوة الجسد ، وأحب أن أذكر من هؤلاء : أحمد عرابي ، وسعد زغلول
فكلاهما فلاح قوى البنية ، قوى الإرادة .

وفي مجال الفكر أحب أن أذكر نموذجين هما : برنارد شو ،
وبلزاك . . .

فلقد تفوق برنارد شو في « نوع » إنتاجه . . ولكنه أيضا تفوق تفوقا
باهرا في « كم » هذا الإنتاج ، فقد أخرج خلال عمره الطويل الذي
زاد على تسعين سنة عشرات من المسرحيات الجيدة العظيمة
المتناسكة ، كما تميز برنارد شو أيضا بثقافته العميقة المتعددة الجوانب ،
ولم يكن برنارد شو وليستطيع أن يصل إلى هذا المستوى من الثقافة لو
كان ضعيف الجسد هزيل البنيان .

أما بلزاك فقد كان قويا إلى حد بعيد جدا ، ولولا الأزمات النفسية
والاقتصادية التي تعرض لها في آخر حياته لكان من أصحاب العمر
الطويل . . وبسبب من هذه القوة البدنية الهائلة استطاع أن يضيف
إلى الأدب العالمي ما يقرب من مائة رواية . . معظمها من الإنتاج
الأدبي الرفيع . إنه أيضا لم يتفوق في « نوع كتابته » ولكنه كذلك
تفوق في « كم » كتابته .

والجسد الذي يثير كثيرا من الإشكالات هو جسد المرأة ، فهو
الجسد الذي يقترن كثيرا بفكرة الخطيئة النابعة من الانحراف في
التصرف الجنسي . . ولكن الحقيقة هي أن الجسد الأنثوي في سلامته
وصحته ورشايقته يحمل إلى الحياة أكثر من معنى عميق جميل ، وإذا

انتظم المجتمع وتلاشت أسباب الحرمان والضعف فيه ، وارتفع مستوى الإنتاج فأصبح كل إنسان يعمل بقدر ما يستطيع ، وشاعت المساواة ، وقضى على فكرة الفراغ التي تنشأ من قلة العمل في المجتمع ، أو من سوء توزيع هذا العمل فيعمل عشرة أفراد ، ليأخذ جهدهم فرد واحد . . أو كما صور برنارد شو في كلمات قوية « إذا وجدت إنسانا لا يعمل فإن هناك من يعمل لنفسه وله » إذا استطعنا أن نصل إلى هذا المجتمع المتكامل السليم فإن جسد المرأة سيصبح مصدرا لكثير جدا من ألوان السعادة والجمال ، وسوف تنتفى إلى حد بعيد فكرة الخطيئة بجسد المرأة ؛ لأن فرصة الخيانة الزوجية ، أو البغاء ، أو الاضطراب في أمور الجنس سوف تختفى تقريبا ، وسوف تختفى أيضا دوافع هذا الاضطراب وحوافزه . . سنجد مجتمعا جميلا يعمل كله متآزرا متعاوناً يتبادل أفراد الاحترام ، ويشعرون بمتعة الحياة في منابحها . وتنتفى سيادة فرد على فرد ، ويتفى الفراغ الذي يوحى بالخطأ ، وسيصبح الجمال هو الصحة والأناقة البسيطة وسلامة النفس من العقد والأحقاد التي تنعكس على الوجه ، بل على بناء الجسم كله .

أنا مؤمن إلى أبعد حد بفكرة اليونان عن الإنسان . . . أؤمن بالجسد البشرى لأنه منبع الروح وحصنها العظيم ، وهو مصدر غنى من مصادر الجمال ، وفيه من الإمكانيات ما يمكن أن يخلق ألوانا متعددة من السعادة ، ويزيد شعورنا بالحياة قوة وأصاله ، والذين

يؤمنون بأهداف عظيمة كبيرة ينبغي أن يضعوا في حسابهم أن الجسد
السليم الجميل القوى يعتبر وسيلة هامة من وسائل الأهداف البعيدة .

وإننى أومن تماماً بأن الجسم الصحيح هو حتماً جسم جميل .

فالصحة في ذاتها لون حلو غنى من ألوان الجمال . . وبهذا المعنى
فإننا نستطيع أن نخلق جمال الجسد ونستطيع أن نملاً الدنيا به ،
والأفراد الذين يتطرفون في إهمال مطالب الجسد بحجة الإخلاص
لأهداف روحية أخرى يخطئون في نظرى ، لأنهم سوف يصطدمون في
النهاية بعقبات رئيسية تنشأ من إهمالهم مطالب الجسد . على أنه من
البديهي أن من يجعل الجسد غاية في ذاته لا وسيلة لأشياء أخرى . .
إن هذا الذى يفكر بهذه الطريقة لا يفرق بين الانسان والحيوان . . إن
إيماننا بالجسد ينبع من أننا نرى في الجسد القوى إمكانيات خصبة لمزيد
من الإبداع ومزيد من اكتشاف الأشياء العظيمة في هذه الأرض ،
ومزيد من السعادة والسرور النفسى .

نصف الجنون

مرحلة الطفولة في حياة الإنسان مرحلة سحرية ناعمة ، فالطفل يعيش حياته لحظة بلحظة ، لا يعرف شيئاً اسمه الماضي ، ولا يخاف من مجهول اسمه المستقبل . . والألم في حياة الطفل لحظة تمر ، والفرح لحظة تمر أيضاً ، والطفل لا يعرف أبداً ذلك الشعور المكتوم الذي يحتمله القلب الإنساني ، ولا يستطيع الوجه أن يعبر عنه بالصراخ أو بالدموع .

وعندما نخرج من الطفولة تبدأ المشاكل ؛ فلا بد أن يكون لنا رأى وموقف من كل شيء ، وعلينا أن نعمل على التلاؤم مع العالم ، وتصبح لنا أحلام نحاول تحقيقها ، ونخاف نعمل على التخلص منها . . إن علينا ان نفكر في كل شيء ونصنع كل شيء ، ونتحمل نتيجة ما نصنعه .

وبعد الطفولة نقف في مفترق طريقين : طريق للسعادة وطريق للتعاسة . . والطريق العام الذي سير فيه الناس بحثاً عن السعادة هو « الانتماء إلى شيء » .

هناك ناس يتمون إلى عمل يحبونه أو أسرة يحسون فيها بالراحة والهدوء ، أو حب يملأ حياتهم ، أو فكرة يؤمنون بها . . . والذى يتمى إلى شىء لابد أن يشعر بالسعادة ، ولا فرق بين إنسان يحب « تربية القسط » ويعتبرها شيئا رائعا جميلا ، وإنسان يشغله عمل عظيم آخر . فكلاهما سعيد لأنه يتمى إلى شىء يحبه .

أما طريق التعاسة فهو طريق مناقض . . . فعندما تكون حياة الإنسان خالية من شىء يحبه ويتمى إليه ، تبدأ التعاسة والضياع فى التسلل إلى حياته .

وهذا النوع من التعساء هو موضوع القصة التى كتبها آرثر ميللر ، والتى خرجت فى فيلم مثير شاهده العالم فى أول الستينات واهتز له .

والفيلم ملء بالرموز . . . ولكنه عميق يحمل أكثر من معنى كبير .

وأهم المعانى الكبيرة هو معنى الانتفاء . . . لابد أن يتمى الإنسان إلى شىء حتى يكون سعيدا ، وكل أبطال « الفيلم » معذبون تعساء ؛ لأنهم لا يتمون إلى شىء ، والأشياء التى كانوا يتمون إليها تحطمت ، وحاولوا إعادة بنائها ولكنهم فشلوا إلى حد بعيد .

وهذه الحالة يسميها الكاتب الإنجليزى كولن ولسن بحالة « نصف الجنون » . . . ذلك لأن الإنسان يكون فى تلك الحالة مثل المجنون . . . فاشلا فى التلاؤم مع الحياة والناس ، حائرا لا يدرى ماذا يفعل . . . وهو دائما مرتبك النفس والذهن والسلوك . . . ولكنه ليس

مجنونا كاملا ؛ لأن المجنون الكامل يفشل فى التلاؤم مع العالم الواقعى ، ولكنه يخلق لنفسه عالما وهميا كاملا يعيش فيه ، والمجنون ينتقل إلى عالمه الجديد وليس لديه أى وعى بما يحدث فى العالم الواقعى . . لقد سيطر عليه عالمه الوهمى تماما .

ولكن نصف المجنون يفشل مع العالم الواقعى ولا يجد بديلا لهذا العالم حتى فى نهاية الوهم والخيال .

وهكذا نجد كل أبطال الفيلم . .

فتاة الفيلم - روسلين - شابة جميلة تركت زوجها ؛ لأنها كانت تحس أنه « بعيد عنها جدا » . . إنها يعيشان فى بيت واحد ، ولكن بين رجليهما صحراء أوسع من صحراء نيفادا التى تدور فيها أحداث الفيلم ؛ ولذلك تهجر الزوجة بيتها ، تهجر عالمها القديم ، وتبحث عن شىء آخر تحبه وتهتم به . . لقد ألفت بنفسها فى محيط الحياة تجرب حظها بدون أن تعرف هدفا أو غاية محددة .

و « جى » ضائع هو الآخر ومعذب ، إن أيامه تهرب منه ، وهو يريد أن يعزى نفسه بأن « الشباب هو شباب الروح » ، ولكنه فى قرارة نفسه مقتنع بأنها حكمة زائفة ؛ لأن روحه أكثر شيخوخة من وجهه .

لقد كان مطمئنا لفترة قصيرة مرت فى حياته مثل ومضة عابرة . . كان زوجا هادئا سعيدا ، وفجأة اكتشفت أن سعادته من « القش » . . لقد ضبط زوجته تخونه مع ابن عمه ، وتبددت سعادته

ولم يبق له سوى أمل واحد هو ابنه وابنته ، ولكنها كبرا وهجراه أيضا . . تركاه وحيدا بلا أمل ولا حلم ولا مال .

و« بيرس » ، كان ينتمى إلى أسرته . . ولكن الأسرة تهشمت مثلما يتهشم لوح الزجاج . . فأصبح وحيدا طريدا . . لقد مات أبوه وتزوجت أمه من رجل آخر أكل ثروة الأب ، وترك الابن ضائعا لا يجد أسرة ينتمى إليها ويحتمى بها . . وعندما جاء عيد ميلاد أمه أراد أن يقدم لها هدية . . ولكن حذائه كان ممزقا وكانت ملابسه « فيها من الثقوب أكثر مما فيها من القماش » .

و« جيدو » ماتت زوجته أثناء الوضع ، ومات الطفل معها ، لقد صرخت فلم يهتم بها ، وذهب إلى حجرتها بعد أن هدأت إلى الأبد . وكان يعمل طيارا في الحرب ، وقتل ناسا كثيرين . ولكنه لم يعرف الحزن إلا على ميت واحد هو زوجته .

ووجد الرجال الثلاثة روسلين في حياتهم . . فالتمسوا فيها أملا . . ولكنها كانت ضائعة مثلهم لا تحس بالانتماء إلى شيء ، وهى حائرة مرتبكة . . نصف مجنونة أيضا .

ويبدءون جميعا في البحث عن حل لتلك الحياة الجرداء الخالية من المعنى : فماذا يفعلون ؟ يسكرون أم يلجأون إلى العنف ؟ وعندما يسكر أحدهم تظهر أحزانه بصورة عنيفة قاسية .

« جى » ينادى أولاده ، ويتخيلهم موجودين أمامه ، ويعوى وهو يناديهم بأسمائهم . . إن ضياعه يدفعه إلى تصور وجود الشيء الوحيد الذى يربطه بالعالم وهو أولاده . .

ولكن الحقيقة قاسية . . فلا شيء يربطه بالعالم . . والأولاد غير موجودين وهو يتعلق بأمل وهمى خرافى .

ويحاول « بيرس » أن يجد نفسه فى أعمال عنيفة ، فيدخل مسابقات خيول وثيران ، فلا يكسب من هذه المسابقات سوى جروح خطيرة وسخرية لاذعة من المشاهدين .

ولكن يجد متعة فى العنف والتوتر ، فهما يملآن حياته . . إنها صورة أخرى من السكر .

أما « جيدو » فيسكر أيضا ، ثم يعود إلى بيته الذى تهدمت منه أجزاء كثيرة ، ويحاول أن يبنيه بالواح خشبية يقيمها فى الهواء فتسقط منه ، ثم يقيمها مرة أخرى فتسقط منه . . .

إنه يحلم ويصارع من أجل أن يكون له « بيت كامل » يحبه ويهتم به ويعيش فيه . . ولكنه مجرد حلم . . مجرد وهم لن يتحقق أبدا .

ثم يشترك الجميع فى عمل عنيف واحد ، هو مطاردة الخيول البرية واصطيادها لبيعها . . حيث تذبح وتقدم طعاما للكلاب والقطط . وتشور الفتاة وتدعو المجموعة إلى عدم صيد الخيول ، ولكنهم

لا يستجيبون لها . . ويصطادون ستة من الخيول ويربطونها بالحبال في قسوة وعنف .

فتقف « روسلين » في وسط الصحراء وتصرخ في صوت جنوني متوتر :

« إنكم ثلاثة رجال ميتون !! لا عمل لكم الا القتل . إنني أكرهكم أيها السفاحون !! إنني أكره حريتكم » .

وفي الليل يهدءون قليلا ، ولكنه هدوء يخفي عاصفة في داخله . ويقرر « بيرس » أن يطلق سراح الخيول ، ويذهب فعلا لتنفيذ فكرته وعينا « روسلين » ترقبانه في رجاء وأمل . ولكن « جى » يكتشف الحقيقة فيقوم وحيدا بمطاردة أقوى الخيول . . ويغد مجهود عنيف يمسك به ويربطه في العربة . . وأمام دَهْشَةِ الجميع يقطع حبل الفرس ويتركه لحريته !! ثم يقول : « إنني أحب أن أتخذ قراراتي بنفسى » .

وتهتز « روسلين » أمام هذا الموقف . . لقد وجد « جى » طريقة الصحيح . . لقد قرر أن يحرر الحصان ولكن باختياره وإرادته ، ويدون أن يفرض أحد عليه هذه الفكرة . لقد انتمى إلى نفسه وإرادته أخيرا . وقرر أن يتحرر من القتال والعنف .

وركبت معه روسلين عربته ، وسألته : كيف نعرف طريقنا في الظلام ؟

فقال لها : علينا أن نتبع هذا النجم الكبير ، إنه يوصلنا إلى البيت .

وفي لمسة رائعة من المخرج الكبير « هيستون » يخفى كل شيء تدريجيا . . إلا هذا النجم الذى يظل بارزا يتحرك وحده على الشاشة ، صغيرا وحيدا ، وكأن النجم يقول لنا فى بساطة وإلحاح :

هناك طريق للخلاص من الألم ، من الضياع ، من العذاب الذى يعانيه الإنسان الحديث فى الحضارة الحديثة !

ويمضى « جى » مع « روسلين » يبحثان عن طريق جديد للحياة غير القتال والضياع فى صحراء نيفادا ! . . وصحراء نيفادا هى الصحراء التى تجرى فيها أمريكا تجارب القنابل الذرية . . ووراء « جى » و« روسلين » يقذف « جيدو » كلماته القاسية المحتجة ، لقد قضى جزءا كبيرا من حياته طيارا فى الحرب ، وقتل ناسا كثيرين ؛ ولذلك فهو وحده الذى يطالب بالعنف والقتال ، ويجد فيها نوعا من التعويض عن مشكلته الخاصة مشكلة الوحدة والضياع . .

ولكن « جى » و« روسلين » لا يعبان بكلامه ، ويمضيان وراء النجم الكبير . . يبحثان عن طريق جديد للحياة . .

هذه هى القصة الرائعة التى كتبها « ميللر » وارتفعت « مارلين مونرو » فى تمثيلها إلى القمة ولم تكن مجرد حيوان جميل . . وإنما كانت انسانا جميلا مفكرا .

إن الفيلم يحتاج بشدة على الحضارة الحديثة وخاصة في أمريكا . .
وكثيرا ما يقال عن هذا العصر في أمريكا إنه عصر الجاز ، أى عصر
السرعة والزحمة ونصف الوعى ، ونصف الجنون . . عصر السكينة
القلبية . ولكن أبرز مظهر لعصر الجاز وأقسى مظهر له هو « عدم
الانتها » . . أو تفكك العلاقات البشرية التي تدفء القلب وتقضى
على وحشة الحياة . إن عصر الجاز يجعل من الإنسان آلة تتقن العنف
والتدمير ، ولا ترتبط مع العالم برباط جميل قوى .

و « ميللر » فنان كبير يصرخ مع غيره من الفنانين من أجل إنقاذ
الإنسان من هذا المصير المحزن من الضياع والكآبة والوحدة . .
والنجم في قصة « ميللر » يرمز إلى السلام والطمأنينة والحب والعمل
المفيد .

فلتتبع هذا النجم الكبير . . حتى نعرف الطريق الصحيح في
ظلام الإنسانية .

إرادة البشر

مرت في حياة الحضارات الإنسانية فترة كان كل شيء فيها يفسر عن طريق الأساطير ، فإذا سقط المطر ، فإن المطر هو غضب أحد الآلهة ، وهكذا . . فالأشياء تمضي في حياة الإنسان والعالم كما تريد تلك الأساطير الهائلة الضخمة ، وتقدمت الحضارات الإنسانية إلى مرحلة أخرى فتخلصت الحضارة من تهاويل الأساطير ، وبدأ عصر « الدين » . وكان الدين يفسر الظواهر في الطبيعة ، ويحدد قيمة الإنسان في المجتمع وعلاقته بالعالم ، وبدأ الإنسان يتطور ويخرج من مرحلة إلى مرحلة ، حتى وصلنا اليوم إلى مرحلة « إنسانية » . . بمعنى أن كل شيء في الحياة يفسر من زاوية « الإنسان » . فإذا نظر العلماء إلى الطبيعة كانت نظرتهم تمثل سؤالاً هو : ماذا يمكن أن نستفيد من الطبيعة لخدمة الإنسان . . وإذا نظروا إلى المجتمع كانت نظرتهم تعنى سؤالاً هو : أي المجتمعات أنسب لحياة إنسانية

سعيدة ؟ .. أم هو المجتمع الإقطاعي ، أم هو المجتمع الرأسمالي ، أم هو المجتمع الاشتراكي ؟ .

وهكذا فنحن نعيش في عصر إنساني يفسر الأشياء بمقياس الانسان ومن زاويته .

على أن « الإنسانية » ليست فردا وليست جماعة ، ولكنها تدور بين هاتين الوحدتين .. وحدة « الفرد » ووحدة « الجماعة » .

وقد ظهرت في القرن الماضي في أوروبا عدة ظواهر ، منها ظهور الصناعة والمصانع الكبرى على نطاق واسع ، ومنها نشأة الفكرة « الرأسمالية » ونموها .

وقد اقترن بهذه الظواهر نمو النزعة الفردية .. لقد كان القرن الماضي في حقيقته هو عصر « الفرد » لا عصر « الجماعة » ، ف تفسير أى شيء في حياة الإنسان كان يعتمد على طبيعة الفرد .. طبيعته النفسية ، وطبيعته العضوية .

فالفرد كان مركز الحركة في حياة ذلك القرن .

ولكن القرن العشرين ، وخصوصا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، حمل إلى الثقافة والفكر تيارا جارفا من النزعة « الجماعية » فتغيرت المقاييس وأصبح كل شيء مرتبطا بمصلحة الجماعة ، ووصلت هذه الأفكار أحيانا إلى حد إلغاء شخصية الفرد ، والقضاء عليه كعنصر من عناصر تفسير الظواهر المختلفة في الحياة والمجتمع .

وقد تسببت هذه النزعة الجماعية في إيجاد الظاهرة التي نريد أن نفهم عندها اليوم .

وتتمثل هذه الظاهرة في تفسير السلوك الإنساني بالظروف المحيطة به . . مثلا : فتاة نالت قسطا وافرا من التعليم ثم خرجت إلى الحياة ، ولكنها أخذت تتصرف كما كانت جداتها يفعلن . . نفس عقلية الحريم . . ضعف في الشخصية ، تبعية غير سليمة للرجل وللتقاليد الاجتماعية الرديئة . . مثل هذه الشخصية ماذا يكون موقفك منها ؟ . . هناك من يرى أنها ملومة في موقفها ، وأنها مسئولة عنه . .

وهناك رأى آخر شائع إلى حد بعيد ، هذا الرأى هو أن هذا النموذج من الفتيات هو إفراز من إفرازات الوسط الاجتماعي ، فالمجتمع بظروفه وتقاليده وأفكاره وعقائده هو الذى خلق مثل هذه الفتاة ، والمجتمع هو المسئول عنها ، وعليك أن تغير المجتمع حتى تتغير الفتاة . . ومثل هذا الأسلوب شائع في تفسير العقد النفسية المختلفة ، والسلوك الشخصى المضطرب ، وشائع في تفسير المفاهيم الزائفة في عقول الأفراد أو نفوسهم .

ما من شك أن هذه الطريقة « الجماعية » في تفسير الظواهر والأشياء مدينة للنزعة الاشتراكية التى بدأت تشيع بأفكارها وعقائدها المختلفة منذ مطالع هذا القرن ، وأصبحت اليوم مظهرا رئيسيا من مظاهر الحياة في المجال العلمى ، فهناك مجتمعات كثيرة جدا تعتنق الفكرة الاشتراكية في صورها المختلفة ، أما في المجال النظرى فهذه الفكرة

شائعة في شتى فروع الثقافة ابتداء من الاقتصاد حتى الفن والأدب .
إن الكتب العديدة التي تظهر في الحياة الفكرية العالمية في العصر
الحديث متأثرة إلى حد بعيد بشيوع الفكرة الاشتراكية وانتشارها .

هذا هو ما أدى إلى نظرية تفسير « السلوك الإنساني » حسب
« الظروف » القائمة في المجتمع والبيئة . . وهذا التفسير ضروري
ولازم عندما نعالج مشكلة فرد ، أو ظاهرة اجتماعية . . ولكن الشيء
الخاطيء حقا هو أن نقف عند هذا الحد من حدود التفسير . . أن
نفسر الإنسان بظروفه الخارجية وحسب ، إن المعنى القريب لهذه
النظرية أو لهذه القاعدة هو : ان المسؤولية الفردية للإنسان غير
موجودة ، وان الارادة الإنسانية لا دور لها في موقف الإنسان من
الحياة . . وبلغة أخرى فإن التطرف في هذه النظرية يعني :

أن الإنسان كالكائنات الحية الأخرى ، هو إفراز للبيئة والطبيعة .

وهذا الرأي بمعناه المطلق رأى خاطيء وله أخطاره ، وخصوصا إذا
وصل إلى حده الأقصى من التطرف والتعصب .

وقد شاع هذا الرأي في أوساطنا الفكرية ، وأصبح تبريرا لكثير من
ألوان الانحراف والاضطراب والتهاون في الإحساس بالمسؤولية .

وهذا الرأي نفسه خاطيء من وجهة النظر العلمية التي تعتمد على
تفسير الإنسان حسب بيئته وظروفه . . فهذه النظرة إذا اعتمدت
على المناهج العلمية الصحيحة فإنها لا يمكن أن تغفل أثر الإنسان في

ظروفه وأثر إرادته في توجيه مستقبله وتحديدته ، فيجب أن نعرف أن الظروف التي تمر بالإنسان تؤثر في شخصيته تأثيرا حاسما ، ولكنها لا تجعل منه « شجرة » مثلا ، ولا تجعل منه « حيوانا » .. لا تجعل منه كائنا يتكون من عنصرين : الظروف والغريزة . بل هناك أيضا عنصر الإرادة ، وعنصر الإحساس الذاتي ..

فموقف الإنسان من الحياة هو في الحقيقة مزيج من الإرادة والظروف الخارجية .

إن بإمكانك أن تتدخل في تحديد مصيرك ، وبإمكانك أن تغير ظروفك ، وبإمكانك أن تحس بالحياة إحساسا جديدا غير الإحساس المفروض عليك .. وهناك قاعدة علمية تقول : إن التغيرات الكمية تحدث بكثرتها تغيرات كيفية .. فما معنى هذا الكلام ؟ معناه ان الفتاة التي ضربنا بها المثل من قبل ، والتي نالت نصيبا من التعليم ولم تستطع أن تغير من جوهر الأفكار السائدة في أسرتها وفي مجتمعها ... هذه الفتاة كان أمامها الفرصة لخلق نفسها من جديد .. فمهما كانت التقاليد مهيمنة عليها فإنها لولجأت إلى القراءة وحصلت على مزيد من الثقافة ، فإن الزمن سوف يحمل إلى شخصيتها تغيرات جزئية تتزايد يوما بعد يوم .. وفي يوم تتحول هذه التغيرات الجزئية بتراكمها إلى تغير جوهري شامل ..

إن هذا التغير الجوهري يستطيع أن يقدم للحياة صورة مغايرة للصورة التقليدية القديمة ، سوف تصبح هذه الفتاة ذات تفكير حر ،

وتصبح على قدرة في معالجة المشاكل التي تعترضها وتواجهها في الحياة . . إنها تحمل مفهوما جديدا للحياة العملية ، وتحمل مفهوما جديدا للعلاقة بالرجل ، وتحمل مفهوما جديدا لوظيفة المرأة .

كيف تتم هذه التغيرات في الشخصية التي بدأت مستسلمة للتقاليد وللأفكار القديمة ، إنها تبدأ من الإرادة . . فهذه الإرادة هي التي تدفع الفتاة إلى مزيد من الثقافة ، وإلى مزيد من مراجعة شخصيتها وسلوكها وما يعترضها من تقاليد . . هذا مثال . . إنه مثال على أن التغيرات الكمية البطيئة تؤدي إلى تغيرات كيفية . وفي المجال الإنساني لا يمكن أن تبدأ هذه التغيرات دون عنصر الإرادة . وحتى في التاريخ . . لناخذ تاريخ الثورات ، إن الظروف تعمل على التحضير للثورة والتمهيد لها . . ولكن إرادة الفرد بعد ذلك تعمل عملا كبيرا جوهريا في توجيه هذه الثورة . . كذلك كان نابليون بالنسبة للثورة الفرنسية . . وكذلك كان « لينين » بالنسبة للثورة الروسية .

وهكذا فإن إرادة البشر لها دور في توجيه الظروف وتحديد مسالكها واتجاهاتها المختلفة .

ولنقف الآن عند مطلب رئيسي من مطالب حياتنا . . إننا نعيش فترة انقلاب وتغير ، فنحن نتخلص من ملامح مجتمع قديم ونحاول إن نخلق مجتمعا جديدا له ملامح جديدة . . فكما أننا في حاجة إلى مجتمع صناعي متقدم بدلا من المجتمع الزراعي المتأخر . . فإننا أيضا

في حاجة إلى إنسان من نوع جديد . . إنسان يفهم الأمور بطريقة جديدة ، ويتعامل مع الناس بطريقة جديدة . كيف نستطيع أن نخلق هذا الإنسان الجديد في كل ميدان ؟

كيف نستطيع أن نخلقه في ميدان العمل . . وفي ميدان الصداقة . . وفي ميدان الأسرة . . وفي ميدان الحب . . إننا قطعاً لننتظر الظروف حتى تغيرنا وتقدم لنا هذا الإنسان ، بل لابد أن نساهم في خلق هذه الظروف . . أكثر من هذا لابد أن نسبقها بقدر ما نستطيع . . هذا واجبنا ، وهذه هي معركتنا . . معركة خلق الإنسان الجديد الذي يتلاءم مع مستويات حياتنا الجديدة في التفكير والشعور والعمل . . نحن في حاجة إلى الشاب الذي يواجه الحياة بطريقة جديدة . . نحن في حاجة إلى الفتاة التي تواجه الحياة بطريقة جديدة . . نحن في حاجة إلى العالم الذي يفكر بطريقة جديدة . . إلى الطبيب ، إلى المهندس ، إلى العامل . . إلى هؤلاء جميعاً . . وقد أخذوا يفكرون ويعملون بأسلوب المثقفين المدركين لتصرفاتهم الذين يلتزمون أصول الوعي والمنفعة الإنسانية العامة ، ويقدرّون معنى المبادئ الجوهرية أكثر من تقديرهم للمبادئ الشكلية .

مثلاً . . نحن في حاجة إلى مجتمع يصبح الطب فيه منفعة اجتماعية عامة ، فلا تكون هناك تجارة بأرواح الناس ، وتتفى فكرة العيادات الخاصة ، فتصبح كل عيادة مستشفى ، ويصبح المجتمع مسئولاً تمام المسئولية عن صحة المواطن . . مثل هذا الموقف في الطب يحتاج إلى طبيب ماهر في عمله . . ولكن هذا لا يكفي

إنه يحتاج أيضا إلى طبيب يجد في نفسه من الحوافز الذاتية المقنعة ما يدفعه إلى العمل ، بعد أن كانت دوافع العمل في الماضي هي الدوافع المادية . . إن الطبيب اليوم إذا كان مثقفا ثقافة عامة . ثقافة غير طبية بالإضافة إلى ثقافته الطبية فإنه يعتبر شيئا شاذا غريبا إلى حد ما . . أى أن مفهوم « الطب » اليوم لا يحتم الثقافة العامة البعيدة عن الثقافة الطبية . . أما طبيب المستقبل ، الطبيب الذى نريده . . فإن ثقافته العامة تعتبر جزءا أساسيا وحتميا من عمله . .

إن ثقافته العامة هي التى ستمنحه « معنى » لعمله ، وستمنحه رضا وراحة في هذا العمل . . وسوف يتطور مجتمعا حتما إلى القضاء على عنصر « الربح » الخاص في العمل الطبى . : . فيصبح الطب للناس . ولا بد في هذه الحالة أن يعرف الطبيب واجبه الإنسانى إزاء مجتمعه معرفة مثقفة ناضجة ^(١) . .

وهكذا في العامل . . وهكذا في الشاب وفي الفتاة . . لابد أن ينبع كل سلوك وكل تصرف من الوعي والثقافة والقدرة على التعاون .

فكيف نستطيع أن نصل إلى هذا الوضع الضرورى . إن الجانب

(١) كتبت هذه الكلام في أواخر الخمسينات ، وكانت هذه هي آمالنا وأحلامنا في تلك الأيام ، ولكن الأمور اختلفت الآن تماما مع صدور الطبعة الجديدة من هذا الكتاب « ١٩٨٩ » ، وأصبحت أحلامنا القديمة سرايا في سراب ، ولكن من يدرى ، لعل الأمور تتغير ، ويتمحقق أحلامنا من جديد !

« الإرادى » فى شخصية المستقبل هو جانب على غاية من الأهمية والقيمة ، وينبغى أن نعمل بإرادتنا على خلق الإنسان الجديد ، فى فهمه للأمور ، وتعامله مع الناس . الإنسان الخلاق القادر الذى يتخلى عن القيم القديمة . ويبنى عالما جديدا من القيم ..

كيف يمكننا أن نربى إرادتنا حتى نستطيع أن نعتد عليها فى الوصول إلى هدفنا ؟

إن الثقافة وسيلة هامة من وسائل تربية الإرادة ، ومن خلال الثقافة يمكن للإنسان أن يفهم واجبه ، ويستثير حماسه الذاتى ، ويكون لنفسه ملكة مستقلة للحكم على الأمور وتقديرها تقديرا صحيحا ، والإنسان المثقف هو الإنسان الشفاف المرن الذى لا يتجمد فى موقف أو فى حالة .. الذى لا يتصلب أمام ظرف من الظروف أو مشكلة من المشاكل .. والشخص المثقف « طاقة » وليس « كتلة » ..

والفرق بين الطاقة والكتلة ، هو الفرق بين قطعة الخشب وتيار الكهرباء ... فى الأول جمود وتصلب ، وفى الثانى مرونة وحيوية وقابلية سريعة للتشكيل .. فالثقافة العميقة تربي الإرادة ، وتخلق الشخصية المستقلة الفعالة التى لا تقلد فى العمل والقول ، وإنما تقول الكلمة الصحيحة حسب الاستنتاج الواعى من خلال الموقف ، والثقافة تؤدى إلى القدرة على مراجعة النفس باستمرار ، ونقدها نقدا ذاتيا مستمرا ... والمراجعة النفسية والنقد الذاتى من أعظم وسائل بناء الشخصية السليمة الفعالة ... الشخصية القادرة على التضحية ، على إتقان العمل المثالى الناضج المطلوب .

لقد أسرف « نيتشه » في القرن الماضى فى « النزعة الفردية » .
 وفى تقدير قيمة « الإرادة » . وكان لبعض الوجوديين العصريين
 نفس الموقف فجعلوا من الإرادة الذاتية قوة أساسية للحياة . .
 وفى الطرف المقابل بالغ بعض المفكرين الاشتراكيين فى تقدير قيمة
 الظروف الخارجية بالنسبة للإنسان . . . ولكن الصحيح هو
 الاعتدال . . .

ويرنارد شو يقول : « إن الاعتدال لا يمدح أبدا لذاته » .

فقيمة الاعتدال تتمثل فى وظيفته ، وإذا صح التعبير ، فإن من
 الراجب أن نتطرف فى الاعتدال . . والمعنى الذى أقصده بالتطرف فى
 الاعتدال هو أن نقيم وزنا للعنصرين فى تفسير السلوك الإنسانى
 وتحديد مسئولية الإنسان ، فالعنصر الفردى وعنصر الظروف
 الخارجية ، هما معا عنصران ضروريان لتفسير السلوك الإنسانى . .
 ويعد أن نسلم بهذا فعلينا أن نختار العنصر الرئيسى منها حسب
 الظروف التى نمر بها . . . ومن خلال تأملى لموقف الجيل الجديد فى
 حياتنا ، ولشيوخ بعض التفسيرات التى تعفى هذا الجيل من المسئولية
 أحس تماما أن عنصر الإرادة الفردية هام ، ويجب أن ندعو إلى التزامه
 وتنبيه إليه خلال هذه المرحلة . . يجب أن نساهم بإرادتنا فى خلق
 الإنسان الجديد ، والمجتمع الجديد . . والإرادة تقتضى التضحية
 والجهد . . ونحن فى حاجة إلى أن نبذل مزيدا من التضحية

والجهد . . وأن نعمل على مقاومة الظروف التي تعوقنا ، وأن نخلق
بقدر ما نستطيع صورا مثالية من السلوك والفهم . . .

يجب أن تعمل إرادتنا على دفع ظروفنا وتطورنا في سبيل مزيد من
التقدم .

منجم الفحم

فى قصة للكاتب الروسى المعروف « جوركى » يقول البطل لنفسه ، « ما أجل أن يكون الإنسان شيئاً مذكوراً فى هذه الأرض وبين هؤلاء الناس » .

وهذه الفكرة التى يعبر عنها بطل « جوركى » هى فى الحقيقة فكرة متصلة بالطبيعة الإنسانية على وجه العموم ، فالإنسان دائماً يميل بفطرته إلى أن « يحقق ذاته » على أوسع نطاق ممكن ، وتحقيق الذات بالنسبة للإنسان لا يأخذ صورة واحدة وإنما يظهر فى صور متعددة تنقسم فى آخر الأمر إلى قسمين : القسم الأول هو القسم الطبيعى الغريزى الذى يتمثل بصورة واضحة فى الميل الإنسانى العام إلى « الأبناء » . . فالميل الطبيعى إلى تأكيد البقاء والعمل على استمراره يتمثل فى « الأمومة » و « الأبوة » ، فالأبناء هم الامتداد الطبيعى لحياة الإنسان ، ويشعر الإنسان نحوأبنائه بأنه « حقق ذاته » على صورة

ما . . وهذا النوع من تحقيق الذات هو النوع الفطرى الغريزى الذى يشترك فيه كل الناس وبلا استثناء ، غير أن هناك نوعا آخر من الميل إلى تحقيق الذات بصورة مختلفة ، هذه الصورة هى اعتراف « الآخرين » بوجود الإنسان عن طريق اعترافهم بعمل من أعماله وتمجيدهم لهذا العمل ، ويتبلور اعتراف الآخرين بالشخص المعين ، فيما نسميه « بالشهرة » . . إن « الشهرة » لون من تحقيق الذات . . لون من الشعور بالرضا عن النفس ، والشعور بأن وجود الإنسان له ما يبرره ويؤكد له في نظر الآخرين ، وليس من الغريب أن يكون في النفس الإنسانية ميل إلى أن يعرفها الناس ويتحدثوا عنها ويعترفوا لها بشيء من الأشياء ، فالشهرة تزيد شعور الإنسان بالرضا عن نفسه ، وتحقق له ذاته تحقيقا ملموسا ، فالميل إلى الشهرة هو انعكاس طبيعى لرغبة الإنسان في تحقيق ذاته وإشعار الآخرين بوجوده .

ولكن الإنسان العظيم هو الإنسان الذى يذوب في عمل يؤمن به فيلهيه عن كل شيء حوله حتى الشهرة ، حتى معرفة الناس به ، ولا شك أن العطاء الذين ينالون الشهرة هم بشكل عام أقل استمتعا بشهرتهم وإدراكا لقيمتها ، بل هم أقل الناس رغبة فيها ، فالإنسان المشهور عن جدارة هو دون شك إنسان قد تعود على العطاء والعمل المجهد . وغالبا ما يكون قد حرم نفسه من أشياء كثيرة متاحة للإنسان العادى البسيط ، ومثل هذا الإنسان العظيم يشعر دائما بالزهد فيما يحرص عليه الأشخاص العاديون من شهرة واسم لامع أو غير ذلك . . وأحب أن أذكر هنا مثال الكاتب الروسى العظيم

دستوفسكى ، فلقد ملأ هذا الكاتب الدنيا باسمه ومجده ؛ لأن فنه الخالد سوف يظل على الدوام نبعاً باقياً لمعرفة النفس الإنسانية ، وتحليل نزعاتها المختلفة تحليلاً عميقاً مثيراً مليئاً بالحرارة والصدق ، ولا يوجد إنسان في العالم يستطيع أن يصف نفسه بأنه مثقف دون أن يكون قد قرأ شيئاً غير قليل من أدب دستوفسكى ، وقد حاول الكاتب الإنجليزى المعروف سومرست موم أن يحدد أروع عشرة أعمال فنية في أدب العالم كله ، فكان على رأس هذه الأعمال قصة دستوفسكى « الأخوة كرامازوف » .

لا أحد يمكن أن يطمع في أبعد من هذه الشهرة التى نالها دستوفسكى ، ولا أبعد من هذا المجد الذى وصل إليه الكاتب الروسى لأنه مجد باق لن يزول ، إذ إنه ليس مرتباً بسبب من الأسباب العارضة والمصادفات التى لا تلبث أن تنتهى . . . كلا . . بل ان أسباب المجد الذى حصل عليه دستوفسكى باقية ما بقى الذهن البشرى العميق . .

ولكن نظرة أولية بسيطة إلى حياة دستوفسكى تؤكد لنا أنه عاش حياة قاسية رهيبة ، لا حنان فيها ولا صفاء للنفس أو للذهن . . لقد عاش سنوات دامية في صقيع سيبيريا لاشتراكه في تدعيم بعض الاتجاهات الثورية في روسيا ضد النظام القيصرى ، ثم حكم عليه بالإعدام ، وقدم هو وزملاؤه إلى المقصلة بالفعل . . ثم صدر قرار بالعمو قبل تنفيذ الحكم بدقائق ؛ مما أدى إلى أن بعض زملائه الذين شملهم حكم الإعدام ثم شملهم العفو بعد ذلك قد فقدوا عقولهم

من هول ما أصابهم ، ومات واحد من شدة الصدمة ، وعاش
دستوفسكى بعد ذلك حياة شقية تطارده فيها الأمراض العصبية ،
والديون الكثيرة ، حياة أكثر أيامها اضطراب وقلق ، وأقل أيامها راحة
واستقرار . . حياة دامية محزنة لا يستطيع أن يتحملها القلب البشرى
دون أن يصاب بالفرع ، ولا يستطيع أن يتحملها الذهن دون أن
يصاب بالاضطراب والضيق ، إن دستوفسكى لم يكن يجد العزاء
الكافى فى شهرته ومجده ، بل ربما مرت عليه لحظات كثيرة وهو غارق
فى آلامه وديونه وأمراضه ، دون وعى بمكانته الأدبية أو قيمته لدى
الناس ، ودون أن ينفعه شىء من هذا كله .

وربما كان هناك إنسان عادى بسيط ، لا يشعر أحد بوجوده ،
يؤدى عملا يوميا تافها متكررا . . قد يكون هناك انسان على هذا
الوضع الخامل ، ولكن قلبه مفعم بالسعادة والرضا .

إنه يعود إلى بيت متواضع ، وزوجة وفية ولقمة خبز هائلة مع أبناء
بسطاء طبيين . . إنه فى مملكته تلك : سعيد هانىء لا يطمع فى مجد
دستوفسكى بل ربما لا يفكر فيه أبدا ، وربما لو عرض عليه أن
يشترى كل هذا المجد بليلة من لياليه المتواضعة الهائلة لما ارتضاه ، ولا
فكر فى أن يتنازل عن سعادته البسيطة الجميلة فى سبيل ذلك
المجد . .

ومن المعروف عن كاتب روسى آخر هو إيفان تورجنيف أنه لم يتزوج
وأنه عاش حياته ينشد الحنان والحب دون أن يجد شيئا يملأ نفسه

بلحظة هنيئة خالية من التشاؤم والأسى ، لقد كان محروم القلب وهو الفنان الارستقراطى اللامع فى قومه وفى أنحاء الدنيا كلها .

كان تورجنيف يقول أنه مستعد أن يتنازل عن مجده الأدبى كله وشهرته كلها مقابل أن يجد زوجة تشعر باللهفة وهى تنتظره على الغداء إذا تأخر بعض الوقت . . أجل . . كان يتمنى الحنان والحب . . ولو فقد المجد وضخامة الاسم . .

من هذا كله يتبين لنا أن الشهرة ليست هى السعادة بل ربما توفرت الشهرة لإنسان على غاية من التعاسة والشقاء . . وربما توفرت لإنسان لا يشعر أبدا بأنها شىء هام كما يتصور الآخرون .

وبالرغم من هذا فإن الإنسان عموما يميل إلى أن يعرفه الآخرون ، ويجد فى ذلك لونا من المتعة والراحة ، وربما وجد فى ذلك لونا من العزاء الذى يعوضه عما يبذله من الجهد ، وعن العناء الذى يشعر به فى عمله وحياته ، ولا شك أن دستوفسكى وتورجنيف كانا يشعران فى بعض الأحيان بالراحة - رغم ما كانا يعيشان فيه من حرمان وألم - عندما كانا يدركان مكائتهما المرموقة ووضعهما الباهر فى حياة الناس . . على أن الثابت فى النهاية هو أن الشهرة الحقيقية الكبيرة تكلف صاحبها أكثر مما تعطيه ، وأن الذين يسعون إلى الشهرة ويجعلونها هدفا قد يصلون إلى شىء من البريق الخاطف ولكنهم لا يصلون إلى شىء أصيل باق .

وإذا كان الإنسان يميل إلى تحقيق ذاته عن طريق إشعار الآخرين بوجوده فإن مما لا شك فيه أن الإنسان عن طريق الثقافة والتجربة يستطيع أن يصل إلى حالة من التطور النفسى الذى يغنيه عن بعض الميول العادية لدى الآخرين ، إنه يستطيع أن يكتفى بثقافته ووعيه ويمضى فى طريق هادئ يلتبس المذات العليا التى تتصل بالمعرفة والتأمل والفن والاكتفاء الذاتى عندما يشعر الإنسان أنه يعمل شيئا حتى ولو لم يعرفه الكثيرون . . قد يستغنى الإنسان عن ميله الطبيعى للظهور وإشعار الناس بوجوده . . ولكن تظل حقيقة هامة فى حياة الإنسان . . تلك الحقيقة هى أن الانسان قد يبحث عن معرفة الآخرين به بسبب المتعة ، وقد يبحث عنها بسبب احتياجه إليها ، إن الإنسان يحتاج إلى حوافز تدفعه للعمل حيث يستطيع أن يتغلب على ما يصيب النفس من الملل ، ويقضى على ما يعترض مشاعره من فتور وإرهاق ، وتقدير الناس يعتبر من أعظم الدوافع الإنسانية للاستمرار فى العمل بل وللإجادة فيه . .

ويشتد احتياج الإنسان إلى شعور الناس به إذا ما كانت طبيعة عمله من ذلك النوع الذى يلتبس صاحبه ردود فعله فى الآخرين ، فلو حاولنا أن نوازن وما يقوم به « العامل » وبين ما يقوم به « المثقف » لاستطعنا أن نلمس الفرق ، فالكاتب أو الأستاذ الجامعى أو الإذاعى أو المدرس يحتاج احتياجا ملموسا إلى أن يجد نتائج عمله ظاهرة فى آراء الآخرين ووجهات نظرهم ، إن نوع عمله يقوم على « الصلة » بينه وبين « جمهور » ، أما « العامل » فعلى الرغم

من أنه يقوم بدور أساسى فى الحياة فإن عمله محدد واضح وإيجابى ،
 فالعامل الذى يصنع قطعة من « القماش » إنها يكرر نفس العمل كل
 يوم ، ويشارك فى عمله مع عدد كبير من زملائه ، وليس عمله منسوبا
 له وحده بل هو منسوب للجميع ، ثم ان النتيجة العملية وهى « قطعة
 القماش » تخرج إلى السوق لتستخدم « إيجابيا » من الآخرين . .

ولذلك فالعامل لا يكون إنسانا قلقا وهو يؤدي عمله ، ولا يحس
 باضطراب خوفا على مصير إنتاجه العملى . .

إنه بصورة عامة لا يعتمد فى حياته على القلق ، ولا على الصلة
 المباشرة بينه وبين جمهور معين ، ومن هنا فإن المعروف فى علم النفس
 الاجتماعى أن أقل الطبقات التى يشيع بينها القلق والتزعزعات النفسية
 المضطربة هى الطبقات العاملة ، كالفلاحين والعمال . . وأن أكثر
 الفئات الاجتماعية اضطرابا هى فئات « المثقفين » .

فالمثقفون هم الذين يميلون إلى التفكير المعقد فى الأشياء ، وهم
 الذين تمتلئ نفوسهم بألوان متعددة من الطموح ، وهم الذين
 يصارعون رغباتهم النفسية المختلفة ويصارعون عقبات كثيرة فى
 المجتمع والحياة . . عقبات قد تكون واضحة ومنظورة ، ولكنها أحيانا
 تكون غير واضحة ولا منظورة .

وفى مراحل معينة من التطور الاجتماعى تزداد أزمات المثقفين أكثر
 منها فى أى وقت ، ولعل أبرز المراحل الاجتماعية التى تنمو فيها أزمات
 المثقفين هى المراحل التى تتحدد فيها أهداف عامة للمجتمع ،

تفرضها ظروف معينة بحيث تتاح للأفراد حريات مطلقة في التفكير والنظر في الأمور ، فعندما قامت ثورة روسيا سنة ١٩١٧ كان على المثقفين في روسيا أن يستمدوا أفكارهم من النظم الجديدة التي سيطرت على الدولة ، وأن يلائموا بين أنفسهم وبين الظروف الجديدة ، وقد كان هذا الوضع سببا في أن الكثير من المفكرين الذين زاروا روسيا عادوا ثائرين عليها ؛ لأنهم بحثوا عن شيء هام ، وهو « حرية الفكر » ، فلم يجدوه ، وقد أدى هذا الوضع بشكل واضح إلى ضعف الإنتاج الأدبي والفكري في روسيا بعد الثورة . وإن أدى في نفس الوقت إلى ازدهار فنون أخرى كالباليه ، والرقص الشعبي والموسيقى وغيرها من الفنون التي تعتمد على الجماعات لا على الأفراد ، كما أدى ازدهار العلوم العملية كالطبيعة والكيمياء والطب ؛ لأن النظام والدولة وجها إليها عناية كبيرة جدا .

وهذا المثال ينطبق على كثير من الثورات الاجتماعية . . سواء كانت ثورات بانية تقوم على أساس واضح من الرغبة في العمل والبناء ، أو كانت ثورات مضادة تقوم على خدمة فئات استغلالية معينة ، كما حدث في ألمانيا على يد هتلر ، وفي إيطاليا على يد موسيليني ، وفي أسبانيا على يد فرانكو .

ونحن في الوطن العربي اليوم نعيش في مرحلة ثورة وبناء ، مرحلة تهدف أساسا إلى تطوير الحياة المادية للشعب حتى يتخلص من مشاكله الراهنة وحتى يستطيع مواجهة المستقبل بإمكانيات سليمة

تقضى على ما فيه من مشاكل وعقبات . . وكما يحدث في كل ثورة تهدف إلى خدمة الجماعة أحس بعض المثقفين العرب بأزماتهم الفردية الغامرة . . فالمثقف مطالب بأن يفكر بشكل يتلاءم مع احتياجات المرحلة القائمة ، بشكل يتلاءم مع احتياجات شعب يعمل على بناء السدود وخلق المصانع الجديدة وتوسيع الأرض الزراعية ، إن المثقفين مطالبون بالانضمام إلى الشعب العامل في قضيته . وفي هذه المعركة يفقد المثقفون بعض الميزات . . ولكنهم يكتسبون أشياء جديدة هامة وضرورية في مثل هذه المرحلة . . فالمثقفون مضطرون إلى التنازل عن الظروف التي تعمل على ازدهار فرديتهم ، وإرضاء احتياجاتهم النفسية ونزعاتهم الطبيعية ، مثل الاتصال الواسع بالجمهور وتحقيق الذات عن طريق الظهور والشهرة .

قال لي شاب مثقف ذات يوم ، عندما كنت أسأله عن ظروفه وعن الأعمال التي يقوم بها :

« إنني كمن يعمل في منجم فحم ، أبذل الكثير من الجهد ، وأعرض نفسي للخطر ، فأسهر وأقرأ وأحرم نفسي من الحب ومن متع الحياة الأخرى . . ولكنني - كما قلت لك - أعمل في منجم فحم حيث لا يراني أحد ، إنني أعمل تحت الأرض ، كما أنني عرضة للخطر في كل لحظة . . لا من يسمع بي ، ولا من يعرف شيئاً عن أمري . . الجماهير مشغولة بالسياسة ، والدولة مشغولة بالمشاريع . . وأنا وأمثالي ندير أجهزة متعددة . . ولكننا محرومون من الكثير » . . هذا ما قاله

لى الشاب المثقف، وما أقرؤه على وجوه الكثيرين من المثقفين . .
والصورة التى صورها لى الشاب المثقف صورة صحيحة . . إن
المثقفين المخلصين كمن يعملون فى منجم فحم لا يراهم الناس ،
بالرغم من أنهم معرضون للخطر فى كل لحظة . . إنهم محرومون من
الكثير ، ولكنهم مع ذلك يعملون فى جهد ودأب ، إذا عرف الناس
عنهم شيئا فهم يعرفون القليل . . إننا فى عصر من العصور التى تتجه
فيها الحياة نحو الجماعات أكثر من اتجاهها نحو الأفراد ؛ ذلك لأن
ظروف الجماعة تحتاج إلى مزيد من العمل والجهد حتى تتخلص من
أمراضها ومشاكلها ، وبعد ذلك سوف يتاح للشخصيات المستقلة
الخاصة أن تزدهر وتتقدم .

والمثقف المخلص الذى يؤمن بمبادئ عليا ، يرضى أن يكون
عاملا فى منجم فحم . . فمن قلب هذا المنجم العظيم سوف تخرج
مظاهر الحياة الجميلة فى مستقبل هو الخبز للجائع ، والمستشفى
للمريض ، والسلام للناس . . والرخاء والأمن والفن . . وإنها لآمال
عظيمة إذا آمن بها الإنسان ، وأهداف سامية يمكن أن يتنازل الفرد
من أجلها عما تمليه عليه طبيعة نفسه وآماله الذاتية الخالصة . .
إننا فى عصر من عصور التضحية . عصور العمل الضخم والسمو
بالطبيعة البشرية إلى مراحل عالية من إنكار الذات .
ولا بأس فى مثل هذه الظروف من أن نعمل جميعا فى مناجم
فحم . . نتعرض للخطر ولا يرانا أحد . .

ما دمتنا نعمل من أجل شيء نؤمن به . . من أجل المستقبل .

المرأة والفضيلة والحب

حياة وحيدة موحشة .. بلا ذكريات ..

هكذا كانت سعاد تقول لنفسها وهي تجلس في شرفة منزلها المطل على النيل .. وكان المساء هادئا وديعا يوحى بالتأمل .

أخذت تفكر في حياتها الماضية ، وفي الهمس الذي يدور حولها الآن : إنها لم تتزوج .. إنها .. وحاولت أن تطرد تلك الكلمة القاسية التي يقوها الناس عن الفتاة التي بلغت الخامسة والثلاثين دون أن تتزوج ..

كل الصديقات من حولها تزوجن .. وكل واحدة منهن الآن تعيش حياة حافلة ، فيها أطفال وذكريات وآمال .. أما حياتها فليس فيها سوى البراءة والوحدة ، ومسحة من الحزن مرسومة على وجهها ، ولحن من الأسى يعزف دائما في حياتها .. يستقبلها في الصباح وهي ذاهبة

إلى عملها ، ويستقبلها عندما تعود إلى حجرتها في المساء . . وحيدة صامته بلا رفيق .

وسعاد هذه فتاة مثقفة تعمل مدرسة لغة فرنسية .

لماذا وصلت إلى هذا الوضع الذى لم تكن تتمناه أبدا ؟

إنها ليست جميلة . . . هذا صحيح . . . ولكنها ليست قبيحة أيضا ، وهى بالتأكيد ليست أقل جمالا من عفاف ، تلك الفتاة المنطلقة للعبوب التى تزوجت واحدا من زملائها الذين كانت « تعاكسهم » فى الجامعة . .

وهى طبعاً أفضل من سميرة ، بنت خالها ، التى خرجت من السنة الأولى بالجامعة لتزوج .

أما هى فقد أتمت تعليمها الجامعى ، وتخرجت فى قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب . . وهو القسم الذى لم تكن تدخله فى الماضى إلا بنات « الذوات » . . « بنات العائلات » .

وأكثر من ذلك فقد قرأت عشرات الكتب ، وعرفت عشرات الأسماء للكتاب العصريين فى الشرق والغرب .

إنها تعتبر نفسها مثقفة . . إلى جانب أنها جامعية أيضا .

فأين راحت كل هذه الميزات المختلفة المتعددة التى يضاف إليها ويتوجها أسرة غنية حياتها ميسورة ؟ . . فهى تسكن فى الزمالك -

أرقى أحياء القاهرة - وتملك سيارة ، وتحيط نفسها دائما بكل مظاهر الأسرة الناجحة .

لماذا لم تجذب إليها كل هذه الميزات شبابا مناسبين لها ؟ .. كيف تبددت حياتها حتى وصلت بها الأيام إلى هذا الشاطئ الحزين الموحش .. شاطئ الخامسة والثلاثين بلا زواج ، بلا أطفال ، بلا أمل ؟ .

إنها تذكر الثلاثة الذين تقدموا إليها .

لقد رفضتهم جميعا .. وكانت عندها أسباب تبرر لها هذا الرفض دائما ... كان ذلك في الماضي .. ولكنها الآن لا تدري تماما : هل كانت على صواب أم لا .

إن المشكلة كانت دائما عندها مشكلة الأسرة .. كان لابد أن تجد لنفسها زوجا يتناسب مع مستواها الاجتماعي .. وأيضا كانت عندها مشكلة الحرص على سمعتها الخاصة ؛ لأنها لا تحب أن تسمح للناس بالحديث أو بإثارة الشائعات حولها ..

فرغم أن أسرتها غنية لكنها أسرة محافظة .. حريصة على مستواها الاجتماعي تمام الحرص .

فكيف كانت - مثلا - تستطيع أن تقبل محمود ؟

إنه شاب جامعي .. صحيح .. ولكنه من أسرة فقيرة .. فقيرة

جدا . فلو وافقت على الزواج منه فماذا يكون معنى ذلك بينها وبين نفسها ؟

إن معناه الوحيد أنها تنازلت عن مستواها الاجتماعي لأنها لم تجد الزوج المناسب ، ومعنى ذلك أيضا أن الشبان الذين « يملأون العين » قد رفضوها ولم يتقدموا إليها وربما قال الناس : إنها قبلت « محمود » لأنها ليست جميلة بدرجة تسمح لها بالزواج من إنسان آخر .. إنسان أعلى من محمود في المركز الاجتماعي ، وفي مستوى الأسرة .

إنها دائما حريصة على التقاليد تحاول أن ترعاها ، وتحرق لها البخور ، ولا تتنازل عنها أبدا ..

وحتى بعد أن دخلت الجامعة ، وتخرجت منها وقرأت الكتب والصحف ، لم تستطع هذه العوامل كلها أن تزلزل تقديسها للتقاليد ، ومراعاتها المطلقة لكلام الناس .

كان السؤال الذى تلقىه على نفسها باستمرار هو : هل الزواج من « فلان » يناسب التقاليد الموجودة في بيئتها الاجتماعية ؟

وماذا يمكن أن يقول الناس عن هذا الزواج ؟

وكانت الإجابة في الغالب :

عيب .. ما يصحش ..

هكذا قالت لنفسها عندما تقدم إليها محمود ، وعندما رفضته . . .
منذ عشر سنوات تقريبا . .

ولكن محمودا الآن أصبح مدرسا في الجامعة . . وتزوج من فتاة
أخرى ، وهى تقرأ له بين الحين والحين مقالات في الصحف
المختلفة . . . ينادى فيها بآراء متحررة ، ويدعو فيها إلى أفكار
جريئة . . وهو أيضا يكتب قصصاً ناجحة ، مقروءة . . جعلته
موضوعا للحديث عند بعض القراء المثقفين .

والغريب أن سعاد لم تعرف عن محمود في الماضى هذه الميول
الفكرية والفنية . . وهى تعرف الآن لماذا لم تكتشف فيه هذه
الجوانب . إنها كانت دائما تفكر في « وضعه » ، ولم تكن تفكر أبدا في
« شخصه » . . لم يكن يهتمها الميزات التى يحملها في أفكاره أو في
نظرته الخاصة للحياة ، وإنما كانت تفكر في الميزات التى يتميز بها
وضعه في المجتمع . . من ناحية أسرته . . من ناحية مستواه
الاجتماعى . وهى لم تستطع أن تتصور زواجها منه وهو الشاب الفقير
الذى نشأ في حوارى السيدة زينب ، والذى كان لا يزال يعيش في بيته
القديم عندما تقدم إليها . .

فهل تنزل من الزمالك إلى السيدة زينب ؟ مستحيل . .

إنها عندما رفضت محمودا ، لم تفعل أكثر من الحرص على التقاليد
الشائعة المنتشرة في وسطها الاجتماعى . . وهذا هو ما حدث تقريبا
مع أحمد و « على » .

لقد تقدم إليها أحمد ، وكان من الممكن أن تتزوجه . . فمنذ اللحظة الأولى يبدو أحمد ظريفا ذكيا تبدو عليه ملامح التفوق . . ولكن . .

لقد تعرفت على أمه ، فوجدتها « بلدى » جدا . . . إنها لا تقرأ ولا تكتب ، وتحدث بطريقة تخلو تماما من الرقة . . فهي فلاحة جاءت من الريف لتسكن مع ابنها بعد أن تخرج في الجامعة .

فكيف يمكن أن تتزوج أحمد وأمّه بهذا المستوى الخشن ؟ . . . وماذا يمكن أن يقول الناس عنها عندما يعرفون أن هذه هي أم زوجها ؟ .

ولم تسمح لنفسها بالزواج من أحمد عندما واجهتها الكلمات التي ترددت كثيرا في حياتها . . عيب . . ما يصحش وتابعت أخباره بعد ذلك أيضا .

لقد أصبح مدرسا في إحدى مدارس القاهرة . وتزوج فتاة زميلة له في الكلية ، وهي تراهما أحيانا بالمصادفة ، ويبدو أنها سعيدان متفاهمان . . ولكنها لا تتصور حتى الآن كيف وافقت زوجة أحمد على الزواج منه رغم أمه الجاهلة المتخلفة . . ربما كانت أمها من نفس النوع أيضا .

أما الشخص الثالث فهو « على » ، وكان من الممكن أن تتزوج « على » ، لولا أنه جاء إليها بقيود وشروط . لقد طلب منها أن يتعرف

عليها ونخرج معها فلا بد - حسب رأيه - أن يكون هناك حب يسبق الزواج ويكون سببا لهذا الزواج وأساسا له . .

ولكنها رفضت هذا الشرط تماما ، فكيف يمكن أن تخرج معه ويظهرا أمام الناس وحدهما . . . ماذا يمكن أن يقول الناس عنها إذا ذهبا إلى السينما وحدهما أو جلسا في مكان عام ؟ . .

إنها لا تستطيع أبدا أن تقبل هذا الموقف . فربما لم تؤد التجربة إلى الزواج . . فهاذا يمكن أن تكون النتيجة إلا المتاعب النفسية وكلام الناس والإشاعات . .

و . . عيب . . ما يصحش . .

ورفضت « على » أيضا .

وكان من السهل أن تتابع أخبار على لأنه زميل شقيقها . . لقد أصبح طبيبا ناجحا ، وسافر إلى أوروبا في بعثة ، وتزوج فتاة أوروبية قال عنها : إنها تفهمه وتتجاوب معه . . .

وهكذا تسربت الحياة من بين يديها . .

وعادت إلى ذهنها هذه الذكريات بصورة متقطعة ولمحات سريعة وهي تجلس في شرفة المنزل ، وحيدة تحتضن كتابا . . وتأمل حياتها بعد أن بلغت هذا العمر . . الخامسة والثلاثين .

ليس في حياتها حب تذكره فيستريح قلبها إليه ، ليس في « دولابها رسالة » ، رسالة واحدة كتبها شاب من الذين عرفتهم .. لأنها لم تسمح لأحدهم أن يجيبها .. أو يعبر لها عن عواطفه ، ويكشف عن مشاعره الخاصة أمامها .

ليس في حياتها قبلة واحدة ، ولا لمسة يد حانية . كل شيء فراغ إلا من التقاليد ، ومراعاة التقاليد .. والخوف من التقاليد ..



هذه قصة ليس للخيال دخل في خطوطها العامة ولا في التفاصيل ، إنها قصة حقيقية تكشف عن نوع خاص من الفتيات في مجتمعا ..

وهذا النوع من الفتيات هو مزيج من التردد والخوف وعدم الفهم للعصر الذي نعيش فيه وللمرحلة التي نمر بها .. لقد جعلت هذه الفتاة من نفسها حارسة على « التقاليد » التي سمعت بها والتقطتها من الجيل السابق ..

وركبت في مركب « التقاليد » ظنا منها أنها ستصل إلى شاطئ السعادة .. ولكنها وصلت إلى شاطئ « الفراغ الروحي » الكامل .. شاطئ الضياع والأسى والوحشة ..

والذين كانت تخاف منهم في الماضي وتخشى لسانهم .. هم أنفسهم الذين يطاردونها اليوم بكلماتهم القاسية .. إنها لم تتزوج .. إنها عانس .

ولم تستطع هذه الفتاة أن تفهم روح العصر كله ، فظنت أن وضع الإنسان في المجتمع هو شيء مثل لون عينيه لا يتغير أبداً ، ولم تدرك أننا في عصر يتحرك نحو هدف واحد هو : أن يصنع الإنسان نفسه بمواهبه وجهده الخاص .

الإنسان وحده ، هو الذى يحدد قيمة نفسه ، ونوع مستقبله . .
وقد دخلت هذه الفتاة الجامعة ، وقرأت الكتب . . ولكنها كانت تفعل ذلك كما تشتري فستاناً جديداً . . كانت حريصة على المظهر الخارجى ولم تحاول أن تغير عقلها أو قلبها أى شيء . .

★ ★ ★

في مسرحية شيكسبير الشهيرة عطيل يقول « ياجو » لعطيل : إن زوجتك ديدمونة ترقص وتغنى وتحدث مع الشبان . .
ويرد عطيل :

- هذه أشياء فاضلة بالنسبة للمرأة الفاضلة . .

وهذا المنطق سليم . . . فلا يوجد شيء في المجتمع لا يصح أن تمارسه المرأة ما دامت فاضلة . . أن يكون لها أصدقاء من الشباب . . أن تخرج إلى المجتمع بحرية . . كل ذلك جميل . . بشرط أن تكون المرأة فاضلة . .

وهذا هو طريق السعادة . . طريق الوصول إلى تجربة ناجحة في

الحياة . أما هذه الفتاة فلم يكن باستطاعتها أن تنجح ؛ لأنها أطفأت
قلبها تماما . . ولم تسمح لنفسها أن تعرف الحب أبدا . . وسارت في
الدنيا بمصباح وهمي لا يضيء . . . هو مصباح التقاليد .

الزواج الكاذب

الكتاب الذى نقرؤه ، واللحن الذى نُنصت إليه ، والرحلة التى نقوم بها ، والصديق الذى نحب أن نقضى معه ساعة نشكوله ونسمع منه . .

كل هذه الأشياء « حصون » تقيمها النفس لكى تهرب إليها وتحتذى بها فى لحظة العذاب ، فلحظة العذاب هى عدو يطاردك ، يريد أن يحرمك من الحب والطعام والعمل والنوم ، بل إنه يريد أن يحرمك من الحياة نفسها ، وكلما كان الحصن الذى تلجأ إليه النفس قويا ، فإن الانسان يستطيع أن يتغلب على عذابه ويصمد له .

وربما كان من حكمة الطبيعة وعدلها أحيانا أن يكون أكثر الناس عذابا هم أكثر الناس عبقرية ، فالعذاب الذى تعرض له بيتهوفن - مثلا - كان بإمكانه أن يحتمله بفضل موهبته الكبيرة وعبقريته . . كانت

موسيقاه عزاء له عن آلامه ، فكانت هذه الآلام تتجمع في قلبه ولكنها لا تدمره ، لأن ألحانه تقلم أظافر الألم ، وتكسر أنيابه ، وتحيله إلى « عروسة » وديعة يمكن احتلالها .

وبيتهوفن لم يتحرر وحده من آلامه ، بل إنه يمررنا أيضا من آلامنا ، ويساعدنا على أن نلتصم عنده العزاء والخلاص ، وهو نفسه كان يعرف ذلك ويقول : « أتمنى أن يتعزى البائس إذ يجد بائسا قد صنع بالرغم من سائر عقبات الطبيعة كل ما في إمكانه كي يصبح إنسانا جديرا بهذا الاسم » .

ولكن هناك كثيرا من الناس يعيشون وجها لوجه مع « الألم » دون أن يكون لديهم سلاح لمحاربته . . ليست لديهم حكمة ولا عندهم إيمان كبير شامل بشيء ، وليست لديهم موهبة مثل موهبة بيتهوفن ، بل ليست لديهم حتى فرصة الاستماع إلى ألحان بيتهوفن .

ماذا يفعل هؤلاء الناس العاديون وكيف يواجهون آلام الحياة ؟ كيف يستطيعون على وجه الخصوص أن يواجهوا تجربة صعبة عسيرة ؟

تلك هي المشكلة التي يعالجها الكاتب الألماني « ليونارد فرانك » في قصته الغريبة المثيرة « كارل وأنا »^(١) . ففي القصة ثلاثة أشخاص من هذا النوع العادي البسيط ، وقد ربطتهم مأساة واحدة هي الحرب العالمية الثانية .

(١) ترجمها الأستاذ منير يعلبيكي تحت عنوان « رجلان وامرأة » .

أول هؤلاء الأشخاص هو « ريتشارد » ، جندى ألماني بسيط ، دخل الحرب دون أن يفهم معنى لها أو يفهم من ورائها أى هدف ، وليس له أدنى علاقة بالصراع الذى يدور بين هتلر وأعدائه ، ولا همه أن تنتصر ألمانيا أو أن تنتصر إنجلترا . وهو لا يهتم بشيء فى الدنيا غير زوجته « آنا » تلك التى تركها وراءه فى غرفتها المتواضعة ، حتى يعود إليها بعد أن تنتهى الحرب .

إنه لا يعرف حتى كيف « يصفر » لحننا . ولم يقرأ رواية يتسلى بتذكرها فى لحظات فراغه فى الميدان ، وهو لا يعرف « معنى » التأمل فى السماء أو فى الرمل أو فى المساء ، إن حياته متركزة على شيء واحد هو حبيبته وزوجته « آنا » . والحرب بالنسبة له ليس لها إلا معنى واحد هو مأساة افتراقه عن حبيبته ، ولذلك فهو يحلم بانتهاء الحرب حتى يعود إليها ، وكلما فرغ إلى نفسه قليلا أخذ يتذكر كل شيء عنها . . لون عينيها الأسود الجميل ، ولون شعرها القصير الأصفر الخلو ، ولون بشرتها البيضاء الساحرة . . وهو يتذكر أيضا عاداتها : كيف كانت تتكلم ، وكيف كانت تنام ، وكيف تحمل الشوكة والسكين ، وكيف تقدم له الطعام ، كما يتذكر شكل ستائر الغرفة التى كانت تختارها .

« كنت أضطجع دائما على الجزء الداخلى من السرير فى مخاذاة الجدار ، وكانت هى تضطجع على الجزء الخارجى ، وحين كانت تنهض من الفراش فى الصباح لم أكن أسمع لها حسا على الإطلاق . كانت دائما ساكنة جدا . ساكنة إلى أبعد حدود السكينة » .

هذا مثال من خواطره . إنه منذ أربع سنوات يكرر هذه الخواطر نفسها ، ويشعر أنها هي عزاءه الوحيد في هذا العالم . وهذه الذكريات هي الشيء الذى يخفف من حرمانه ، ويمنحه نوعا من الدفء في تلك الحياة المريرة الخالية من أى حنان أو عاطفة . . ليس فيها إلا أزيز الطائرات ، وانفجار القنابل ، وصوت المدافع ، وآهات القتلى الذين يموتون بنفس السهولة التى يموت بها الجراد . وبالرغم من هذا كله فهو يشعر شعورا خفيا بأنه لن يموت ، فهناك شخص « ينتظر عودته » و« يفكر فيه » ، وكأن هذا وحده يكفى لكى يحميه من الموت الذى ينفجر كل لحظة تحت قدميه .

و« ريتشارد » لا يعيش هذه الذكريات بينه وبين نفسه ، بل كان يروى ويكررها كل يوم لزميل له فى الكتيبة هو « كارل » .

و« كارل » هو الآخر جندى بسيط عادى ، لا يفهم عن هذه الحرب التى يشترك فيها شيئا ، ولا يعرف لها أى سبب ، وهو يعانى نفس الحرمان المرير الذى يعانىه زميله ، « ريتشارد » مع فارق واحد يزيده تعاسة وحزنا ، فهو غير متزوج ، بل إنه لم يعرف الحب فى حياته ، وقبل أن يدخل المعركة كانت حياته فارغة شقية ، وهو فى ميدان الحرب يعلم أنه لا يوجد فى هذا العالم من يهتم به ، ليس هناك من يسأل عنه أو يفكر فيه . . فهو محروم . . محروم حتى عظامه !!

ولذلك فهو يستمع إلى زميله « ريتشارد » عندما يروى ذكرياته عن « أنا » حتى لقد أصبحت « أنا » بالنسبة له « إنسانة » قريبة من

قلبه ، وبالرغم من أنه لم يرها أبدا ، فقد أصبح يعرفها جيدا . .
يعرف شكلها وعاداتها وطريقة حديثها ، يعرف كيف تأكل وماذا
تأكل . . يعرف كل تفاصيل حياتها بدقة كأنه عاش معها طويلا
وعاشرها .

كان ينصت بكل قلبه إلى « ريتشارد » وهو يتحدث عن زوجته طيلة
أربع سنوات ، وقلبه فارغ جدا ، وليس فيه صورة لإنسان آخر ، وهو
محروم من الناس حرمانا كاملا . وشخصية « آنا » أصبحت هي
الشخصية الوحيدة التي تمنحه الحنان على البعد ، وأصبحت تملأ
أحلام يقظته ونومه ، إنها الوحيدة في هذا العالم التي أصبح يعرفها
ويحس نحوها بعاطفة عميقة .

وفي هذه الظروف يترك « كارل » - صديق الزوج - ميدان القتال
ويذهب إلى حجرة « آنا » التي يعرف عنوانها بوضوح ودقة .

كانت « آنا » تعيش في غرفتها بالمدينة وحيدة حزينة منذ أربع
سنوات ، قلبها فارغ تماما ، وانتظارها لزوجها طويل وأليم ، ثم إن
« آنا » لم تر زوجها منذ أربع سنوات . . وأخيرا ، وهذا هو الطريق
الأساسي إلى قلبها ، فإن « كارل » يعرف كل شيء عنها . . يعرفه
معرفة تفصيلية دقيقة وسيعاملها على أساس هذه المعرفة .

ودخل كارل غرفة « آنا » . . وقال لها : ألا تعرفينني ؟ . . أنا
ريتشارد . . أنا زوجك ، ولم تصدقه « آنا » بالطبع ، ولكنها فوجئت

به يدخل حياتها في أشد لحظات الحرمان والضيق ، ولم يدع لها فرصة لمناقشته ، فظل يلاحقها بملاحظاته وأسئلته التي استمدها من الأحاديث الطويلة الكثيرة لزوجها الحقيقي !

« ماذا حل بالشوكة القديمة التي كانت كل سن من أسنانها الثلاثة أصغر من الأخرى » .

« إن ستائر النوافذ جديدة ، لقد كانت تلك التي اشتريناها معا صفراء . لقد قال البائع إنها صفقة رابحة . . هل تذكرين ؟ » .

« وأقساط ثمن الأثاث ماذا تخبريني عنها ، يا آنا ؟ » .

ملاحظات متعددة كثيرة من هذا النوع ظل « كارل » يطارد بها « آنا » . وكانت قلاع نفسها تنهار لحظة بعد لحظة ، فهي محرومة جدا ، قضت أربع سنوات لا تعرف غير العمل ، والوحدة والانتظار واليأس . . جعلت الحرب حياتها جافة قاسية ، أصبحت حياتها مثل حياة الآلاف والملايين : بلا طعم ولا معنى . . كانت تحاول أن تعيش من عمل لها بأحد المصانع ، وكان العمل يكاد يطعمها بصعوبة . . كانت حياتها شاقة من الناحية المادية ، والناحية المعنوية على السواء ، ثم وصلها ذات يوم خبر أن زوجها ريتشارد قد « فقد » ، وهذا الخبر غير صحيح ، فإن ريتشارد كان قد وقع في الأسر فقط !

وفي هذا الجو من الأزمة النفسية والحرمان العنيف الذي كانت تعيش فيه « آنا » كان « كارل » زميل زوجها يدبر محاولة عجيبة ، لقد

قرر الفرار من المعسكر والذهاب إلى « أنا » التي يعرفها ويحبها دون أن يراها ؛ فقد أصبحت حياته في المعسكر آليّة لا تطاق ، وأصبح يشعر بحنين عنيف إلى أن يتخلص من حرمانه القاسي بالهرب والذهاب إلى « أنا » الحبيبة البعيدة .

وفي أول فرصة هرب بالفعل من المعسكر . واتجه إلى المدينة التي تقيم فيها « أنا » حيث يعرف بيتها ويعرف الحجرة التي تعيش فيها . . أما « أنا » فقد كان يعرف شكلها معرفة دقيقة « بحيث لو قدر له أن ينظر إليها في شارع من الشوارع المزدهمة نظرة عابرة ، ومن بعيد . . لعرفها في الحال » .

وبعد ثلاثة أشهر من فراره من المعسكر استطاع أن يصل إلى غرفة آنا . . لقد قرر أن يقولها لها « إنه زوجها . . إنه ريتشارد » . . إن الفرق في الملامح ليس خلافا أساسيا ، وكانت آنا تعيش في وحدتها التي استمرت سنوات فأيقظ كارل فيها بعواطفه وملاحظاته الكثيرة كل شوقها إلى مزيد من الحياة . .

وبوما بعد يوم أخذت تتقبل الأمر رغم يقينها أنه يكذب . . إنها تعرف كذبه ، ولكنها في حاجة إليه ، إلى حبه « وكان حبه لها متقدما ، ولكنه كان في الوقت نفسه رقيقا رعوما مثل حب الأم ، ففي البيت ، وفي الشارع ، وفي المصنع ، وفي الطريق ذهابا وإيابا لم يكن يرى غير آنا ، كانت حياته هي آنا » .

وحدث بعد ذلك شيء هام . . لقد أحبته . . لقد تأكدت أنه

ليس زوجها القديم . . ولكنها مع ذلك بدأت تسلم له بكل شيء ، كما لو كان هو زوجها فعلا . ويبحث عن عمل في أحد المصانع وعثر على العمل ، واستغنت هي عن العمل بعد ذلك ، واكتفت بعمله هو ، وأصبح الجيران ينادون كارل على أنه ريتشارد ، وهي مستسلمة لا تعارض ، يملؤها إحساس عميق بالسعادة التي حرمت منها طويلا ، ولا يخيفها إلا احتمال واحد : هو أن يعود ريتشارد الحقيقي فجأة إلى البيت ، وكارل أصبح سعيدا هو نفسه . لقد انتزع سعادته بالكذب والوهم . ومن شدة حرمانه تحول الوهم إلى حقيقة واقعة . وكان الاحتمال الوحيد الذي يخيفه أيضا هو عودة ريتشارد . إن هذا 'الاحتمال يعنى بالنسبة له أشياء عديدة من بينها القتل .

وقد وقع ما كان يخافان منه . فتم تسليم الأسرى وانتهت الحرب ، وعاد ريتشارد ، وأخذ طريقه إلى غرفته ، إلى زوجته الحبيبة القديمة « أنا » ، ورأسه مليء بالأحلام السعيدة . . فهناك سوف يرتقى على صدر حبيبته ، وسوف يخلق لحيته الطويلة ، ويغسل وجهه المليء بالغبار ، وسيعمل حتى يغير ملابسه الممزقة . . أى سيعود إلى الحياة إنسانا جديدا بسيطا ، يطرح عن كتفيه أعباء السنوات الأربع الماضية . . إن « أنا » هي كل أمله الباقى في الحياة .

وعاد الزوج الحقيقي . . واكتشف المأساة كلها ، عرف أن زوجته تعيش الآن في زواج كاذب ، ولكنها مع ذلك تتمسك به ، وانهار « ريتشارد » تماما ، وامتلاأت عيناه بالعذاب ، واعتصر الألم قلبه ،

وعرف الآن أن مكانه في العالم قد ضاع ، إنه لا يستطيع أن يغسل وجهه أو يستريح من عناء السفر وانهد ريتشارد على كرسى قديم وجلس يحرق في الفضاء بعينين فاض بهما الهم . . أما كارل زميله الجندي القديم وأنا فقد قررا أن يرحلا إلى بعيد . . ويتركا في غرفته وحيدا حزينا ، وماذا تفيد الغرفة بعد أن خرجت منها أنا الحبيبة ؟ .

سار كارل وأنا ، والأولاد الصغار يرمونها بكرات الثلج ، واللعنات تنصب عليهما من الجيران الذين اكتشفوا الحقيقة .

هذه هي سيمفونية العذاب التي قرأتها مع الأنباء التي جاءت من أطراف الكرة الأرضية تقول : هنا شرارة حرب . . وهناك شرارة أخرى .

ولماذا تقوم الحرب ؟ . . لكى تتعذب « أنا » كل هذا العذاب ويحترق ريتشارد في نيران لا يعرف من أين تأتي ولا أين يذهب من لهيها المخيف ، ولكى يعيش كارل في وهم كاذب ويتصور من شدة حرمانه أنه حقيقة .

وتصبح الحياة بالنسبة لأمثالهم من الناس العاديين الذين لا حيلة لهم : ضيقة ، قاسية ، لا تعرف الرحمة ، وليس فيها أبدا طريق للنجاة .

ويقول المؤرخون بعد ذلك في بساطة : هذه جريمة حرب !

العاشقة

من أين تأتي شرارة الحب الملتهبة الجميلة ؟

هل تنطلق من النجاح في الحياة العملية ؟ أم أن مصدرها هو الوجه
الوسيم والمظهر الأنيق ؟ أم أنها تنطلق من حلاوة الحديث وذكاء
السلوك ؟

ما هي بالضبط « الصفة » التي تحس المرأة أمامها أن قلبها يتحرك
وتتفتح أبوابه ونوافذه ويحتضن الشخص الآخر . . . وبعدها تقول عيون
المرأة وتصرفاتها . . . ويقول وجهها إنها تحب . . :

ما هذه الصفة الساحرة ؟

من المؤكد أنه ليس هناك صفة محددة يمكن أن تكون سببا ثابتا
ونهايا للحب ، فلكل عصر مثله الأعلى الخاص به للرجل والمرأة
معا ، ولكن . . . هناك دائما قاعدة عامة رئيسية تدور حولها عاطفة

الحب ، وقد تتغير التفاصيل والجزئيات ولكن تظل هذه القاعدة العامة هي الأساس .

هذه القاعدة العامة هي التي يكتشفها ويحدثنا عنها الفنان الرقيق الحزين « إيفان تورجنيف » في إحدى قصصه الجميلة الرائعة ، وهي قصة « ذات مساء » .

وبطلة القصة هي « ليزا » إنها فتاة مثقفة جميلة ، كل شيء في حياتها قد نضج . . أنوثتها وعقلها وإحساسها الذكي الجميل بالحياة . . ولكنها تنتظر شيئاً واحداً . . وهو سبب الحيرة والقلق في حياتها . . إنها تنتظر الفارس الذي يملأ حياتها ، ويقول لها ، وهي الوردة الجميلة في حديقة الحياة : « أنت جميلة . . إنني أحبك » . .

فمن هو الرجل الذي يمكن أن تحبه هذه الفتاة الناضجة ؟ من هو صاحب اليد الخانية التي يمكن لقلب هذه الفتاة أن يستقر معها كما يستقر عصفور جميل على غصن أخضر ؟

ويدأ الرجال يظهرون في حياة « ليزا » ويحاولون أن يكسبوا قلبها . وكان أول الرجال فنانا يصنع التماثيل ، وهو شاب وسيم ظريف ، ولكنه « مهووس » وطائش ، إنه يقفز أمامها ويغنى ويهدد بالانتحار إذا لم تتجاوب معه ثم يقرر في اللحظة الحاسمة أن يؤجل الانتحار . . وهو لا يخفى في قلبه شيئاً . . كل شيء يحس به يظهر على لسانه . . ويتحدث وهو يصنع تماثلاً لحبيسته ، ويجرى في كل مكان ليعلن عن

حبه ، وهو أيضا لا يهتم بأحد . . ولكنه مشغول تماما بعمله الفني
ويحبه . .

وتحس من هذه الشخصية أنها لا تتميز بالاستقرار النفسى ، ولا
تعرف لها هدفا محددا كما أنها لا تبصر أبعد مما حولها . . إن هذا الفنان
الطائش يريد أن يلمع وينجح ، وهو يريد أيضا أن يتتصر فى الحب
ليقول للناس إنه يحب فتاة جميلة وإنها تحبه ثم يتحدث الناس عنه أنه
صاحب التماثيل وزوج الحسنة . وأحست « ليزا » بقلبيها يخفق لهذا
الفنان ، ولكن درجة النبض ليست هى أبدا درجة الحب . ربما كانت
إعجابا بمهارة هذا الفنان الشاب ، وربما كانت استمعا بسذاجته
وشخصيته الطائشة الظريفة المسلية ، وربما كان هذا الإحساس نوعا
من راحة المرأة عندما تحس أن رجلا يحبها ، حتى ولو لم تبادلها هذا
الحب . ولكن هذا الفنان ليس أبدا هو الفارس المنشود ، ليس الرجل
الساحر ، ليس الأمل الذى يهز حياتها ويفتح أبواب قلبها بعمق
وحرارة .

ثم جاء الرجل الثانى . .

إنه فى قمة شبابه أو فى بداية شيخوخته . . إنه فى الأربعين . .
رجل هادئ وديع وعميق الثقافة واسع المعرفة . . وكما أثار « الفنان »
فيها حاستها الفنية ، ولس عندها « حبه للجمال » ، فقد لمس الرجل
الثانى فى نفسها « حبه للمعرفة » . . إنها تريد أن تعرف . . تريد أن

تتعلم . وهى بحاجة إلى من يقودها إلى هذا العالم الواسع ، عالم المعرفة .

وقد وجدت فى الرجل الثانى هذه الصفات كلها ، إنه يختار لها الكتب التى تقرؤها ويشرح لها المشكلات الفلسفية الصعبة ، ويفسر لها العالم تفسيراً دقيقاً مليئاً بالعمق .

وقد أحست من تصرفاته أنه يحبها . . ثم . . اعترف لها هو بهذا الحب . . وخفق قلبها أيضاً .

ومرة أخرى لم تكن درجة النبض هى درجة الحب ، بل كانت « إعجاباً » واعترافاً بالجميل . . إن هذا الفيلسوف الهادى لا يدخل إلى حياتها من باب العاطفة أبداً بل من باب العقل . إنه بارد كأنه ثلاثة لا تحس معه بدفء الشمس ، بل تحس ببرودة ضوء الكهرباء . . وهى لم تمش فى حياتها هذا المشوار الطويل فى البحث عن عاطفة صادقة لكى تضع قلبها آخر الأمر فى ثلاثة باردة هى فلسفة هذا الرجل وأفكاره وثقافته . وهكذا لم يفتح قلبها أمام الفنان الطائش ذلك الكائن الزئبقى المندفع المدعور كأنه أرنب صغير ، ولم يفتح قلبها للفيلسوف الهادى العميق ذلك الذى يحملها إلى عالم جميل ولكنه بارد كالثلج . .

وظلت حائرة يبحث قلبها عن عش ، واستولت الحيرة على حياتها ، وأصبح الظمأ إلى الحب عندها شديداً عنيفاً ، يملأ يقظتها بالشروء ويملاً أحلامها بالفزع والإحساس العميق بالوحدة والكآبة .

وذات يوم تعرفت عليه . .

إنه شاب يبدو على وجهه الذكاء والحزن والعذاب ، وهو مريض نحيف ، ولكن عينيه تشعان بإصرار غريب وجاذبية كبيرة تلفت النظر إليه . . وكذلك تبدو عليه مظاهر البؤس والشقاء ، ولكن هذه المظاهر لم تجعل وجهه الشاحب يفقد روعة الكبرياء والاعتزاز الصامت بالنفس . وكانت كلماته قليلة متناثرة . . ولكنها قوية . . حاسمة . .

وخفق قلب ليزا . . وكانت درجة النبض في هذه المرة مرتفعة جدا . . ولم تنم ليزا ليلتها . . أخذت تفكر في « انساروف » صاحب هذا الوجه الشاحب والكلمات القليلة الحاسمة والكبرياء التي تختلط بالحزن والأسى . . لقد أحببت . . وبدأت حرارة الحب تتسلل إلى عروقه ، ويوما بعد يوم كانت حرارة الحب ترتفع وتزداد حتى ملأت حياتها وأصبح كل شيء فيها ملكا لهذا الحب الكبير .

ولكن من هذا الشاب ؟ .

إنه ناثر من بولندا يتعلم في روسيا ، وهو ناثر على روسيا التي كانت - أثناء كتابة القصة - تستعمر بولندا .

وذات مساء اتفق الحبيبان على أن يلتقيا ، وكانت السماء تمطر مطرا شديدا ، وكان مكان اللقاء هو أحد الشوارع الخالية .

وتحت المطر الشديد وفي الشارع الخالي ، والناس كلهم يجتنبون من العاصفة الممطرة في بيوتهم ، ارتمت ليزا على صدر حبيبها وقالت له وهي تلهث وتبكي : أنت حبيبي . . أنت زوجي أمام الله والناس . .

وقال لها انساروف : يا حبيبتى .. أنا فقير جدا ولا أملك شيئا .
صحتى منهارة ، فأنا مريض ومستقبلى مهدد ؛ لأننى مصمم على أن
أعود إلى بلدى لأشترك فى الثورة على بلدك . فهاذا يمكننى أن أقدم
إليك ؟ إننى لن أتنازل أبدا عن واجبى فى الثورة ، ولن أتردد فى أن
ألقى بنفسى فى نار المعركة الحاسمة من أجل حرية بلدى ...
ولم تدعه ليزا يكمل كلامه .

لقد احتضنته بحرارة وأسكتته بشفتيها ثم قالت له :

- يا حبيبى لا تنقل شيئا ، أنا معك إلى الأبد ، وسأترك أسرتى
ووطنى وأصطحبك إلى أى مكان فى العالم ، أنت حبيبى وأنت وطنى
وأسرتى ..

وانفقوا على أن يسافرا معا ، وتركتم ليزا أسرتهما وبلادهما ، مع
معارضة أهلها وأصدقائها .. ولكنها لم تعبأ بشيء .. لقد اختارت
حبها واندفعت إلى المصير المجهول مع حبيبها الثائر .. المريض
الفقير ..

وذهبت معه إلى بلاده ..

وهناك مات حبيبها بالسل ، ولكنها لم تعد .. بل كتبت رسالة إلى
أهلها تقول إنها لن تعود ، وإنها ستواصل عمل حبيبها فهذه هى
الطريقة الوحيدة لكى تعيش معه رغم موته .

هكذا يعطينا تورجنيف صورة للقوة الأساسية التي خلقت الحب الحقيقي في قلب تلك الفتاة . إنها قوة تعتمد على صفتين هما : الحيوية والصدق : فقد كان انساروف شخصية ملتزمة قوية تعيش في وسط المخاوف كأنها تعيش في حديقة آمنة .

وكان صاحب هدف عميق محدد . . وهو هدف مثير : حرية وطن واستقلال شعب . ولقد تحول هذا الهدف الكبير عند « انساروف » إلى « مبدأ صوفي » . مبدأ يجعله غنيا عن العالم ، فهو فقير . . ومع ذلك يتصرف بكبرياء كأنه أغنى أغنياء العالم ، وهو مريض . . ولكنه يخطو في الحياة خطوات الأصحاء ، ويشعر أن الدم الباقي في عروقه هو دم ثمين لأنه يستغل كل قطرة منه في سبيل هدفه الكبير .

وهكذا وجدت تلك الفتاة حبها ، فالفنان المهوروس الطائش . . قادها إلى حب الفن ، والفيلسوف الثلجي البارد قادها إلى حب المعرفة ، أما الثائر فقد قادها إلى حب الحياة بما فيها من عذاب وسعادة وابتسامات ودموع ، بأوراقها الخضراء المليئة بالندى ، وأوراقها الصفراء التي يتكاثر عليها الغبار . .

ومن هنا تحولت الفتاة إلى « عاشقة » ووجدت في قلب حبيبها : الوطن والأمل والسعادة . . لقد عرفت شرارة الحب من الحيوية والصدق .

الهاربون من الحياة

هذا الوجه الصامت الكئيب ، تلقاه في الشارع .. أو في
المقهى .. أو في مكان العمل .

انتبه إليه جيدا .

إن صمته الخارجى يدل على أن الكلام الذى بداخله كثير ، وأنه
كلام صعب لا يقال .

إن صمته إنذار وقرار .

إنذار للحياة بأن صاحب هذا الوجه الصامت الكئيب سوف يرد
عليها بتصرف فيه رفض وفيه احتجاج ..

وقرار من صاحب هذا الوجه بالخروج من الصراع والتردد .. إلى
حل يعطيه السلام وطمأنية النفس .

إلى كأس من الخمر .. لا تفرغ .. إلى طلقة رصاص واحدة
يضرها بيده اليمنى في رأسه .. إلى عزلة في حجرة تقطعت كل الخيوط
بينها وبين الحياة : فلا زوجة .. ولا صديق .. ولا أم .. ولا
أمل ..

إنه قرار بالفرار والهروب ..

ولكن : لماذا نهرب من الحياة بالنسيان عن طريق السكر ، أو
بالانتحار ، أو بالعزلة ... وأحيانا بالخروج من الحياة العادية إلى
استراحة رمادية ، اسمها مستشفى المجانين ؟

لقد شغلت هذه المشكلة كل المفكرين في العالم .

الكاتب الروسى الكبير « أنطون تشيكوف » يقدم لنا في إحدى
« قصصه » صورة لهذه المشكلة تتمثل في شخصية ممثلة . بدأت هذه
المثلة حياتها بتفاؤل وإشراق ، وكانت من أسرة ميسورة الحال ، مات
أبوها وترك لها ثروة .. واختار صديقه الأستاذ الجامعى وصيا على
الفتاة .

أحبت الفتاة المسرح ، وقررت أن تصبح ممثلة ، والتحقّت فعلا
بإحدى الفرق المسرحية .. وكانت هذه الفرقة تسافر وتنتقل بين بلاد
مختلفة .

وكانت الفتاة - واسمها كاتيا - تكتب لوصيها رسائل تفيض
« بالشباب والصفاء الروحى ، والبراءة السامية » .. كانت تصف

الطبيعة بعشق .. وتحدث عن المسرح بحرارة وحماس .. أما المستقبل فكان في نظرها مليئا بالزهور .

كان للحياة في شعورها طعم .. طعم جميل ..

وبعد شهور كتبت لوصيها تقول : « لقد وقعت في الحب » .

. وإزداد إحساسها بنشوة الحياة .. ازدادت تعلقا بالمسرح وإيمانها بالمستقبل .. أما الطبيعة فقد أصبحت في نظرها أكثر جمالا وروعة .

ومر عامان ..

ثم بدأت تكتب لوصيها رسائل تفيض بالملل والشكوى ، فراقها في المسرح « عصابة من المتفيعين الذين لا نصيب لهم من علو النفس .. إنهم قطع من المتوحشين الذين لم ينضموا إلى المسرح إلا لعجزهم عن الاشتغال بأى عمل آخر ، ولم يسموا أنفسهم ممثلين إلا من قبيل التبجح ، ولا يوجد بينهم شخص واحد موهوب . ولكنهم خليط من التافهين والدسائين والسكرارى والنمامين » .

وبعد فترة أخرى كتبت إلى وصيها تقول : « لقد خاب ظنى أفسى خيبة .. ولن أحتمل الاستمرار فى الحياة ، فأصنع بهالى ما تراه » .

وعرف وصيها بعد ذلك أن حبيبها قد هجرها ، وأنها قد حملت وولدت طفلا من حبيبها الغادر ، ولكن الطفل مات ، أما هى فقد حاولت الانتحار وتم إنقاذها فى آخر لحظة .

وعادت إلى بلدها ، حيث يعيش الوصى عليها ، أستاذ الجامعة . . أصبحت قليلة الكلام . . كثيرة الصمت . . كانت تذوق الطبيعة فأصبحت الطبيعة بالنسبة لها كأنها كتاب في يد أمي لا معنى لكلماته وحروفه . . كان قلبها مليئا بالأحلام فصارت تعيش بلا أحلام . كانت كلماتها متحمسة مليئة بالشوة . . فصارت كلمات صفراء تهبط من لسانها في صمت كأوراق الخريف . أما الناس فلم يعد لهم معنى . . ولم تعد تحس بهم إذا جاءوا إليها أو ابتعدوا عنها . . أما الفن - الموسيقى أو الرسم أو القراءة - فلم يعد فيه لذة ولا متعة . . لقد فقدت شهيتها المعنوية وأصبحت نفسها مشلولة عاجزة .

واستمرت هكذا لفترة من الوقت ، لا عمل لها إلا أن تعيش من ثروة أبيها الباقية . . وأن تزور الوصى عليها بين الحين والحين .

وفجأة تحرك في نفسها ألم فظيع . لقد هاجمها سؤال واحد هو : ماذا ينبغي أن أفعل ؟

إن الحياة أصبحت بالنسبة لها صعبة ، وهي « لا تستطيع الاستمرار على هذا النحو . . إن ذلك فوق طاقتها ، وبدأت تشعر أنها لا تستطيع المضي في هذه الحياة » .

لقد فقدت « الهدف » من الحياة ، وتلك هي المأساة .

ما الذي يمكن أن تفعله ؟ لقد عصرت براءتها وصدقها وحاسها للحياة في عاطفة حب نحو رجل وقدمتها إليه . . فتركها وهي حامل

منه . . كذب عليها . . ووضع زهرة حبها الجميلة تحت أقدام احتياله
ووضاعته .

وكانت تظن أن الفن أخلاق . . فأحبت المسرح كفن . . وأحبه
أيضا لأنه مهنة حبيبها الفنان . . وبعد ذلك اكتشفت الزيف الذي
يغطي هذه المهنة الجميلة ، والكذب العميق الذي غرق فيه حبيبها
حتى أذنيه ؟

أصبحت الحياة بلا هدف . . وقد حاولت أن تعتزل وتهبط بعيدا
عن العالم ، ولكن السؤال عن « هدف الحياة » حطم زجاج وحدتها
واقترح عليها البيت .

وقررت أن تسافر بعيدا . . لعلها تجد جوابا للسؤال الملء
بالعذاب .

ويتركنا الكاتب هنا . إنه لا يقول لنا أكثر من أنها راحلة إلى
بعيد . . ولنا أن نتصور بعد ذلك أى شيء . . أن تنتحر . . أن تعود
إلى عزلة أكثر قسوة من عزلتها الأولى . . أن تصاب بالجنون .

المهم . . . لقد هربت من الحياة .

وفي هذه القصة نلمح تأثير الظروف الاجتماعية على نفسية
الإنسان ، فلو لم يكن مجتمع الفتاة مليئا بالكذب والاحتيال . . لما
فقدت إحساسها « بهدف الحياة » ، ولاستمرت تحب الحياة وتحمس
لها . ويجب ألا ننظر إلى هذه القصة على أنها قصة حب فاشل . .

فَعَشْرَاتِ الْفَتَيَاتِ يَفْشَلْنَ فِي الْحُبِّ . . وَلَكِنَّهُنَّ لَا يَقْعَنُ فِي كُلِّ هَذِهِ
التَّعَاسَةِ الدَّائِمَةِ . . أَمَّا مُشْكَلَةُ الْمِثْلَةِ فَهِيَ هُنَا - فِي جَوْهَرِهَا - أَنْ
الْفَتَاةَ اكْتَشَفَتْ خِلَالَ تَجَرُّبَتِهَا أَنَّ الْحَيَاةَ خَالِيَةً مِنَ الْمَعْنَى . . خَالِيَةً مِنَ
الْهَدَفِ .

عَلَى أَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ الْإِنْسَانُ عِنْدَمَا يَفْقَدُ الشُّعُورَ يَهْدَفُ
فِي الْحَيَاةِ لَيْسَ مَصْدَرُهُ فَقَطِ الظُّرُوفُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ .

فَقَدْ تَكُونُ رَغْبَتُنَا فِي الْهَرُوبِ مِنَ الْحَيَاةِ نَتِيجَةُ « لَعَجْزِنَا الشَّخْصِي »
عَنِ الْعَثُورِ عَلَى هَدَفٍ مَا لَهُذِهِ الْحَيَاةُ .

وَقَدْ نَعْجِزُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى هَذَا الْهَدَفِ بَعْدَ تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ وَتَأَمُّلٍ
وَاسِعٍ فِي الْأَشْيَاءِ .

وَيُرَوِّى لَنَا الْأَدِيبُ الْعَالِمِيُّ مَكْسِيمُ جُورْكِى قِصَّةً مِنْ هَذَا الطَّرَازِ ،
إِنَّهَا قِصَّةُ الْمُتَشَرِّدِ « كَانُوفَالُوفِ » الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ خَبَازًا ، وَكَانَ أَمِيَّا
لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ . وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَأَثَّرُ جَدًّا بِمَا يَسْمَعُهُ مِنْ رَوَايَاتِ
وَأَحْدَاثِ .

لَقَدْ انْتَحَرَ هَذَا الشَّخْصُ !

كَانَ يَقُولُ : « إِنِّي لَا أَجِدُ فِي دَاخِلِي شَيْئًا أَتَشَبَّهُ بِهِ . . لَقَدْ
ظَلَلْتُ أُبْحَثُ عَنْ هَذَا الشَّيْءِ وَأَتَوَقَّعُ إِلَيْهِ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَعْثُرَ
عَلَيْهِ » .

ثُمَّ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ : أَنَا الْمُلُومُ .

وكان لهذا الرجل - رغم بساطته وتشرده - ملاحظات غريبة على الحياة والناس ، فهو يقول مثلا : « إننا دائما نشكو من الغير ، ولكننا بشر مثلهم ، فكأننا أيضا عرضة ن يشكو منا الغير ، وإذا كان هناك من يعترض طريقنا ، فلا بد أننا أيضا نعترض طريق غيرنا » .

ويقول . . « إن الناس ينشئون المدن ويشيدون البيوت ، ويحتشدون في جماعات ، ويفسدون الأرض ، ويختنقون ، ويقف بعضهم في طريق بعض . . لماذا نعيش في جماعات كبيرة إذا كان من العسير على شخصين أو ثلاثة أن يعيشوا معا في وئام » .

هذا نوع من تأملات هذا المتشرد الغريب ، وهي تأملات مليئة بالحكمة والتجربة . ولقد وصل إلى هذه النتائج الفلسفية عن طريق التفكير الشخصي والتجربة الخاصة لا عن طريق القراءة .

يقول جوركي عن هذا الرجل : « إن سوء الحظ قد قضى على هذا الجسد القوي أن يولد وبين جوانحه قلب رقيق . . ومن هنا فقد ظل هذا الكيان أمام غزوات الحيرة ، وسموم التخبط في شئون الحياة » .

أما هو فكان يقول عن نفسه أشياء غريبة :

« لماذا جئت إلى هذه الدنيا القائمة المزدهجة ؟ ولماذا قدر لأمي أن تنجبني في هذه الحياة ؟ ! » .

« إنني لا أمنح أحدا غير الأسى ، ولو أنك تأملت حياتي جيدا لتساءلت معي : من الذي أسعدته يوما ؟ . . إنني لم أسعد أحدا رغم

أننى عرفت أناسا كثيرين فى حياتى . . إن فى كيانى شيئا فاسدا .
« من الذى يحتاج إلى ؟ لا زوجة هناك ، ولا أولاد ، ولا مكان أستطيع
أن أقول إنه دارى . . بل إننى لا أملك مجرد الشوق إلى شىء من
ذلك . . وإنما أواصل العيش فى شقاء ، دون أن يدري أحد أى مبرر
لحياتى .

« ليس فى داخل شىء أتشبه به » .

وقد ظل البحث عن هذا الشىء ، الذى هو هدف الحياة ، ينخر
فى عظام هذا الرجل حتى قضى عليه . . وانتحر !

كان يتمنى أن يكون قادرا على إسعاد أحد . على أن يحس فى
داخله شوقا لإنسان ما . كان يتمنى من أعماقه أن يفعل شيئا يجعل
انسانا فى هذه الدنيا يحتاج إليه .

لو وجد شيئا من هذه الأهداف فى حياته لاستراح :

ولكنه لم يجد . فاندفع وراء الخمر ، وكان يقول عنها . . إنها تجرف
الهموم . وترك الاستقرار إلى الحركة والرحلة الدائمة . . لعله يجد
أشياء جديدة . . وجوها جديدة . . تجارب جديدة .

ولكنه لم يجد الحل . . فانتحر .

إن السكر لا يعطيه سوى وهم مؤقت ، ولا يمكن أن يكون مبدأ
من مبادئ الحياة ، والرحلة الدائمة لم تقتل شعوره بالضيق
والحزن . .

انه لا يجد شيئاً يرشده إلى الصواب .. إلى الحقيقة ..

وهو في غاية الإنصاف للناس ؛ وهو لذلك لم يتهمهم بصنع مشكلته .. فالمشكلة العسيرة التي يعانها ليست هي : الناس .. وإنما هي نفسه الخاوية من الداخل !

إن عدم العثور على هدف في الحياة هو سبب الهروب منها .. والذين يحددون هدفاً معيناً في الحياة ثم يكتشفون أنه زائف لا يختلفون عن الذين لا يحددون هدفاً من الأساس .. وقد يبدو العثور على الهدف مسألة ميسورة .. ولكنها في الحقيقة أصعب مشاكلنا في هذه الدنيا !

إن الثروة أو البيت الأنيق أو الزوجة الجميلة .. كل ذلك قد يكون من أتعس مظاهر الحياة ، إذا لم نجد هدفاً نؤمن به ، ويضئ طريقنا ونفوسنا باستمرار .

وأصعب الأشياء في الحياة يمكن احتياها إذا كان هناك هدف .. فالفقر والإجهاد والضنى .. كل هذه الأشياء لن تمنع الابتسامة عن وجه إنسان له هدف ..

وأجل الأهداف في حياتنا ما كان مبنيًا على الفهم والعدل .

فالذين يترأى لهم أن هدفهم في الحياة هو أن ينجحوا بأي ثمن ، حتى ولو كان ذلك على حساب الآخرين .. هؤلاء ينصبون مصيدة عنيفة لأنفسهم سوف يقعون فيها حتماً ..

إنه هدف خاطيء مبنى على الظلم .

ومثلهم هؤلاء الذين يضعون على أكتافهم أقسى الأعباء فى بداية العمر ، ويظنون أنهم سوف يغيرون الحياة بللمسة واحدة . . ثم يكتشفون شيئا فشيئا أن الحياة لا تعطيهـم فرصة لتحقيق هذا الهدف الضخم الذى تصورهـ .

. وفى سن الثلاثين ، فى عز الشباب ، يصبح الواحد منهم منهارا يائسا كأنه فى الثمانين من عمره ملء بالفشل !! .

إنه هدف مبنى على الطموح الخاطيء . . وعدم الفهم . . وهذا هو الخطأ الأصلى وجرثومة العذاب والشقاء .

لابد أن يكون للإنسان هدف واضح وجميل . . .

ولابد أن يكون للمجتمع أيضا هدف واضح وجميل . . .

وبدون هدف يسعى إليه الإنسان ويسعى إليه المجتمع . . . بدون هذا الهدف تتحول الحياة إلى جحيم .

صور وخواطر

١ - امرأة وحيدة

كانت الساعة العاشرة مساء أحد الأيام .

كنت أسير وحدى فى أحد الشوارع ، وفجأة لمحت فتاة تجرى نحوى ووجهها مدعور ، وكانت الفتاة تنادىنى باسمى فى إلحاح ولهفة ، وتكاذ تمسك بى من فرط الخوف . وأسرعت إليها .

إنها فتاة وديعة رقيقة خجول تعمل « سكرتيرة » فى مكتب رئيس تحرير الصحيفة التى كنت أعمل بها . لم أكن قد تبادلت معها أكثر من كلمات التحية العابرة ، وأن كنت أشعر دائماً أنها إنسانة هادئة رقيقة وديعة .

ما الذى حدث فأفزع هذه البراءة كلها وهى تمشى وحدها فى

« أمان الله ؟ » . . قالت لى الفتاة فى صوت مضطرب وكلمات مرتعشة : إن هناك عربية تطاردنى منذ خرجت من عمل فى طريقى إلى البيت . . . وإن العربية اقتربت منها ، وما زالت تطاردها . . . وإن الذين بداخل العربية يلقون فى أذنها بكلمات جارحة .

ثم قالت لى أنها ترجونى أن أقف معها قليلا حتى تمضى العربية . . الذئبة .

وهدأت من روعها وسرت معها حتى ركبت « المترو » . وفى الخطوات القصيرة التى سرنا فيها معا قلت لها : لماذا تعملين فى الليل ؟

قالت :

لأننى طالبة بالنهار . . . أدرس فى كلية الآداب . وبعد قليل من الصمت قالت : هذه أول مرة تحدث لى . . . آسفة لأننى أزعجتك . وغاب وجه الفتاة عنى ولكننى لم أستطع أن أنسى وجهها البرىء وقد اكتسى بصفرة الخوف والفرع . وكنت أفكر فى شىء واحد هو : أن بعض الناس فى مجتمعنا ما زالوا يؤمنون بأن « المرأة الوحيدة فى الطريق » ليس لها سوى معنى واحد . . . هو أنها امرأة ساقطة . والحقيقة أن أصحاب هذه العقلية هم الساقطون . فهناك امرأة تمشى فى الليل وحيدة لأنها تعمل وتكافح وتضنى شبابها وقلبها من أجل حياة جديدة !

هناك نساء جديديات في وطننا الجديد .

واللعنة على هؤلاء الذين أفزعوا الوجه البريء لفتاة مكافحة تمشى
وحدها في الطريق .

اللعنة على الذين يركبون العربات وهم لا يستحقون المشي على
الأرض .

اللعنة على الذين لا يحترمون الفتيات الوحيدات .

٢ - أمى

كانت علاقتى مع أمى مليئة باللحظات العميقة التى لا تنسى . . . كابت أمى فلاحه لا تعرف القراءة والكتابة ، وكانت ظروف حياتنا الأولى صعبة وقاسية ، وكنت أحس دائما أن أمى تحتمل أكبر جانب من مسئولية حياتنا بشجاعة كبيرة ودون أن تشكو . . . فهى أقلنا طعاما ، وأكثرنا أسى و حزنا وصبرا وكفاحا ، وهى دائما تقف بعيدا عن المسرح عندما تكون هناك ثمرة من ثمرات الكفاح أو لون من ألوان الفرح .

وبعد أن تخرجت أنا فى الجامعة بعام ماتت أمى . . . أى قبل أن تستمتع بثمرة واحدة من ثمرات كفاحها من أجل أولادها . . . وأنا أكبرهم .

وكنت أشعر أنها إنسانة سيئة الحظ جدا . . . فقد ماتت نتيجة كفاحها الطويل بعد مرض استمر ثلاث سنوات متصلة . . .

وماتت فى القاهرة ، وقررنا أن ندفنها فى قريتنا التى تبعد عن
القاهرة بمائة وعشرين كيلو مترا . . . وسافرت أنا بالقطار على أساس
أن أنتظر جثمانها الذى كان مقررا أن يصل ظهر اليوم نفسه . . . ولكنه
تأخر . . وتأخر . . ولم يصل إلا بعد الغروب .

وعلمت أن سبب التأخر كان راجعا إلى أن عربة الموتى التى كانت
تنقلها . . . أصيبت بخلل شديد فى الطريق . .

وتأملت لسوء حظ أمى حتى بعد الموت ، ولكنى كنت مسيطرا على
نفسى تماما ، فلم أبك . . . وخصوصا أننى كنت أظاهر بالتماسك
أمام إخوتى الصغار .

وصلينا عليها فى الجامع . . . ومشينا فى الجنازة . . . حتى وصلنا
إلى المقبرة .

وهناك علمنا أن المقبرة لم يتم فتحها بعد وأن علينا أن نتظر
ما يقترب من الساعة أمام المقبرة حتى يتم فتحها .

وبلغ بى الحزن أقصاه . . . فقد شعرت أن هذه الإنسانية التى
تعذبت فى حياتها لم تنج من سوء الحظ حتى فى لحظاتها الأخيرة وهى
فى طريقها إلى النوم الأبدى حيث تهدأ من عذاب الدنيا وتستريح .

حتى المقبرة ما زالت مغلقة فى وجه الأم العزيزة . . . التى تعذبت
طويلا وصبرت طويلا .

ولم أملك نفسى. أمام هذا الموقف . . . فبكيت . . . وبكيت
بمرارة . . ويشكل لم يحدث لى فى حياتى قط . لقد حزنت يومها حزنا
لم أشعر بمثله ، ولا أظن أننى سأشعر بمثله فى يوم من الأيام .

ماتت فى الأربعين من عمرها .

وعاشت حياتها كلها عذابا طويلا من أجل أولادها ، ولم تستطع أن
تفرح لحظه بثمرة الكفاح .

بل لقد دفعت الثمن وحدها . . . فى سبيلنا جميعا .

وعندما أذكرها - وإنى لأذكرها دائما - أرى فيها ، وهى المرأة الأمية
البسيطة التى لا تقرأ ولا تكتب ، مثلا رائعا للمرأة العظيمة .

إنها تفوقنا جميعا نحن الذين تعلمنا وعرفنا الكثير من متع الحياة
ومسراتها .

٣ - مرحبا بالخريف

مرحبا بالخريف . مرحبا بالأوراق الصفراء التي تتساقط في تسامح وتواضع ورضا كامل على الأرض . . مرحبا بروح التأمل الهادئة التي تملأ الطبيعة في هذا الفصل من فصول العام . . إننى لا أحس أن الأوراق الصفراء المتساقطة قد ماتت ، بل أحس على العكس أنها أدت رسالتها في الحياة ، وأنها ترحل بعد أداء هذه الرسالة بدون ندم ، وأنها تفسح الطريق لمواليد جديدة من مواليد الطبيعة . . وأحس أن هذه الأوراق الصفراء المتساقطة قد تركت الجزء لتذوب في الكل ، تركت أغصان الشجرة لتذوب في الحياة الكبيرة الواسعة .

ما أجمل الهدوء الذى يسود الطبيعة كلها في الخريف .

وما أجمل المعانى التى يثيرها هذا الهدوء فى نفوس الذين يتأملون معنى الحلم الذى لا عنف فيه ، معنى الصفاء فى وجدان المتصوفين ، معنى التجرد والتحكم الكامل فى الغرائز والشهوات .

والطبيعة في الخريف لا تنام ولا تموت كما يتراءى للعين . ولكنها في الحقيقة تعود إلى ذاتها . وتبحث وتنقب . وتستعد للبداية من جديد . . والعودة إلى الذات هي أصعب رحلة في حياة الكائنات الحية جميعا ، وهي في نفس الوقت أجمل رحلة أيضا . إنها في العادة تكون مرحلة صادقة لا ادعاء فيها ولا أكاذيب . إن الكائن الحي عندما يعود إلى ذاته فإنه لا يخفى عليها سرا من الأسرار ، ولا يتظاهر أمامها بما ليس فيه ، إن الكائن مع ذاته هو القاضى والمتهم . . هو الجرح والسكين . . هو الوجه والمرآة في نفس الوقت . . والخريف يذكرنى بجميع الصفات التى أحبها وأتمنى أن أملكها . . . فالخريف هو التواضع والتسامح والبعد عن الزحام . . والبعد عن المظاهر . . والخريف هو الحقيقة الداخلية التى لا ترتدى ثيابا تخطف الأبصار . إنه الصمت الملىء بالمعاني الكبيرة ، والسكون الذى يضم بين جناحيه معظم الحقائق الأساسية في هذا العالم . والخريف في بلادنا أجمل من كل فصول السنة وهو أكثر الفصول همسا وحلاوة وعذوبة .

لذلك كله فأنا أحب الخريف وأهواه وأفضله على غرور الربيع وقسوة الصيف والشتاء .

فمرحبا بالخريف .

٤ - أمنية

وجد نفسه فجأة يسير وسط الطريق وحيدا بأفكاره ومشاعره ،
معزولا عن كل ما حوله بما يدور في عالمه الداخلى من أحلام
وهموم ...

وقفزت إلى ذهنه أمنية واحدة . . . إنه يتمنى أن يجد فرصة ليعيش
في عزلة . يستمع إلى ضوت الحياة ولا يتكلم . ويقرأ ولا يكتب
ويعيش بين الناس فلا يحس به أحد ولا يراه أحد . إن الرؤية أمام
عينيه منذ ميلاده إلى اليوم كثيرة مزدحمة متلاحقة ، ولذلك أوشك أن
يفقد قدرته على التمييز الصحيح بين الأشياء ؛ من كثرة ما مر أمام
العين . . . ومن شدة الزحام . كذلك فإن الأصوات تحاصر أذنه
بكثرة ، فلم يعد يستطيع أن يميز بين صوت الموسيقى أو خرير المياه ،
وبين أصوات المدافع أو نقيق الضفادع ، واختلطت أمامه أبيات
الشعر البديع بكلمات الشر العادى الذى لا جمال فيه . ولم يعد يعرف
ماهو الجميل وماهو القبيح ؟ ! .

وأفقدته خيبة الأمل المتتالية حاسة الثقة بالناس . لذلك فهو يتمنى أن يحصل على عزله طويلة . . . عزلة يتعلم فيها الصمت ، ويتعلم فيها ضبط النفس ، ويتعلم من جديد كيف يميز بالعين بين المرئيات ، وبالأذن بين الأصوات ، ويتعلم كيف يخطو بأقدامه وليس وراءه كرباج الزمن يلسعه ويطارده ، وليس أمامه سراب من الأمل يجذبه وراءه ولا ينال منه قطرة ماء . يريد أن يتسكع في طرقات الحياة بلا خوف من الوقت ولا خوف عليه . يريد أن يجدد آماله ، بل يريد أن يفقد آماله حتى لا يعرف معنى اليأس . فأكثر اليائسين هم أكثر الناس أحلاما . . أما الذين بلا أمل ولا حلم فهم - في نفس الوقت - الذين لا يعرفون معنى اليأس ولا يعرفون معنى الهزيمة . إنه يريد هذه العزلة الكاملة لعدة سنوات . . يريد أن يتخفف من أعباء روحه . . يريد رحلة بعيدة عن زحام الحياة . . رحلة في الظلال الهادئة . . حيث لا يلقي خصومة الناس ولا محبتهم .

فهل يستطيع تحقيق هذا الأمل الذي يلح عليه . . أم أن المسألة ليست سوى حلم من أحلامه ، ونوع من « الهلوسة » يلاحقه عادة في لحظات الإرهاق والتعب الروحي ؟ . . !

٥ - العيون

تستطيع العين أن تجمع كل طاقة القلب في نظرة واحدة .

يمكن للعين أن تحمل المرارة في نظرة ، وتحمل أسى الأيام في نظرة ، ويمكن للعين أن تتكلم بدون ألفاظ ينطق بها اللسان ، وأن تقول في لمحة واحدة ما يظل اللسان يرويه في ساعات أو في أيام . . إن الإنسان يتركز كله ، ويمكن تلخيصه كله في العين . . ولذلك فأنا أحب العيون ، وأخاف العيون .

والفلاسفة والشعراء لم يهتموا بشيء في الإنسان بقدر ما اهتموا بالعين . فالعيون تعوم في بحر خفي من الدموع والأفراح ، بحر قد نراه أحيانا وقد لا نراه ، ولكنه قائم وراء العين . وأقوى العيون تأثيرا هي عيون الأبرياء . . عيون الأطفال والمظلومين ، فإنهم لا يستطيعون التعبير بلسانهم بقدر ما يستطيعون التعبير بعيونهم .

كم أحب العيون وأخاف العيون . . كم أحب الحديث الصامت
الذى ينطلق من بين الجفون . فهو يملك من التأثير على القلب أقوى
مما يملكه أبرع الشعراء وأكثرهم عبقرية في صناعة الألفاظ .

٦ - وجهه

لو كنت نحاتا لأقمت لوجهها تمثالا كتأثيل الفراغة لا يقهره
الزمن .

أحلى الوجوه وجهها . . . قامتها كأنها غصن طويل رائع في شجرة
صفصاف . . . عيونها . . . شعرها . . . لا تسلى عن شيء من
هذا كله . . فلا جواب عنه إلا بالشعر ، وأنا لست من الشعراء . . .

. ولكن الذى يثير العجب فى هذا الوجه الجميل أنه يخفى وراءه قلبا
من الصخر ، وقسوة لا حدود لها ، وجفافا فى كل معانى الإنسانية ،
فلا عاطفة حب فى حياتها ، ولا عاطفة صداقة ، ولا عاطفة ولاء لأى
شئ . . . كل شئ فى حياتها ملفق وأناثى وبعيد عن الصلق .

جمود ، وفحم محترق ، وحصى ، ورمل . . . هذا هو قلبها
ووجدانها وعالم نفسها المعتمة !

لذلك . . .

لو كنت رساما أو نحاتا لرسمت لوحة أو أقمت تمثالا للجمال الرائع
الذى يوحى بشيء واحد هو القبح !

الفهرس

الموضوع	الصفحة
عن الطبعة الثالثة	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٧
التمايل المكسورة	٩
اللذة الخطرة	٢١
الأمريكي الحزين	٣٣
ابتسم	٤٥
المتحرون	٥٧
الزوجة المظلومة	٦٩
بالخضن	٧٩
الطفل المدلل	٨٩
حطم الكأس وعد إلى الحياة	٩٩
الباب الضيق	١٠٩
البئر	١١٧
الصخرة	١٢٧
الحب لا يتكلم كثيرا	١٣٧

الصفحة

الموضوع

١٤٧	أبى . . . إنى أكرهك
١٦١	المغامر
١٧١	العجز العاطفى
١٨١	غرباء
١٩٣	دفاع عن الجسد
٢٠٣	نصف الجنون
٢١١	إرادة البشر
٢٢٣	منجم الفحم
٢٣٣	المرأة والفضيلة والحب
٢٤٣	الزواج الكاذب
٢٥٣	العاشقة
٢٦١	الهاربون من الحياة
٢٧١	صور وخواطر

كتب أخرى للمؤلف

- ١ - في أزمة الثقافة المصرية .
 - ٢ - أبو القاسم الشابي « شاعر الحب والثورة » .
 - ٣ - ثورة الفقراء .
 - ٤ - في أضواء المسرح .
 - ٥ - أدباء معاصرون .
 - ٦ - مقعد صغير أمام الستار « دراسات في النقد المسرحي » .
 - ٧ - أدباء ومواقف .
 - ٨ - أصوات غاضبة في الأدب والنقد .
 - ٩ - كلمات في الفن .
 - ١٠ - محمود درويش « شاعر الأرض المحتلة » .
 - ١١ - بين أنور المعداوي وفدوى طوقان - صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر .
 - ١٢ - الانعزاليون في مصر - رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين .
 - ١٣ - أدب وعروبة .
 - ١٤ - عباس العقاد بين اليمين واليسار .
- ٢٨٧ -

تحت الطبع

- ١ - كفاي شاعر الإنسانية .
- ٢ - دفاع عن طه حسين .
- ٣ - أزمة الثقافة في مصر .
- ٤ - بصراحة أدبية .
- ٥ - أدباء ومواقف - الجزء الثاني .
- ٦ - أدباء ومواقف - الجزء الثالث .
- ٧ - مع الرواية العربية
دراسات نقدية
- ٨ - هل كان العقاد شاعرا ؟
- ٩ - شخصيات وقضايا مسرحية
- ١٠ - سينمائيات
- ١١ - كتابات في الغرب
- ١٢ - بين السياسة والثقافة

هذا الكتاب

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٦٣ باسم « التماثيل المكسرة » ولكن المؤلف اختار له اسمه الحالى « تأملات فى الإنسان » ابتداء من الطبعة الثالثة التى صدرت سنة ١٩٧٧ ، وقد صدرت من هذا الكتاب خمس طبعات ، وهذه هى الطبعة السادسة ، ويقول المؤلف عن هذا الكتاب فى المقدمة :

« إننى أحب هذا الكتاب أكثر من أى كتاب آخر لى ، وذلك ببساطة لأننى كنت أحاول أثناء كتابته أن أعالج نفسى من الحزن والضيق بالحياة . كنت أحاول أن انتصر على عوامل الهزيمة الروحية التى أوشكت أن تسلب منى أى حماس للحياة أو ابتهاج بها . وكلما عدت إلى فصول هذا الكتاب تذفقت فى روحى عزيمة تريد أن تنتصر على الحزن والأسى والتشاؤم . وبمرور الأيام اكتشفت أن الكثيرين يشعرون نحو هذا الكتاب بنفس مشاعرى ، وذلك لأنهم اصطدموا فى طريق الحياة ببعض الأحزان الكبيرة . ودخلوا مع هذه الأحزان صراعاً حاداً أرادوا أن ينتصروا فيه وأن يواصلوا حياتهم رغم عدوان الحزن والكآبة .